الرد على عبد الله الحبشي

تأليف

عبد الله محمد الشامي

دار الاطلاع

الفهرس

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نستعينه ونستهديه ونتوب إليه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهدا أن محمداً عبده ورسوله شهادة أرجو بها النجاة من النار، وأن تكون لي سجلاً يثقل بها ميزاني يوم الحساب.

أما بعد:

فلقد أزعجني ما أراه من أحوال طائفة «الأحباش» الذين أجد فيهم إفراطاً في بعض أمور الدين تارةً... وتفريطاً في البعض الآخر تارة أخرى فأجدهم مثلاً مفرطين في قضية إخراج أحرف الصفير مثلاً.. مفرّطين في المحافظة على صلوات الجمعة وفي صغائر الذنوب وكبائرها، بل وفي قضية تكفيرهم للناس الذين أصبحوا بسببها أصحاب شهرة واسعة.

ولقد كنت أجزم بأن سلوكهم الذي نفّر عوام الناس منهم ليس هو من الدين، فالدين لا يرضى هذا السلوك الشاذ.

ومع أنني لم أكن أرتضي هذا السلوك الشاذ عن «الفطرة» وعن «طبيعة» هذا الدين لكنني لم أكن أعلم السبب الحقيقي الذي أوصلهم إلى هذا التصرف السيء الذي تسبب في تنفير الكثير من الناس، وبعد فترة طويلة وقفت فيها على حقيقة أمرهم، رأيت أن وراءهم رجل يصوغهم «قوالب» متعددة، لا يكاد القالب الأول يخالف الآخر، وما تلبث هذه القوالب «الشاذة» أن تنتشر بين العوام من الناس، فإما أن تؤثر فيهم فيميلون إليها، وإما أن تخلق عندهم «ردة فعل» يميلون بها عن هذا الدين لما يرونه من القدوة السيئة.

«وما أكثر ما سمعته من كثير من عوام الناس، وذلك قولهم: «إذا كان هكذا هو الدين فإني لا أريده » وقول الأكثر التزاماً: «لقد أصبحت المساجد موضع الجدل والخصام والعداوة، لذا فإني سأكتفي على الصلوات في بيتي ولن أقرب هذه المساجد ثانية...

وليس هذا غريباً ، فالأحباش يثيرون الخصومات والجدل في المساجد، ويفسقون ويكفرون الكثيرين من الأئمة فيها، وينادون فيها بفسوق العالم الفلاني وكفر العالم الفلاني... وهكذا حتى لا يكاد يسلم من ألسنتهم «قاذفات التكفير» عالم واحد، وقلما ينجو منها بعضهم إلا من كان موافقاً لهواهم أو مهادناً. وكم أحمل على أولئك المهادنين الذين يرون الباطل ويرون انسياق المسلمين له، وهم مع ذلك يستطيعون تغييره بأيديهم وبألسنتهم، لكنهم آثروا السكوت وكتم ما لديهم من العلم، واختاروا طريق السلامة التي قد تكون سلامة «في الدنيا» لا في الآخرة.

إذ أن هناك حديثاً نبوياً ينذر كل من كتم الحق، بنار تلظى، ففي الحديث الصحيح الذي رواه عبد الله مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«من كتم علماً، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار». [1]

والعلم نعمة أنعم الله بها على العالم، كالمال الذي أنعم الله به على الغني.

والله سبحانه سيسأل العالم عن علمه كسؤاله للغني عن ماله.

فلا يفرحنّ العالم بما استوعب من العلم، إذ أن وراء هذا العلم مسئولية امام الله تعالى، والسؤال واقع على العالم لا محاله وهو قول الله تعالى له يوم القيامة «ماذا عملت فيما علمت»؟. والله تعالى يعافي الأميين من الناس ما لا يعافي علماءهم.

وهذا النداء موجه إلى العلماء الذين يرون بأعينهم الحالة المزرية التي وصل إليها الأحباش من تكفير وإثارة للفرقة وبثٍ للفتنة، ودعوة إلى التشيع والتفرقة وتلاعب بكتاب الله وأحاديث نبيه، وتفسيق أحد صحابته، وهم مع ذلك لا يحركون ساكناً، فيا ويلهم من قوله تعالى:

(إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بينّاه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) [البقرة ١٥٩].

---

١ ـ حديث حسن، أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم (٢٩٦) والحاكم (١٠٢/١) وصححه ووافقه الذهبي.

كلمات إلى الشيخ الحبشي

لست أدري ما الذي يدفعك لإحياء وابتعاث قضية «المعتزلة» الذين ماتوا وماتت عقائدهم الفاسدة معهم، وأصبحوا صفحة مطوية من تاريخ الإسلام فتأبى على نفسك إلا أن تجعل منها «صفحة حاضرة»!..

فلم يعد أحد في زمننا هذا يحمل أصولهم الخمسة ويبثها بين المسلمين، بل ولم يعد أحد متفرغاً لهذه المسائل وبثها من جديد ـ سيما وأن المسلمين في لبنان يواجهون أقسى الظروف وأصعبها، والتي شغلتهم عما تتفرّغ أنت له اليوم ـ.

ولماذا تركز في كتابك على سبهم وإحياء عقائدهم لإحياء محاربتها؟ أتريد محاربتهم؟

إن كنت تريد ذلك فهذا، محال لأن الحرب عندئذ تكون من طرف واحد. إذ أن الطرف الثاني (وهم المعتزلة) لا وجود لهم فماذا ترمي من وراء ذلك؟

إن قلت بأنك تريد محاربة عقائدهم الضالة، فإننا نقول لك:

إن مثلك كمثل من يحزم أمتعته وسلاحه «اليوم» ليشارك في الحرب

العالمية الثانية التي مضى عليها عشرات السنين، وهو لا يريد أن يصدق بأنها أنتهت، بل إنه يصر على خوضها.

فالمعتزلة ولوّا وولّت معهم عقائدهم، بعد أن أفحمهم أهل السنة ونقدوا مبادئهم من أساسها.

وما أرى بعد ذلك من سبب في ذكرهم عند كل مناسبة وفي كل موضوع، إلا أن يكون المراد بذلك ابتعاث الخلافات التي شقت الصفوف في الماضي.

فلو قلت لي بأنك تريد من ذلك إظهار الفرق الضالة على حقيقتها وتبيين موقف أهل السنة منها، قلنا لك:

أولاً: هذا حق، لكن لا يجوز لك أن تبث هذا بين أناس أميين لا يعرفون الضروري من الدين، فلا يجوز جرهم إلى المعتركات الكلامية والمذهبية والبدء بهم من هذا الباب هو فتنة لهم..

إذ أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:
«وما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[1]

فهل من الحكمة والكياسة أن تجمع عندك اللحام والخباز والنجار وغيرهم من عوام الناس فتبدؤهم بحديث الأعراض والجواهر والحادث والجواهر الفردة وفي نظرية الكسب وخلق أفعال العباد؟

هل هذا من جملة المعلوم من الدين بالضرورة؟.. هل المعلوم من الدين بالضرورة أن تخوض بأولئك في قصة الفتنة التي جرت بين الصحابة

١ ـ صون المنطق والكلام ص ٧٢.

فتجعل من معاوية رضي الله عنة «باغياً» أو تقول لا نترضى عنه؟![1].

وليس هذا خوض في جوهر هذه المواضيع، وإنما هو سؤال عن مدى أهمية هذه المواضيع بالنسبة لأناس يجهلون الكثير من أولويات هذا الدين ومعرفة: هل هذه المواضيع هي أول ما يجب على العبد معرفته؟

ثانياً: إنه وإن كنا نوافقك القول بأن المعتزلة قد ضلوا ضلالاً بعيداً لكن الأمر لا يخلو أن تكون موافقاً لهم في العديد من آرائهم وعقائدهم وهذا واضح في هذا الكتاب لمن تتبعه جيداً، ولقد أوضحت فيه الكثير من المسائل التي توافق فيها المعتزلة وإن كنت حاملاً عليهم.

وبهذا تكون قد إبتدأت بتعليم الناس ما يقسي قلوبهم، في حين أنه كان ينبغي لك أن تأتيهم بما يرقق قلوبهم.

ولم تكتف بذلك فحسب، بل إنك ربيتهم على التكلف والتحايل على أوامر الله ونواهيه فترك العديد منهم صلاة الجمعة بعد أكلهم الثوم والبصل، وتكلفوا في إخراج أحرف الصفير، إذ بعد أن طلبت منهم إخراج الحرف مع صوت يشبه صوت العصافير، أصبحوا عندئذ يخرجون تلك الحروف بأصوات لا تعرفها العصافير.

وهم مع ذلك كله فإنهم يرون بأن ما تأمرهم به هو الحق، إذ أنك تعطيهم أوامرك على طريقة «لا أريكم إلا ما أرى».

أما عن تسميتك لكتابك بـ «الدليل القويم على الصراط المستقيم»! ففي محتوى هذا الكتاب ما لا يوافق غلافه، لأن الصراط المستقيم عندنا لا

---

١ ـ مع أن من لهم معرفة بالرجال وأحوالهم ممن هم قبل الحبشي كانوا يترضون عن هذا الصحابي الجليل، ولسنا نعتقد أن يكون الحبشي أفضل من البخاري ومسلم وغيرهما من رجال الحديث الذين كانوا يترضون عنه في كل مرة يأتي ذكره، وللمثال على ذلك راجع البخاري ٤/ ٢١٩ باب مناقب أصحاب النبي ﷺ.

يكون إلا من كتاب أو سنة، أما الصراط المستقيم الذي عندك فهو من مصدر يوناني فلسفي يحث على الخوض في ذات الله والعبث بآياته، وابتعاث الفتن الحاصلة في عهد صحابته، ويحث كذلك على الخوض في القدر، فكيف يكون هذا الكتاب بعد ذلك كله صراطاً مستقيماً؟..

وهذا كله مخالف للطريق الذي سار علية الراسخون في العلم، والذي تروج للناس بأنك منهم.

فإن كنت حقاً من الراسخين، فما بالك إذن تخالف الراسخين في العلم في قضايا العقائد التي هي باب هذا الدين؟ لماذا خالفتهم في منهجهم من الصفات الإلهية وفي منهجهم من طريقة الإثبات والتنزيه، وفي منهجهم وموقفهم من الفتن التي وقعت في عهد الصحابة؟

وحتى طريقتك في تنزيه الله هي مخالفة لطريقة تنزيه الراسخين في العلم، فالراسخون في العلم لم يأتوا بهذا النفي التفصيلي الذي تعتمده أنت، والذي إضطرك في آخر الأمر أن تقول: «ومن قال زب الله فقد كفر» و «ومن قال دخيل رجلين الله فقد كفر» ١. هـ[1]

فانظر إلى قباحة التنزيه الذي تعلمه الناس، إنك تفتح أذهانهم وتنبههم إلى ما لا ينبغي لفت نظرهم إليه. فلو إفترضنا أن رجلاً استوقف رجلاً آخر على الطريق وأراد مدحه وتنزيهه قائلاً له: أنت لست خنزيراً ولا كلباً ولا زنديقاً ولا ديوثاً الخ... لكان في هذا التنزيه ما يغضب الرجل الآخر، أو أن يستوقف رجل إمرأةً على الطريق من أجل أن يثني عليها كأن يقول: «أنتِ لستِ زانية ولا عاهرة الخ... ألا يكون هذا التكريم وهذا التنزيه عن الرذيلة هو رذيلة يغضب هذه المرأة ـ وهي مخلوقة ـ فكيف الله تعالى، وهو الخالق؟

---

١ ـ الدليل القويم ١٤٩.

هل يجوز عليه هذا التنزيه القبيح، الذي هو ليس في الحقيقة تنزيهاً؟

أما عن ادعائك بأنك من المحبذين لطريقة أبي الحسن الأشعري رحمه الله، من الراغبين في سلوكها ويبين ذلك ماتمتدحه فيه بقولك:

إثنـان من يعـذلني فيهـما فهو على التحقيق مني بري
حب أبي بكر إمام الهدى ثم اعتقادي مذهب الأشعري

فقد فصلت في هذا الكتاب كثيراً من الأمور التي تعتقدها والتي تخالف فيها مذهب الأشعري. بل والتي لأجلها حارب الأشعري المعتزلة.

فهذا الشعر الذي تنقله عن القشيري ليس إلا حجة عليك، لأنك خالفت الأشعري في مذهبه في الصفات وفي عدم التأويل وفي ترضية عن كل الصحابة «بما فيهم معاوية رضي الله عنه»، فيلزمك من هذين البيتين من الشعر أن تتبرأ من نفسك لأنك لا تعتقد مذهب الأشعري.

بل إن طريقك ومذهبك قد سبب الفرقة بين المسلمين، وكأني أرى بداية تشيع أبنائك وانسلاخهم عن بقية المسلمين، وهذا ما أخافه، فالحبشية لا ترتضي زوجاً إلا أن يكون حبشياً!! والعكس.. وكل ما سوى عقيدة الأحباش باطلة،لذلك فما زال أبناؤك حتى اليوم ينهشون من لحوم العلماء (قديمهم وحديثهم) تكفيراً وتفسيقاً وقلّما سلم عالم من هؤلاء العلماء.

حقاً إنها نكبة جديدة، ومأساة تضاف إلى تلك المآسي التي يتعرض لها أهل الإسلام في لبنان من مؤمرات جماعية وحرب شنيعة لإبادتهم في عقيدتهم.

---

١ ـ الدليل القويم ٦.

فهل كان مسلمو لبنان في حاجة إلى تلك الفلسفات والسفسطائيات التي تعلمهم إياها وتنشئهم عليها لتزيد الطين بلة؟

إعلم أن هذه الفلسفات قد دخلت الدّين قديماً، وأحدثت فيه انقساماً واسعاً، فأصبحت الأمة الواحدة، أمة تفرقت وكانت شيعاً، كل فرقة منهم أخذت نصيباً وافراً من مبادىء اليونان، فخاضت في هذا الدين ما خاضت وعطلت منه ما عطلت، فالمصدر الذي أخذت عنه هذه الفرق هو واحد، وهو يوناني فلسفي، وأما اختلافهم فسببه ابناء فلسفة اليونان، إذ منهم من تبنى قول آرسطو، ومنهم من تبنّى قول افلوطين ومنهم من تبنّى شيئاً من آراء وهذا وشيئاً من آراء ذاك، فأصبحت ترى انقسامهم إلى جهمي، وقرمطي، وصوفي، ومعتزلي، واسماعيلي وشيعي ودهري الخ...

فهذه العلوم تفرق ولا تجمع!!

والحالة التي يعانيها أبناء المسلمين في لبنان تتطلب شيئاً يجمع لا شيئاً يفرق.

فقد كفاهم هذا التمزيق الذي أحدثته الأحزاب والقوميات والثوريات «المصطنعة» التي دخلت عليهم وفرقتهم.

وكفاهم التمزيق الذي كان نتيجة توجية الضربات القاصمة التي سددها لهم أعداؤهم.

وليسوا بعد ذلك بحاجة إلى ما يؤدي إلى تمزيق حدتهم من الداخل

فاتق الله فى أبناء هذه الأمة وأعلم أن هذا لن يشفع لك في موقفك أمام الله تعالى يوم الحساب، يوم تقف عارياً حافياً يسألك الله عن كل صغيرة وكبيرة، واعلم أن كل وزر يقع به أبناؤك ممّا علمتهم إياه فإن لك

نصيباً منه حتى وإن بقيت هذه الأوزار تقع من بعدك، وإستشعر بعد ذلك قوله تعالى: (واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) [البقرة ٢٨١]

وفي الخاتمة أدعو الله لي ولك بالهداية واتباع طريق الحق، وهذا والله ما أدعو لك الله به دائماً، إنه سميع مجيب.

سب الاحباش لمعاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه

ولست أدري ما الذي دفع الحبشي إلى سب هذا الصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وإبلاغ الناس بأنه فاسق !! . . .

هل هذا من المعلوم من الدين بالضرورة، هل من الضرورة أن يحيى الحبشي فتنة قد خمدت وكاد الناس ينسونها بل قد نسوها - فاستئانف المحكمة بين معاوية وعلي رضي الله عنهما، وخاض فيهما ما خاضه الروافض والشيعة من قبله، ولست ارى في معرض إسهابي لهذا الموضوع أجمل من أن أذكر هذه الجملة الرائعة التي قالها عمر بن عبدالعزيز حين سئل عن حقيقة تلك الفتنة ومن المحق فيها من المخطىء فقال: «تلك فتنة قد طهر الله منها سيوفنا وايدينا، أفلا نطهر منها ألسنتنا»[1]. .

ثم إن إحياء الفتنة وإيقاظها بعد ان ماتت وخمدت هو أشد عند الله من القتل، قال تعالى: «والفتنة أشد من القتل». واثارة الخلاف فيما كان بين الصحابة هو فتنة فالفتنة نائمة ولعن الله من أيقظها».

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي

---

١ - الحلية ٩/ ١١٤ - آداب ومناقب الشافعي ٣١٤ ومناقب الفخر ٤٩ وعن طريق الشافعي وعن غيره في جامع بيان العلم ٢/ ٩٣ وصون المنطق ١٣٤.

بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولانصيفه[1].

وكذلك ثبت عنه انه قال: «الله، الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي[2].

وكان الامام احمد يروي هذا الحديث المأثور عن رسول الله ﷺ: إياكم وماشجر بين أصحابي» وكان لا يمس معاوية بسوء ويرى أن له فضلاً وكان إذا سئل رضي الله عنه عن ما وقع بين معاوية وعلي يقرأ هذه الآية الكريمة[3] (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون[4]، [البقرة ١٣٤].

وكان يقول: «من انتقص أحداً من أصحاب رسول الله، أو أبغضه لحدث كان منه، أو ذكر مساوئه كان مبتدعاً حتى يترحم عليهم جميعاً ويكون قلبه لهم سليماً... رحمهم الله أجمعين ومعاوية، وعمر وابن العاص، وأبو موسى الأشعري، والمغيرة، كلهم وصفهم الله تعالى في كتابه فقال: (سيماهم في وجوههم من أثر السجود) [الفتح ٢٩][5].. صفوا الله بما وصف به نفسه، واحذروا الجدال مع أصحاب الأهواء، والكف عن مساوىء أصحاب رسول الله ﷺ»[6].

وعن عبدالله بن الامام احمد بن حنبل قال: «سألت أبي عن رجل

---

١ - أخرجه أبو داود ح (٤٦٥٨) والترمذي في كتاب المناقب ح (٣٨٦١) ومسلم في باب تحريم سب الصحابة رقم (٢٥٤٠) ٤/ ١٩٦٧ وأحمد ٣/ ١١ والبخاري ٥/ ٨.

٢ - أخرجه والترمذي في كتاب المناقب ح (٣٨٦٢)، ورواه أحمد في مسنده ٤/ ٨٧ و ٥/ ٥٤ - ٥٧.

٣ - أحمد بن حنبل (سلسلة اعلام المسلمين) عبد الغني الدقر ١٥٠ - ١٥١، طبقات الحنابلة ٢٧٢/٢ مقدمة ابن تميم.

٤ - مناقب الإمام أحمد «لابن الجوزي» ص ١٦٤ ط دار الآفاق الجديدة.

٥ - المناقب «لابن الجوزي» ١٦١ - ١٦٤.

٦ - المناقب «لابن الجوزي» ١٧٠.

يشتم رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ فقال (أي الامام احمد) : «ما أراه على الاسلام[1]».

وأخرج ابي مردويه عن ابن عمر ضي الله عنهما انه سمع رجلاً وهو يتناول بعض المهاجرين فقرأ عليه: «للفقراء المهاجرين» الآية، ثم قال: «هؤلاء هم المهاجرون أفأنت منهم قال: «لا» ثم قرأ عليه «والذين تبوؤ الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم» الآية ثم قال «هؤلاء الأنصار أفأنت منهم ؟ قال: لا، ثم قرأ عليه «والذين جاؤوا من بعدهم» الآية، فقال أفمن هؤلاء أنت ؟ قال: أرجو، قال: «ليس من هؤلاء من سب هؤلاء».

وقد كان أحد التابعين يقول: «إن معاوية ستر لأصحاب رسول الله ﷺ فمن كشف الستر إجترأ على ما وراءه»١٠هـ.

يعني بذلك فمن إجترأ على سب معاوية لم يعد من الصعب عليه سب الباقين.

وقال الامام أحمد في كتابه «السنة»: «ومن السنة ذكر محاسن أصحاب رسول الله ﷺ كلهم أجمعين، والكف عن الذي جرى بينهم، فمن سب أصحاب رسول الله ﷺ أو واحداً منهم فهو مبتدع رافضي، ولا يجوز لأحد أن يذكر شيئاً من مساوئهم ولا يطعن على أحد منهم».

وقال ابو بكر المروذي: قيل لأبي عبدالله (احمد) ونحن بالعسكر وقد جاء بعض رسل الخليفة فقال: يا ابا عبدالله: فيما كان بين علي ومعاوية فقال: ما أقول فيهم إلا الحسنى[2]» وقوله: «واذا رأيت رجلاً يذكر أحداً

١ ـ أحمد بن حنبل (من سلسلة اعلام المسلمين) ١٥١، ومناقب الإمام أحمد ١٦٥، والذهبي في مقدمة المسند ص ٨١، الأئمة الأربعة لمصطفى الشكعة ٧٩٢.

٢ ـ الذهبي عن مقدمة المسند ص ٨١.

أصحاب رسول الله بسوء فاتهمه على الإسلام[1]».

وذكر بين يدي مالك رضي الله عنه رجل ينتقص من أصحاب رسول الله ﷺ (أي يذكرهم بسوء) فقرأ مالك: «محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم» الى قوله تعالى «ليغيظ بهم الكفار [الفتح ٢٩] ثم قال: «من أصبح من الناس في قلبه غل على أحدٍ من أصحاب النبي ﷺ فقد أصابته هذه الآية». واذا ذكرنا أقوال التابعين رضي الله عنهم وآراءهم في الصحابة وحكمهم فيمن يسبهم ويذكر مساوئهم، علمنا عندئذ أن الخوض في فتن الماضي ليس من المعلوم من الدين بالضرورة، بل هو من المعلوم فساده بالضرورة. وليس لأحد أن يدعي ويزعم بأنه من أهل السنة وعلى مذهب أهل السنة وهو يسب ويفسق بعض من أسهموا بنقل السنة إلينا ـ بل وبنقل كتاب الله ـ فكيف يشتم ويفسق من كان كاتباً لوحي رسول الله ﷺ؟.. ويكفيه من ذلك أنه كان صحابياً لرسول الله فيدخل في حكم من نهى رسول الله ﷺ عن سبهم قال عليه الصلاة والسلام: «إذا ذكر اصحابي فأمسكوا»[2]

فضائل معاوية رضي الله عنه

يرى الحبشي أنه لم يثبت شيء في فضائل معاوية فقد قال: «ومن قال بأن القتلى والقاتلين كلاهما في الجنة فهو مخطىء ولا دليل على ذلك، إذ أن معاوية كان زعيم الفئة الباغية وقد قال رسول الله ﷺ: «عمار تقتله الفئة

---

١ ـ المناقب ١٦٠.

٢ ـ معناه إذا ابتدىء ذكر أصحابي بسوء فاسكتوا عن ذلك. وسيأتي تخريجه من فصل «هل المتكلمون من الطائفة الناجية».

الباغية» وقوله ﷺ فيه: «يدعوهم الى الجنة ويدعونه الى النار»[1]. ا ه‍
ومن اعجب العجب أن يفهم الحبشي من قول النبي ﷺ «يدعونه الى النار» أنهم يدخلون النار، فإنه ما في الحديث الشريف ما يؤكد ذلك، أو يوجب هذا الحكم الذي يجزم به الحبشي.

ويكفيك من فضائل معاوية رضي الله عنه أنه كان كاتباً للوحي وهذا يقتضي منه أنه كان ملازماً للنبي ﷺ مرافقاً له تحسباً لنزول الوحي عليه ليسارع الى كتابته، وقد ثبت هذا في صحيح مسلم أن النبي ﷺ استجاب لطلب ابي سفيان بن حرب رضي الله عنه، في أن يكون ابنه معاوية كاتباً لوحي رسول الله ﷺ[2] فلو اقتصرنا على هذه الفضيلة لكفت، إذ كيف يكون كاتب الوحي المنزل فاسقاً أو من أهل النار؟.. ومن ذا الذي يرضى أن ينتقص من معاوية الذي كتب ما أنزله جبريل من ربه على النبي ﷺ؟

ثم إننا بيّنا في الباب السابق تورع التابعين من الأئمة كأحمد ومالك عن الخوض فيما جرى بين علي ومعاوية وتجنبهم الحكم فيهما لقول الامام أحمد حين سُئل عما جرى بين علي ومعاوية: ما أقول فيهم إلا الحسنى[3].

وقد حكى ابن الجوزي عن الامام احمد انه كان لا يمس معاوية بسوء، بل إنه كان يرى له فضلا على عكس مايزعم الحبشي[4] بل كان يترحم على معاوية، ويعرض عمن يتكلم فيه بسوء[5].

---

١ - الدليل القويم ٢١٤.
٢ - مسلم ٤/ ١٩٤٥ ح (٢٥٠١).
٣ - ترجمة الذهبي عن مقدمة المسند ص ٨١، ولابن خلدون كلاماً طيباً في قضية الخلاف هذه فليراجع «مقدمة ابن خلدون» ص ٢١٠.
٤ - المناقب لابن الجوزي ١٦٤.
٥ - نفس المصدر ١٧٠.

ومن فضائله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قد دعا له فقال: «اللهم علمه الكتاب والحساب، وقه العذاب»[1].

ولقد ثبتت بعض فضائل معاوية رضي الله عنه في صحيح البخاري فقد افتتح البخاري ذكر فضائل معاوية بن أبي سفيان تحت: «باب ذكر معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه فقال:

«عن أبي مليكة قال: «أوتر معاوية بعد العشاء بركعة، وعنده مولى لإبن عباس فأتى ابن عباس فقال: «دعه فإنه قد صحب رسول الله ﷺ»[2] وقوله في الحديث الذي يليه «إنه فقيه»

فانظر الى إجلال الصحابة واحترامهم لكل من صحب رسول الله ﷺ. وراجع في نفسك هذه الكلمة القيمة لابن عباس رضي الله عنه والتي يقول فيها: «فإنه قد صحب رسول الله» لتعلم أن الصحابة رضوان الله عليهم قد التزموا قول النبي ﷺ «الله الله في اصحابي» وقوله «لا تسبوا أصحابي»[3] ولتعلم إجلالهم وتقديرهم لكل من نال شرف صحبته ﷺ وقوله عليه الصلاة والسلام: «اذا ذكر اصحابي فأمسكوا» وهذا هو غاية الأدب مع أصحاب النبي ﷺ، إذ أن هذه الاحاديث تلزم الصحابة وغيرهم من الناس أن يكفوا عن ذكر أياً من أصحاب رسول الله وهذا هو منهج الصحابة فمن لم يلتزم ما التزموه فليس منهم في شيء.

---

١ - رواه ابن عبد البر في الاستيعاب ٣/١٤٢٠ وذكره إبن كثير في البداية ١٢٢/٨ من طريق العرباض، وأحمد، وابن جرير من حديث ابن مهدي، وكذلك رواه اسد بن موسى، وبشر بن السري. ورواه ابن عدي وغيره من حديث عثمان بن عبدالرحمن الجمحي عن عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم علم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب» ورواته ثقات.

٢ - أخرجه البخاري ٤/ ٣١٨ في فضائل أصحاب النبي باب رقم ٣١، وانظر الإصابة لإبن حجر ٣/ ٤٣٣.

٣ - سبق تخريجها.

ورفع رسول الله ﷺ يديه يدعو لمعاوية فقال: «اللهم اهده بالهدى، وجنبه الردى، واغفر له في الآخرة والأولى[1]». وفي رواية للترمذي «اللهم اجعله هادياً واهد به»[2].

فمن سمع هذه الاحاديث الثابتة عن معاوية رضي الله عنه وأرضاه، وأصر على تفسيقه فكأنه يزعم بأن الله لا يتقبل دعاء نبيه، ولا يجيبه على سؤاله لمعاوية بأن يجعله هادياً، ويقيه العذاب ويعلمه الكتاب والحساب.

ولو لم يكن معاوية كاتباً للوحي المنزل من الله بواسطة جبريل على محمد ﷺ لتطرق الينا الشك من حقيقة أمره، أما أن يكون كاتباً للوحي وفاسقاً في آن واحد، فلا يعقل ان ينال أشرف وظيفة عند رسول الله ﷺ واحد من الفساق الذي أجمله الحبشي مع فئة اهل النار.

---

١ ـ رواه الطبراني عن عائشة ورواته ثقات وهم أحمد بن محمد الصيدلاني عن بشر بن السري عن عاصم عن عبد الله بن يحيى بن هشام ابن عروة عن أبيه.

٢ ـ أورد ابن حجر الهيثمي رحمه الله هذا الحديث ثم قال: فتأمل هذا الدعاء من الصادق المصدوق وأن أدعيته لأمته. لاسيما أصحابه ـ مقبولة غير مردودة، تعلم أن الله سبحانه استجاب لرسول الله ﷺ هذا الدعاء لمعاوية فجعله هادياً للناس مهدياً في نفسه، ومن جمع الله له بين هاتين المرتبتين كيف يتخيل فيه ما تقوّله المبطلون ووصمه به المعاندون، ا.هـ انظر كتاب تطهير الجنان واللسان عن الخطورة والتفوّه بثلب سيدنا معاوية بن أبي سفيان ص ١٤ .

الأحاديث المروية عن معاوية رضي الله عنه

ولقد أخذ المحدثون روايات كثيرة لمعاوية رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ كالترمذي ومسلم والبخاري وأبو داود وابن ماجة ونبدؤهم بالمحدِّثيْنْ العظيميْنْ (البخاري ومسلم).

وهذان المحدثان قد أخذا عن معاوية رضي الله عنه الأحاديث الكثيرة نذكر منها ما يلي:

رقم الحديث	مسلم رقم الكتاب الخاص به	البخاري رقم الحديث
٣٨٧	ك ٤	٩٧٤
٨٨٣	ك ٧	٩٧٥
١٠٣٧	ك ١٢	
١٠٣٧	ك ٣٣	
١٠٣٨	ك ١٢	٦٢
١١٢٩	ك ١٣	٩٧٧
١٢٤٦	ك ١٥	١٠٢٠
٢١٢٧	ك ٣٧	٨٩٠
٢٣٥٢	ك ٤٣	١٦٢٧
٢٧٠١	ك ٤٨	

أما باقي المحدثين فقد أخذوا عن معاوية أحاديث عديدة أيضاً منها:

١ ـ سنن ابن ماجة: ـ كتاب الأشربة، ح (٣٣٨٩) و ح (٣٧٤٣) ص ١٢٣٢.

٢ ـ سنن أبي داود: ـ ٢/٣٨٨ باب في جلود النمور والسباع.

٣ ـ سنن الترمذي: ح (٢٩٠٣) باب كراهية القيام.

وكذلك في أبواب الدعوات[1].

وهذه الاحاديث المروية عن معاوية رضي الله عنه، لو كان فيه شيء من الفسق لما أخذوا منها شيئاً، لكنهم اخذوا عنه تلك الاحاديث فيه لأنهم يرون فيه ما يخالفهم الحبشي ولأنهم مجمعون على ما لم يوافقهم عليه.

ولنقف عند البخاري ومسلم دون غيرهما من المحدثين فنقول:

لقد أخذ البخاري ومسلم تلك الروايات عن معاوية وأدرجاها في صحيحيهما واعتبرت من جملة الصحيح فيهما. فهل يعقل أن يكون الحديث صحيحاً وراويه فاسق؟

ولقد علمنا أن البخاري ومسلم كانا الأكثر تشدداً لقبول الحديث من حيث الصحة، ولهما في ذلك شروط كثيرة لايتسع المقام لها هاهنا، وقد تركا أحاديث كثيرة عن رواة كثيرين إذا أخل الرواة بشرط واحد من شروطهما.

فلا يعقل منهما أن يكونا متشدْدين هذه الشدة في أخذ الحديث عن

---

١ ـ قال ابن حجر: روى عنه من الصحابة ابن عباس وجرير البجلي والنعمان بن بشير ومعاوية بن خديج وعبد الله بن الزبير، ومن كبار التابعين: مروان بن الحكم، وعبد الله الحرث بن نوفل، وسعيد بن المسيب وقيس ابن أبي حازم وأبو ادريس الخولاني. (الإصابة ٣/ ٤٣٤).

الرواة، ثم يتساهلان بعد ذلك هذا التساهل الكبير بأن يأخذا أحاديثاً كثيرة عمن يزعم الحبشي بأنه من أهل الفسق مروجاً ذلك لتلاميذه.

لأن أخذهما برواياته رضى الله عنه يتعارض مع تسمية كتابيهما «بالصحيحين» !

وماذا هو موقف الحبشي من تلك الاحاديث الصحيحة الثابتة عند البخاري ومسلم؟ هل يقبل صحتها أم أنه يطعن بها لأن الراوي عنده ليس عدلاً ولاثقة بل هو فاسق بزعمه؟ إن قبل الاحاديث على أنها صحيحة فقد وقع في التناقض لأن صحة الحديث دليل على صحة راوية واستيفائه للشروط التي وضعها مسلم والبخاري.

وعندها نقول له بأننا لا نعقل أن يكون راوي الأحاديث الصحيحة فاسقاً، وهذه الأحاديث قد بقيت منذ تدوينها في الصحيحين على صحتها ولم يأت عالم من «أهل السنة» ويضعف هذه الأحاديث أو يطالب بالغائها بحجة أن راويها فاسق.

وعلى افتراض ان معاوية فاسق نقول:

أولاً: إما ان يكون البخاري ومسلم قد غاب عنهما سيرة معاوية «وفسقه» فأخذا عنه تلك الأحاديث، وهذا غير معقول، إذ أنهما كانا ينقبان كثيراً عن سيرة رواة غير مشهورين فيأخذان بالحديث إن حسنت سيرتهم أو يردانه إن علم من سيرتهم شيء من الكذب أو الضعف الخ...

ومعاوية كان مشهوراً في سيرته فقد كان ملكاً وليس للبخاري ومسلم الحاجة في التنقيب ليلاً ونهاراً عن سيرته لأن معرفة ذلك يسيرة سهلة بحكم شهرته ومعرفته بين الناس، فلا يصح القول عندئذ بأن صاحبي الصحيحين لم يعلما عن فسق معاوية شيئا لأنهما قد آلا على انفسهما

معرفة الراوي والبحث عن سيرته كشرط للأخذ بحديثه، فما بالك برجل كمعاوية، كان ذكره على ألسنة الناس في مشارق الارض ومغاربها؟.

أما أن يكون البخاري ومسلم قد أخذا عنه تلك الأحاديث مع علمهما بفسقه فهذا ليس تجريحاً للصحابي الجليل فحسب بل إنه تجريح لهذين المحدثين العظيمين. واتهام لهما بأنهما قد أخلاّ بشروطهما التي اشترطاها لقبول صحة الحديث.

وليس الأمر هذا ولا ذاك، بل إنه الإجماع الذي أجمع عليه أهل السنة وهو أننا لا نتعرض لأحد من صحابة رسول الله بسوء، ولا نذكرهم إلا بخير.

وعلى هذا فإنك تجد البخاري يضع الى جانب اسم «معاوية» كلمة «رضي الله عنه» وكذلك يفعل مسلم وغيرهما من المحدثين [1].

فليست الأحاديث مطعوناً بها بل هي صحيحة، وليس الراوي فاسقاً، وليست العلة في صاحبي الصحيحين وغيرهما من المحدثين، بل إن العلة فيمن يخالف أهل السنة ويوافق الشيعة في سب رجل شهد له أئمة أهل السنة بخير. وشهد له المتشيعون بالفسق والفجور.

فمن ذكره بخير فهو سني محض، ومن ذكره بسوء فهو شيعي محض.

وليس من المعقول أن يأتي الحبشي بهذا النبأ الجديد، فيكتشف في صحابي من صحابة رسول الله ﷺ فسوقاً لم يقل به أحد من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان. وليس من المعقول كذلك أن يكون أحذق من أولئك جميعهم، فيكشف للأمة ما غاب عنهم طيلة ثلاثة عشر قرناً، بل

---

١ - أنظر البخاري ٤/ ٢١٩ باب فضائل أصحاب النبي ﷺ.

ليس هو ـ في موقفه هذا ـ إلا شبه متشيع لأنه موافق للشيعة في هذا الباب.

فإن كان الحبشي مصراً على هذا الموقف فما عليه إلا أن ينهى عن الأحاديث الصحيحة (المروية عن معاوية) وأن يعتبرها متروكة لفسوق راويها. فإن فعل فقد ضرب أجماع الأمة على صحة هذه الأحاديث، وإن لم يفعل كانت صحتها حجة ضد ما يقول ويزعم، لأن صحة الأحاديث الواردة عن معاوية رضي الله عنه دالة على أن البخاري ومسلم قد وجدا في معاوية رضي الله عنه الشروط المطلوبة لقبول روايته، ولولا ذلك ما فعلا.

معاوية كاتبا لوحي السماء

ومن فضائله رضي الله تعالى عنه أنه كان كاتباً للوحي المنزل على رسول الله ﷺ. وهذه فضيلة تفوق فضيلة روايته للحديث.

وقد بينا ما جاء في صحيح مسلم عن ارتضاء الرسول ﷺ وقبوله أن يكون معاوية رضي الله عنه كاتباً لوحيه.(١)

وهنا نقطة جديرة بالتدبر والانتباه وهي:

أن موافقة الرسول لمعاوية على كتابة الوحي ليست إلا علامة على ارتضاء الله ذلك لمعاوية رضي الله عنه، لأن النبي ﷺ «لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى».

وحينما رضي الله لمعاوية أن يكون كاتباً لوحيه، كان يعلم سبحانه وتعالى ما سيكون من عمل معاوية بل وماذا يكون مصيره ـ شقياً أم سعيداً، وبالطبع فإن الله يعلم ماذا سيكون من أمر الفتنة ومن المحق فيها من المخطىء، ويعلم إن كان معاوية من الفاسقين أم من الصالحين.

والحجة على الحبشي هي أن الله تعالى قد ارتضى أن يكون معاوية

---

١ ـ مسلم ح (٢٥٠١) ص ٤/ ١٩٤٥ وانظر الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ٣/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤ وقد قال بذلك، قال الحافظ ابن حجر: روى أبو نعيم بأن معاوية كان من الكتبة الحسبة الفصحاء، حليماً وقوراً وصحب النبي وكتب له.

كاتباً لوحيه مع أنه يعلم هل سيكون معاوية فاسقاً أم لا، فأوحى لنبيه أن يرضى ذلك لمعاوية، فكان معاوية كاتباً، وهذه فضيلة لا ينكرها أحد.

فهل يرتضي الله أن يجعل «الفاسق» (بزعم الحبشي) أميناً على كتابة وحيه؟ أو ليس الله عنده علم الغيب؟.. فإن كان يعلم بعلم الغيب الذي عنده أن معاوية سيكون فاسقاً فكيف يرضى أن يكتب آياته المنزلة (فاسق)؟ أو لم يكن قادراً على صرف رسوله ﷺ عن قبول معاوية أميناً على كتابة الوحي؟..

والأمر هو إحدى اثنتين: إما أن يكون قد رضي له ذلك مع علمه بفسقه، وهذا اجتراء على الله وافتراء عليه، وإما أنها فضيلة لمعاوية قد اختصه بها دون غيره من الصحابة، ليجعلها حجة على القائلين بعد ذلك بفسقه؟!!...

وهل يقبل عاقل القول بأن هذا الكتاب الذي تردده الألسن كل يوم، وتحفظه الصدور، وتخشع له القلوب. وتدمع لقوة تأثيره العيون، وتقشعر منه الجلود، هل يقبل القول بأن الذي كلفه الرسول كتابته كان فاسقاً؟.. لا أعتقد أن أحداً يرضى بهذا.

إذن فمعاوية كان كاتباً للوحي، وناقلاً بعض الأحاديث عن النبي ﷺ، وقد شهد له الصحابة كابن عباس وغيره بالفضل، وشهد له التابعون بذلك أيضاً وأجمع أهل السنة على ذكر محاسنه، والسكوت عما جرى بينه وبين علي رضي الله عنهما، وهذا ثابت في كتبهم ومنقول عنهم كما ذكرناه في أول هذا الفصل، بل وقد نهوا عن ذكر معاوية بأي سوء، وكان أشدهم تعظيماً لهذا الأمر هو الإمام أحمد رحمه الله إذ سئل عن رجل يسب معاوية وشتمه فقال: «ما أراه على الإسلام»، ومن هذه الروايات ما هو

مروي عنه في الكتب الكثيرة أبرزها كتاب «مناقب الإمام أحمد» للإمام أبي الفرج إبن الجوزي، وكتاب تطهير الجنان واللسان لإبن حجر الهيثمي.

هذا ولا ينبغي لأحد أن ينسى أن معاوية هو صهر رسول الله ﷺ، إذ هو أخ لأم حبيبة زوجة رسول الله ﷺ. فإن كان كاتباً لرسول الله ﷺ وصهره في آن واحد فأي فضيلة أعظم من هاتين الفضيلتين؟!!..[1]

موقف الأشعري من معاوية

لم يكن الأشعري رحمه الله مخالفاً لأهل السنة فيما قالوه عن معاوية، كما أنه لم يفسقه ولم يلمح بأنه من أهل النار كما يفعل الحبشي اليوم. ومخالفة الحبشي للأشعري تتناقض مع نقله هذا البيت في كتابه «الدليل القويم».

إثنان من يعذلني فيهما — فهو على التحقيق مني بري
حب أبي بكر إمام الهدى — ثم اعتقادي مذهب الأشعري[2]

إن نقله لهذا البيت من الشعر عن القشيري يعتبر بمثابة ثناء ومدح لمذهب الأشعري لكنه يخالف هذا المذهب في معظم المسائل فإن سب معاوية وإنكار فضائله ليس من مذهب الأشعري بل هو من مذهب المعتزلة الذين ذمهم الحافظ ابن عساكر لقولهم عن معاوية رضي الله عنه أنه لا تقبل شهادته، فقال:

«وكذلك قالت المعتزلة إن أمير المؤمنين معاوية وطلحة والزبير وأم المؤمنين

---

١ ـ نفس المصدر والصفحة (الإصابة ٣/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤).
٢ ـ الدليل القويم ص ٦.

عائشة وكل من تبعهم رضي الله عنهم، على الخطأ، ولو شهدوا بحبة عمدة لم تقبل شهادتهم». ثم قال: فسلك (الإمام أبوالحسن) رضي الله عنه طريقةً بينهم (وبين الأموية الذين قالوا في هؤلاء الصحابة بأنهم لا يخطئون) وقال: كل مجتهد مصيب، وكلهم على الحق، وأنهم لم يختلفوا في الأصول، وإنما اختلفوا في الفروع، فأدى اجتهاد كل واحد منهم إلى شيء، فهو مصيب وله الأجر والثواب على ذلك».[1]

ومن هنا يتبين التناقض عند الحبشي، إذ أنه يحارب المعتزلة في كتابه ويوافقهم في كثير من آرائهم منها: سب صحابي جليل كان كاتباً لما ينزل به جبريل على محمد عليهما السلام. بل هو إلى الرفض أقرب منه إلى الاعتزال.

وكذلك فإن في الإبانة كلاماً للأشعري يبين فيه موقفه من الصحابة ومن معاوية رضي الله عنه بالذات، إذ يقول:

«ونتولى سائر أصحاب النبي ﷺ ونكف عما شجر بينهم»،[2] ويقول:

«وكذلك ما جرى بين علي ومعاوية رضي الله عنهما كان على تأويل واجتهاد، وكل الصحابة أئمة مأمونون غير متهمين في الدين، وقد أثنى الله ورسوله على جميعهم، وتعبَّدنا بتوقيرهم وتعظيمهم وموالاتهم، **والتبري من كل من ينقص أحداً منهم**».[3]

إن الحبشي يلمح في بيتيّ الشعر أنه يتبرأ ممن لا يرضى بإعتناق مذهب الأشعري مع أن الأشعري يتبرأ ممن يخالف مذهبه في إنتقاص أي واحد من الصحابة، فمن الذي يتبرأ من الآخر؟.

---

١ ـ تبيين كذب المفتري للحافظ ابن عساكر ص ١٥١ ـ ١٥٢.
٢ ـ الإبانة عن أصول الديانة ص ٢٥ تحقيق الأرناؤوط والتبيين لإبن عساكر ص ١٦١.
٣ ـ نفس المصدر ص ١٩٠ ـ ١٩١.

وسوستهم في مخارج الحروف

ومن جملة ما يوسوس لهم به إبليس التكلف في مخارج الحروف «فتراهم يتكلفون التلفظ بالحرف، وإذا أقيمت الصلاة وسمعت الصفير يخيل إليك أن أحرف «السين» تتطاير في المسجد، حتى يتهيأ للسامع أن المسجد مملوء بالعصافير. وهذا النوع من التكلف وسوسة من إبليس ليشغل الموسوسين بها عن تدبر الآيات التي يتلونها في صلواتهم، بل ويشغل غيرهم من المصلين وهذا غاية مراد إبليس، ولم يرو عن أحد من الصحابة أنهم تكلفوا إخراج الحروف بهذا القدر الشاذ. فهذا ابن الجوزي يذكر في كتابه العظيم «تلبيس إبليس» أن هذا التكلف قد عرف في عصره، يقول ابن الجوزي:

وقد لبس إبليس على بعض المصلين في مخارج الحروف فتراه يقول الحمد، الحمد، فيخرج بإعادة الكلمة عن قانون أدب الصلاة، وتارةً يلبس عليه في تحقيق التشديد وتارةً في إخراج «ضاد» «المغضوب عليهم»، ولقد رأيت من يقول: «المغضوب».. فيخرج بصاقه مع إخراج الضاد لقوة تشديده، وإنما المراد تحقيق الحرف فحسب، وإبليس يخرج هؤلاء بالزيادة عن حد التحقيق، ويشغلهم بالمبالغة في الحروف عن فهم التلاوة وكل هذه وساوس من إبليس[1]». أما المقدسي فقد أنكر التشديد والتنطع في إخراج الحروف فقال: «والمقصود أن الأئمة كرهوا التنطع والغلو في النطق بالحرف، ومن تأمل هدْي رسول الله ﷺ تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وإقراره أهل كل لسان على قراءتهم تبين له أن التنطع

١ ـ تلبيس ابليس ص ١٤٠.

والتشدق والوسوسة في إخراج الحروف ليس من سنته[1].

وقال ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (حاكياً عن حمزة): «هذا الى نبذه في قراءته مذهب العرب وأهل الحجاز، بإفراطه في المد والهمز والإشباع، وإفحاشه في الاضجاع والادغام، وحمله المتعلمين على المذهب الصعب، وتعسيره على الأمة ما يسره الله تعالى، وتضييقه ما فسحه»[2].

ثم يقول: وليس هكذا كانت قراءة رسول الله ﷺ، ولا خيار السلف ولا التابعين ولا القراء العالمين بل كانت قراءتهم سهلة رسلة[3]».

والجدير بالذكر أن التكلف في إخراج الحرف مخالفاً للكتاب الكريم قبل كل شيء إذ أن الله قد جعل كتابه سهلاً للتلاوة ميسراً للذكر فقال: «ولقد يسرنا القرآن للذكر». وقال تعالى «وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث». وإنما يكون هذا التشديد تعسيراً لما يسره الله تعالى، وتحميلاً للناس بما لا يطيقون. وعلى كل، فإن هذا التنطع الذي يلتزمه الأحباش لا يقبل به الكثير من أصحاب الفطر السليمة، بل إنه مدعاة لتنفير الناس من هذا الدين.

والتكلف لم يكن طريقة الصحابة ولا من بعدهم، بل قد أخبرنا غير واحد من الصحابة أنهم كانوا قليلي التكلف، لا في التلاوة وحدها بل في كل شيء، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «من كان منكم متأسياً فليتأس بأصحاب محمد ﷺ فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً، وأقومها هدياً وأحسنها حالاً[4]».

١ ـ عن كتاب: ذم الموسوسين والتحذير من الوسوسة للإمام موفق الدين بن قدامه المقدسي.
٢ ـ هو حمزة بن حبيب الزيات، أحد القراء السبعة (٨٠ ـ ١٢٧) هـ، أنظر تأويل مشكل القرآن ص ٦٠.
٣ ـ تأويل مشكل القرآن ص ٦٠ لابن قيتبة.
٤ ـ جامع بيان العلم وفضله ٢ / ٩٧.

بيد أن هذا النهج الذي انتهجه الصحابة لم يكن هدياً من عند أنفسهم، فأصله من عند رسول الله ﷺ، فإن الرسول ﷺ ما خُيّر بين شيئين إلا اختار أيسرهما»[١]. وقال: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا»[٢].

وما يفعله الأحباش مضاد لهديه عليه الصلاة والسلام، فما خُيّروا بين أمرين إلا اختاروا أعسرهما وأشدهما تكلفاً لا عن حرص ولا من باب الأخذ بالأحوط ولكن من باب الوسوسة التي ذمها الكثير من الأئمة ومنهم ابن الجوزي والمقدسي وابن قتيبة. فلا تكون تلاوتهم على مكث وليست ميسرة للذكر.

والمعلوم أن هذا الدين يدخل عليه ويعتنقه الكثير من أصحاب الملل والطوائف الكثيرة الأخرى، وأول ما تسألهم عن سبب اعتناقهم هذا الدين يبادرونك القول بأنهم يجدون فيه سهولةً ويسراً في العبادات، لا يجدوها في غيره من الأديان المفرطة في التكلف، ولقد رأيت العديد من هؤلاء وسألتهم فكان جوابهم ذاك الجواب المعهود وهو أنه سهل يسير لا ينهك معتنقيه ولا يشبعهم بالتشريعات المعقدة والتكليفات المملة التي لا تكاد تطاق.

وما يفعله هؤلاء ينافي ما يراه أولئك المقدمون على الدخول في الاسلام. فطريقتهم ليست طريقة هذا الدين، وليست من ميزته التي يراها الآخرون أبناء الملل الأخرى - إنها هي اليسر.

ولقد رأيت بعضهم يكرر تكبيرة الاحرام، بل إن الغالبية منهم

١ - رواه البخاري في المناقب وصفه النبي ﷺ ٦/ ٥٦٦ ومسلم في الفضائل ٧٧ و ٧٨ وأبو داود في كتاب الأدب، باب التجاوز في الأمر ٢/ ٢٨٧.
٢ - رواه البخاري في باب قول النبي ﷺ يسروا ولا تعسروا ١٠/ ٥٢٤.

يتلون القرآن في صلاتهم، فيغالون في تحريك افواههم حتى يكاد فك الواحد منهم ينشطر عن الفك السفلي لشدة ما يتكلفون في التلاوة. والأصل المراد في الشرع هو كما قال ابن الجوزي رحمه الله:

«وإنما المراد تحقيق الحرف فحسب» لكن إبليس يعمد إلى الموسوسين ليخرجهم بالزيادة عن حد التحقيق» ويشغلهم بالمبالغة في الحروف عن فهم التلاوة وكل هذه وساوس من إبليس»[١].

وليس التنطع والتكلف من الأمور المحمودة، بل هو مذموم على لسان نبي هذه الأمة ﷺ بقوله: «هلك المتنطعون». قاها ثلاثاً».[٢]

فدعوى الحبشي بأنه ينبغي المبالغة في إخراج حروف الصفير مع صوت يشبه أصوات العصافير، هو قول مردود عليه، لأن تلاميذه ما لبثوا أن أخرجوا أصواتاً تتبرأ منها العصافير. فهم لا يشغلون أنفسهم بتلك الوسوسة عن تدبّر آيات الله فحسب، وإنما تزداد المصيبة حين يشغلون من يسمعهم عن تدبره لما يقرأه أيضاً.[٣]

يأكلون الثوم والبصل كي لا يصلوا الجمعة

ما أكثر العجائب في هذا الزمن، ومن هذه العجائب هي فتوى الشيخ الحبشي لمن يريد التخلف عن صلاة الجمعة في المسجد أن يأكل الثوم أو البصل لأن في أكلها النهي عن الإتيان إلى المساجد.

فكل من يريد الحصول على رخصة بعدم الذهاب إلى صلاة الجمعة، أن يبادر إلى أكل بعض الثوم والبصل لينطبق عليه النهي الوارد في

---

١ ـ تلبيس ابليس «لأبي الفرج ابن الجوزي» ص ١٤٠.
٢ ـ أخرجه مسلم ح (٢٦٧٠) وأبو داود في كتاب السنة، وأحمد ١/ ٣٨٦.
٣ ـ قال الغزالي: وأعظم ضحكة للشيطان من كان مطيعاً لمثل هذا التلبيس (إحياء ١/٢٧٥)

حديث رسول الله ﷺ: «من أكل ثوماً أو بصلاً فليعتزلنا، أو ليعتزل مسجدنا، وليقعد في بيته».[1]

فأصبح تلاميذ الحبشي يأكلون الثوم والبصل لتحصل لهم الرخصة ويقوم بهم العذر لتضييع صلاة الجمعة.

ولست أدري ماذا يرمي الشيخ من وراء ذلك! وكيف يتهاون بأمر الجمعة إلى هذا الحد، فيتحايل على الله تعالى ليحصل على رخصته لاستباحة مخالفته!!..

وفي الأحاديث الواردة عن الرسول ﷺ ما يخيف من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، منها:

قال رسول الله ﷺ: «من ترك ثلاث جمعٍ تهاوناً، طبع الله على قلبه». رواه الامام أحمد من حديث جابر[2]

وقال عليه الصلاة والسلام: «لينتهين أقوام عن ودعهم[3] الجمعات، أو ليختمن الله على قلوبهم، ثم ليكونن من الغافلين».[4]

وما هذا التحايل المستقبح هل تظن أن شرائع الله وأوامره يمكن التحايل عليها كما يفعل ذلك من يفعله من الأوروبيين والأمريكيين في تحايلهم على حكوماتهم للتهرب من دفع الضرائب!!..

---

١ - رواه مسلم ح (٥٦٤).
٢ - أحمد ٣/ ٤٢٤، الترمذي ح (٥٠٠) «باب ما جاء في ترك الجمعة من غير ذنب» والنسائي ٣/ ٨٨. وابن ماجه ح (١١٢٥) وإسناده حسن وصححه ابن حبان ح (٥٥٤) والحاكم ١/ ١٨٠ ووافقه الذهبي.
٣ - تركهم.
٤ - مسلم ح (٨٦٥) في الجمعة «باب التغليظ في ترك الجمعة، والنسائي ٣/ ٨٨ من حديث ابن عباس وابن عمر.

لقد ذكرتني هذه الحادثة ببني إسرائيل الذين كان صيد الحيتان مورد رزقهم وصنعتهم التي يعملونها. ولقد نهاهم الله عن صيد الحيتان يوم السبت، ثم أراد أن يبتليهم فمنع عنهم الحيتان أيام الأسبوع كله حتى إذا جاء يوم السبت ظهرت الحيتان «شرّعاً أي ظاهرة في الماء، يسهل رؤيتها لدنوها وقربها.

فأراد اليهود التحايل على الله في نهيه فوضعوا للحيتان الحبائل وحفروا لها البرك قبل يوم السبت فإذا جاء يوم السبت علقت الحيتان بتلك الحبائل ودفعتها الأمواج إلى تلك البرك فانحصرت فيها، ثم جاء اليهود يوم الأحد وانتشلوها، ومنهم من عمد إلى الحيتان يوم السبت فيحزمه بخيط ويربطه ثم يأتي يوم الأحد ويأخذه ويقول: «إني لم آخذه يوم السبت. وظنوا أن هذه الحيل تنطلي على الله، وأنهم تفادوا النهي الوارد بهذه الحيل، فما كان من أمرهم بعد ذلك إلا أن مسخهم الله على هيئة قردة وخنازير، جزاءً لهم على هذا الخداع» وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون».

فمن أراد أن يأكل الثوم والبصل ليتفادى النهي عن تضييع صلاة الجمعة فقد سلك سبيل أصحاب السبت الذين قال الله فيهم «ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين»[١] حتى قال «وموعظة للمتقين» أي أن هذا العقاب جعله الله موعظة لمن بعدهم، ومن لم يتعظ بهذه الموعظة فليحذر المسخ وليحذر أن يصبح بفضل فتوى الشيخ «قرداً أو خنزيراً».

فالمتعمد لحصول الرخصة هو متعمد للتفلت من حضور الجمعة مهما كان تعليله

ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل».[٢]

---

١ ـ البقرة ٦٥.

٢ ـ ذكره ابن كثير في تفسيره عن أحمد بن محمد بن سلم وقال: ذكره الخطيب في تاريخه ووثقه

وهذه الحيلة على من؟ . . أهي على إله يرى ظاهر العمل ولا يتطلع على ما في القلب أم على إله يعلم ما تخفيه صدور عباده وما تعقده نياتهم؟ . .

نعم، لقد أخبر الرسول ﷺ بأن على آكل الثوم والبصل أن يعتزل المسجد. وأخبر كذلك بأن تارك صلاة الجمعة يطبع الله على قلبه، فأي الأمرين أغلظ وأعظم عند الله، وبأي الأمرين نأخذ إن خُيّرنا بينهما؟ . . ولو فرضنا أن أحد آكلي الثوم والبصل دخل المسجد يوم الجمعة، فإن ذلك أخف له من أن يترك الجمعة لأجلها فينزل به سخط الله ويطبع الله على قلبه فيجعله من الغافلين. إذ أن دخوله المسجد برائحة الثوم لا ينزل به هذا السخط وهذه العقوبة الشديدة (عقوبة الطبع على القلب) والمسلم فطن ذكي، إن تعارض عنده ضرران اختار أخفهما ضرراً، فليس من الفطنة والكياسة أن يختار الضرر الذي تكون عاقبته الطبع على القلب من أجل ضرر يسير سببته حبيبات من الثوم أو البصل.

ثم إن الرسول ﷺ يفهمنا بكلامه هذا أن نتجنب أكل الثوم والبصل من أجل أن نأتي الجماعة، لا أن نتعمد أكلهما لكي نتفلت منها ونتركها.

فإن فتح الحبشي هذا الباب، فهناك أبواب كثيرة ستفتح عندها. مثال ذلك:

من المعلوم أن الجنب لا يدخل المسجد ولا يأتي الجماعة، وهذا أمر لا يخالف فيه أحد فيصبح باستطاعة من لا يريد الصلاة يوم الجمعة أن يضاجع زوجته قبيل الصلاة فيكون عندئذٍ جنباً ويعلل عدم صلاته الجمعة لجنابته.

= وباقي رجاله مشهورون ثقات، وإسناده جيد ويصحح الترمذي بمثل هذا الإسناد كثيراً ٢/ ٢٥٧.

وكذلك فإن المسافر معذور أن لا يصلي الجمعة إن كان في سفره، فإن أراد الرجل التخلص من صلاة الجمعة فما عليه إلا أن يباشر سفره في هذا اليوم ليصح له بذلك العذر وتقوم به الرخصة.

إن على من عمل هذه الحيلة أن يراجع نفسه ويتيقن من أنه عقد في قرارة نفسه ونوى في قلبه التملص من الصلاة يوم الجمعة، فاتخذ الثوم والبصل ذريعةً لما نوى ولما أخفى في قلبه، والله تعالى يقول: (والله يعلم ما تبدون وما تكتمون)[١].

وقال (إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليماً)[٢] وقال (وإن تبدوا ما في أنفسكم إو تخفوه يحاسبكم به الله)[٣]. وقال (يعلم السر وأخفى) وقال (والله يعلم ما تسرون وما تعلنون) وقال (أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون)[٤] (إنه عليم بذات الصدور) فاحرصوا على أن لا تصبحوا على ما اسررتم في أنفسكم نادمين، وما قوم السبت منكم ببعيد.

ثم إن الرسول ﷺ بين لنا بأن قبول العمل متوقف بحسب النية فيه فقال: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل إمرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسولة فهجرته إلى الله ورسولة ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو إمرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه.[٥].

---

١ - النور ٢٩.
٢ - الأحزاب ٥٤.
٣ - البقرة ٢٨٤.
٤ - البقرة ٧٧.
٥ - رواه البخاري ٣/ ١١٩ (باب العتق) و (باب الطلاق ٦/ ١٦٨ ورواه مسلم ح (١٩٠٧) وأبو داود في الطلاق باب (١١) والترمذي في باب (١٦) فضائل الجهاد، وابن ماجه في باب (٢٦) الزهد، وأحمد في المسند.

وانا أقول: «ومن كان أَكْلُه الثوم ليترك جمعة» أو يتهرب من جماعة فحسابه عند الله مضاعف لأمرين:

أولاً: لعقده النية على التهرب من صلاة الجمعة، والتي نهى الرسول ﷺ عن تركها أشد النهي.

ثانياً: لتحايله على الله ليتخلص من صلاة الجمعة، والأمر الثاني (وهو التحايل على الله) أسوأ من الأول، إذ علمنا من الرسول ﷺ أن التارك لصلاة الجمعة يطبع الله على قلبه، لكننا علمنا من كتاب الله أن قوماً من قبلنا أرادوا التحايل عليه فمسخهم الله قردةً وخنازير.

صحة نسبة كتاب الإبانة للأشعري

قال بعض الأحباش: لقد اعتاد المجسمة والحشوية من السلفيين أن يكتبوا كتباً تناسب معتقداتهم ومذاهبهم، وينسبونها إلى آخرين. فكلما مات رجل مخالف لعقيدتهم كتبوا كتاباً وزعموا أن هذا الرجل إنما كتب كتابه هذا قبل موته، ومن جملة ما كتبوه، كتاب «الإبانة عن أصول الديانة» والذي دسوه على الاشعري وأول ما أجيب به عليهم هو ثلاث آيات من كتاب الله.

الأولى: (ولا تتبع الهوى فيضللك عن سبيل الله [ص ٢٦] لأن قولهم هذا هو عن «هوى» لا عن علم.

والثانية: (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) [البقرة ١١١]

والثالثة: (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا، إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون) [الأنعام ١٤٨].

والحق أن لدينا علماً بصحة نسبة هذا الكتاب «للأشعري»، وسنخرجة لكم.

١ ـ قال الحافظ إبن عساكر:

«فلا بد أن نحكي عنه[١] معتقده على وجهه بالأمانة، ونجتنب أن نزيد فيه أو ننقص منه تركاً للخيانة ليعلم حقيقة حالة في صحة عقيدته في أصول الديانة، فاسمع ما ذكره في أول كتابه الذي سماه بالإبانة فإنه قال: «الحمد لله الاحد الواحد العزيز الماجد... الخ»[٢]. ونقل عن كتاب «الإبانة» معتقده وما يذهب إليه. والحافظ إبن عساكر مؤرخ له قيمته ومكانته، فلا يمكن إن يقول «نحكي عنه معتقده على وجهه بالأمانة» إلا أن يكون جازماً بصحة نسبة هذا الكتاب إلى الأشعري رحمه الله تعالى.

٢ ـ وقال إبن عساكر أيضاً:

«وأنشدني بعض أصحابنا (في مدحهم وثنائهم على الأشعري):

لو لم يصنّف عمره   غير الإبانة واللمع
لكفى فكيف وقد   تفنّن في العلوم بما جمع[٣]

وليس هذا شاهداً على صحة نسبة الكتاب إلى أبي الحسن الأشعري فحسب، وإنما هو شاهد أيضاً على مخالفتكم لعقيدة ابن عساكر الذي يدين بالمعتقد الذي نقله عنه، ومعتقد أبي الحسن في هذا الكتاب هو إثبات ما أثبت الله لنفسه وعدم الخوض والاشتغال بالتأويل الذي لا يؤدي إلا إلى تعطيل تلك الصفات.

---

١ ـ عن أبي الحسن الأشعري.

٢ ـ تبيين كذب المفتري ص ١٥٢ تحقيق الكوثري.

٣ ـ تبيين كذب المفتري ص ١٧١.

فقد أثبت من جملة ما أثبته: صفة اليد والقدم، والاستواء والنزول والمجيء والاتيان والكلام والرؤية وعلو الله على عرشه فوق سبع سمواته. وغير ذلك من الصفات التي تعطلونها وتتأولونها فتخالفوه فيها[1].

٣ ـ وكذلك حكى إبن عساكر عن أبي عثمان الصابوني النيسبوري أنه قال: ما كان يخرج إلى مجلس درسه إلا وبيده كتاب الإبانة لأبي الحسن الأشعري ويظهر الإعجاب به[2]. ثم قال إبن عساكر أن أصحاب الأشعري كانوا يعتقدون ما في «الإبانة» أشد اعتقاد، ويعتمدون عليها أشد اعتماد [3].

٤ ـ وقد روى الذهبي رحمه الله حكاية مشهورة عن أبي الحسن الأشعري وفيها: أنه لما دخل الأشعري بغداد جاء إلى «البربهاري» فجعل يقول: رددت على الجبائي وعلى أبي هاشم ونقضت عليهم وعلى اليهود والنصارى والمجوس وقلت وقالوا وأكثر الكلام فلما سكت قال البربهاري: «وما أدري مما قلت لا قليلاً ولا كثيراً، ولا نعرف إلا ما قاله أبو عبد الله أحمد بن حنبل». قال: فخرج من عنده «وصنف كتاب الإبانة». وقد استدل الحافظ إبن عساكر بهذه القصة وجعل منها «أدل دليل» في نقضه على الأهوازي.[4]

وقال الذهبي في معرض حديثه عن أبي الحسن الأشعري: «رأيت تواليفه في الأصول يذكر فيها قواعد مذهب السلف في الصفات، وقال فيها:

---

١ ـ لو أننا استثنينا من ذلك «صفة الكلام التي أثبتها الحبشي».

٢ ـ تبيين كذب المفتري ٣٨٩.

٣ ـ تبيين كذب المفتري ٣٨٨.

٤ ـ سير أعلام النبلاء (للذهبي) ١٥/ ٩٠، وطبقات الحنابلة للقاضي أبي يعلى ٢ / ١٨، وتبيين كذب المفتري لإبن عساكر ص ٣٩٠ ـ ٣٩١.

«تمركما جاءت». . . ثم قال الذهبي: «وبذلك أقول، وبه أدين، ولا تؤول».[1]

فمخالفتكم ومخالفة شيخكم لعقيدة «الأشعري» تقتضي أن يكون «الأشعري» بريئاً منكم.

فإن الحبشي ذكر له بيتين من الشعر قال فيهما:

إثنان من يعذلني فيهما ... فهو على التحقيق مني بري
حب أبي بكر إمام الهدى ... ثم اعتقادي مذهب الأشعري[2]

فقول الحبشي أنه على عقيدة الأشعري هو تضليل وتمويه، لا يؤخذ به، وما فصلته في هذا الكتاب يبين بطلان ما يدعيه ويزعمه.

٥ ـ وقد أثبت الذهبي نسبة كتاب «الإبانة» إلى الأشعري فقال: «وكتاب الإبانة» من أشهر تصانيف أبي الحسن، شهره الحافظ إبن عساكر واعتمد عليه، ونسخه بخطه الإمام محي الدين النووي[3]

٦ ـ وقال إبن الآلوسي:
«وروى غير واحد من المصنفين عن الشيخ أبي الحسن الأشعري أنه قال في كتابه «الإبانة عن أصول الديانة» وهو آخر كتاب صنفه، وعليه يعتمد أصحابه في الذب عنه عند من يطعن عليه، ما نصة: «. . .». وذكر فصولا من هذا الكتاب مطابقة للفصول التي ذكرها إبن عساكر في تبيينه.[4].

---

١ ـ سير أعلام النبلاء ١٥/ ٨٦.
٢ ـ أنظر الدليل القويم للحبشي ص ٦.
٣ ـ مختصر العلو للعلي الغفار (للذهبي) اختصار الألباني ص ٢٣٩.
٤ ـ جلاء العينين ص ٤٠٣.

نقد استدلالهم بقصة إبراهيم عليه السلام

يرى الأحباش أن طريقتهم في الاستدلال بالحركة على الحدوث قد سبقهم إليها أبو الانبياء ابراهيم عليه السلام، وقالوا إن كل متحرك محدث، والمحدث لا يصلح أن يكون رباً.

والآية التي استدلوا بها هي قوله تعالى: (لا أحب الآفلين) [الأنعام ٧٦] وتأولوا الأفول بالحركة قلنا لهم: إن تأويل الأفول بالحركة هو افتراء على لغة العرب، إذ أن هذا لم يرد في معاجم اللغة، فضلاً عن أن أحداً من المفسرين المعتمدين لم يذهب إلى هذا المذهب، فقد فسر الطبري «الأفول» بالغياب فقال: (فلما أفل) قال: فلما غاب وقال: ويقال أين أفلت عنا بمعنى أين غبت عنا[١].

وكذلك هذا التفسير عند إبن كثير منقول عن إبن جرير[٢].

والمعلوم أن الأفول هي الكلمة المضادة للبزوغ أي الطلوع والظهور. فلا يقول عاقل بأن شروق الشمس يمكن تسميته بالأفول ويعني بذلك الحركة لذا فانهم قد خالفوا أول ما خالفوا لغة العرب. فعلم أن المعنى الصحيح «للأفول» هو الغياب والاحتجاب.

ومن ناحية أخرى فالآية حجة عليهم إذ أن في أولها ما يناقض استدلالهم وذلك قوله تعالي «فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي» ومعلوم بأنها كانت متحركة عند بزوغها ولم تكن ثابتة، ومع ذلك فقد قال ابراهيم

---

١ ـ تفسير ابن جرير الطبري المجلد ٥ جـ ١٦٤/٧ ط دار المعرفة.

٢ ـ تفسير ابن كثير ٢/ ١٥١ ط دار المعرفة.

«هذا ربي» عندما كانت بازغة أي طالعة وظاهرة للعيان، لكنه استدل على عدم ربوبيتها حينما احتجبت وغابت عن عين ناظرها. فعلم أن ما ذهب إليه الأحباش من هذه القصة باطل.

ولو كانت حركة الشمس عند ابراهيم عليه السلام دليلاً على عدم صلاحيتها للربوبية، لساقته هذه النظرية إلى عبادة أصنام قومه وإقراره على ربوبيتها، لأنها لا حركة لها. ولأن جمودها وعدم حركتها لا تدل على أنها محدثة، وهذا معلوم الفساد بالضرورة وبهذا يكون الأحباش قد أسدوا للوثنيين من عابدي الأصنام خدمة جليلة لا تقدر بثمن، فلقد أعطوهم برهاناً ساطعاً على أن أصنامهم منزهة عن الحركة لأن الحركة دالة على الحدوث، فبما أنها لا حركة لها لا بأس عندئذ في اتخاذها آلهة.

ولو يعلمون كم تودي بهم هذه القاعدة التى التزموها[1] إلى الأفكار المنحرفة والمفاهيم الضالة، الغريبة عن كتاب الله وسنة رسوله ولغة العرب لما إلتزموها.

وعلى كل حال فالحبشي لم يأت بها من عنده، وليست هي من اجتهاده، إذ أنه مقلد لأسلافه من الفلاسفة والمتكلمين الذين اعتمدوا هذه النظرية فقد أشار إليها الغزالي[2] وسماها الميزان الأوسط، كما أشار إليها إبن رشد[3]، وأبوبكر الجصاص[4] وابن سينا،[5] لكن هذا الأخير قد خالفهم في نوع الاستدلال إذ استدل على هذه القصة بالامكان وجعل كل ما سوى الله ممكناً لم يزل، فكان قوله هذا أشد فساداً من قول الآخرين.

---

١ ـ وهي: ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث.
٢ ـ القسطاس المستقيم ٢٨ ـ ٢٩.
٣ ـ مناهج الأدلة لإبن رشد ١٤٠.
٤ ـ تفسير الجصاص ٣ ـ ٣.
٥ ـ الإشارات والتنبيهات لإبن سينا ٣/ ١٠٢ ـ ١٠٣.

وكل اولئك لم يخالفوا اللغة فحسب بل أنهم خالفوا الدين. إذ ليس في الدين ما يقوي حجتهم، ويدعم استدلالهم.

وإذا كانوا قد خالفوا هذين الأساسين اللذين هما: الدين واللغة، فإن العقل لا يشهد لهم عندئذ بصحة ما استدلوا به بل ببطلان ما ذهبوا إليه.

ومع أنهم شديدو الحرص على الاتيان بالحجج العقلية، ومع انهم كثيرو النظر والاستدلال إلا أنهم يأتون دائماً بما يناقض العقل لأن المصدر الذي يستقون منه يوناني الأصل وبالتحديد فإن مصدرهم بعيد كل البعد عن كتاب الله وسنة رسوله. قريب جداً من أفلوطين وارسطا طاليس وفيثاغورس وديموقراطيس. ومن كان هذا مصدر مقاييسه ونظرياته فلا أفلح ولا اهتدى، إذ شتان ما بين منبع إلهي ومنابع مخلوقة متهافتة تتعارض في مناهجها كلية عن هذا المنهج الرباني الذي أنزله الله على عباده. وإنه لمن أعجب الامور أن يأتي أناس يتكلمون لغة العرب، يقولون بأن الأفول معناه الحركة. فلا وجدت أغرب من هذا التأويل الباطل. إذ ينبني على تأويلهم هذا أن الشمس عند بداية ظهورها وإشراقها يقال عنها بأنها تشرق أي تأفل. فيقولون أشرقت الشمس أي أفلت، لأن إشراقها هذا لا يكون إلا بالحركة، فجاز عندهم تسمية شروق الشمس بالأفول.

وهذا ما لا يقول به من يدرك شيئاً من اللغة.

والقوم أرادوا تطبيق قواعدهم على هذا الدين وتسخير الدين لها، فأخطئوا الدين وأخطئوا اللغة، وما أوصلتهم هذه القواعد إلا إلى الضلال عن الحق.

روى البيهقي عن ابن عباس في قوله تعالى (رأى كوكباً قال هذا ربي) قال إبن عباس: حتى غاب فلما غاب قال (لا أحب

الآفلين)[1] ا . هـ.

فهذا دال على أن الأفول هو «الغياب والاحتجاب» لا على ما يقوله المتكلمون بأنه الحركة.

سوء عاقبة الابتداع

هل هذا الدين كامل لا يحتاج الزيادة

إعلم أخي الكريم.. أن العصمة في الدين أن تنتهي في الدين حيث انتهى بك، وأن تقف فيه حيث وقف، لا تتجاوز ذلك، إذ لا يجوز لك أن تزيد عليه شيئاً لأن ذلك يعني أنك أكملت نقصاً في الدين، وأضفت إليه ما فات الله ورسوله.

وكيف تضيف إلى الدين شيئاً والله سبحانه يقول: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً». فالكامل لا يجب إكماله، ولا يعقل القول بأن الزيادة فيه تزيد في كماله إذ هذا يعتبر أيضاً من الكمال بعد النقص.

فالكامل ما سُدّ بابه عن الزيادة والاضافة وأصبح غنياً عنهما.

والدين هذا كامل بالدليل الذي ذكرناه وهو الآية (اليوم أكملت لكم دينكم) [المائدة ٣].

فالرسول قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة وقال: «ما تركت من شيء يقربكم إلى الجنة إلا وقد حدثتكم به، وما من شيء يبعدكم عن النار إلا

---

١ ـ الاعتقاد ص ٩.

وقد حدثتكم به»[1] وفي رواية: «ليس من عمل يقرب إلى الجنة إلا وقد أمرتكم به، ولا عمل يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه».[2]

وقول أبي ذر رضي الله عنه: «لقد توفي رسول الله ﷺ وما من طائر يقلب جناحيه في السماء إلا أفادنا منه علماً[3]

وكل مبتدع يأتي بالزيادة في الدين، فإنه يأتي معها بالطعن على هذا النبي الكريم الذي قال بأنه بلغ الرسالة وأشهد الناس على ذلك ثم أشهد الله عليهم فقال: «اللهم فاشهد» فهو لا يكتفي بأنه يستحسن بدعته، بل إنه يطعن في الآية الكريمة أولاً (اليوم أكملت لكم دينكم) ويطعن في الأحاديث التي بين فيها أنه ما من شيء يقربنا إلى الجنة إلا وقد أخبرنا به وما من شيء يقربنا إلى النار إلا وقد نهانا عنه. وكيف يُحتاج بعد هذا الحديث إلى استخراج علوم سميت بعد موته عليه الصلاة والسلام بعلم الكلام والفلسفة والجدل التي سميت بعلم «التوحيد»، بل قالوا بأنه أصل من أصول الدين!!

ياسبحان الله!!.. كيف يعلمنا رسول الله كل ما ليس بضروري في الدين، ويبينه لنا؟ وكيف يصل الأمر به أن يعلمنا آداب المشي وآداب الجلوس وآداب النوم بل وآداب الدخول إلى الخلاء وإتيان الرجل أهله إلخ.. ثم يترك ثغرة في أصل الدين ونقطة البداية فيه؟.. «مفتوحة»!!

---

١ ـ رواه الطبراني في المعجم الكبير ٢/ ١٦٦، والبيهقي في السنن الكبرى من حديث المطلب بن حنطب ٤/ ١، وذكره في المجمع ٨/ ٢٦٤.

٢ ـ رواه الشافعي في مسنده ٨٠ ط شركة المطبوعات العالمية، وفي حاشية الام ٦/ ٢٠٣، وفي الرسالة ح (٢٨٩) بلفظ يشبهه، وهذا النص هو من طريق ابن مسعود كما أخرج ذلك الحاكم في المستدرك ٢/ ٤ والترغيب للمنذري ٣/ ٧ ونسبه للحاكم.

٣ ـ رواه أحمد في المسند ٥/ ١٦٢، وابن جرير وذكره ابن كثير ٣/ ١٣١

أليس في هذا الطعن على رسول الله أن هناك شيئاً يقربنا إلى النار لم ينهنا عنه؟ إذ تركه لهذه الثغرة مفتوحة من غير أن يسدها، وإهماله تعليم أمته أصول الدين وأمور التوحيد، يفتح ثغرة عليهم لربما تؤدي بهم إلى مغبات الشرك وتنتهي بهم إلى النار. فما يكون الرسول بذلك قد جنبهم ما يقربهم من النار وهذا من مساويء البدعة انها تطعن أول ما تطعن بنبي الأمة ﷺ. الذي أشهد الناس على أنه بلغ الرسالة على أكمل وجهها، فأقروا له بذلك. وأنها تطعن مع ذلك في قول الله (اليوم أكملت لكم دينكم).

والبدعة وان لم تكن كبيرة، فإنها ترد القول بالكمال في هذا الدين، إذ لو كان كاملاً لما أتى بها صاحبها ليضيفها إليه.

فعلم بعد هذا أن هذا الدين إن كان كاملاً، فإنه لا يحتاج إلى تكلمة، إذ أن الله قد أغنانا بكتابه وبهذا الرسول الكريم ﷺ عن أي منهج آخر، وعن أي علم آخر مهما كان.. يونانيا كان أم فارسياً.

وعلم أن الفلسفة والجدل وما يسمى بعلم «الكلام» لا تفيد الدين زيادته، ولا يضره فقدانه، فالله تعالى يقول: (اليوم أكملت لكم دينكم) ولو علم أن الدين يكمل بوضع قواعد ومقاييس المتكلمة لما أنزل هذه الآية حتى يكشف للمسلمين عن هذه العلوم، وإذا كمل الدين بدونها، علم عندئذ أنها غير مرادة للمسلمين وغير مطلوبة لهم. فيكفي معرفة الله بما جاء عن الله وعن رسول الله ولا ينبغي الالتفات إلى ما سوى ذلك.

معرفة الله

إنه لشرف عظيم أن نتعرف إلى الله بأسمائه وصفاته، وأنه لهو العلم الذي لا يقابله علم آخر لكونه يتعلق بمعرفة الله تعالى، لكن لا يجوز أن نعرف الله عن طريق من لم يعرف الله ولم يهتد بهديه ولم يستشعر نعمة الاسلام، ويذق حلاوة الإيمان.

لا يجوز معرفة الله إلا من خلال ما أنزله الله على رسوله، إذ هذه هي وصية الله لعباده ألا يأخذوا كفايتهم من العلم والتعبد وما إلى ذلك من الدين الذي ارتضاه لعباده إلا من الدين نفسه.

قال تعالى: «وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا». والرسول ﷺ قد عاب الجدل وذمه وأوضح لأمته أن هذا كان سبب هلاك الأمم من قبلهم. فعلم أن من أراد معرفة الله من غير كتاب الله وهدي سنة نبيه فلجأ إلى قواعد ومقاييس الفلاسفة المتضمنة للجدل بشتى أنواعه وعلى اختلاف أشكاله. قد خرق هذا النهي الذي نهى عنه النبي ﷺ بقوله: «ذروا المراء فإنه لا تقل فتنته».

والتوحيد عند الحبشي هو معرفة الله ضمن قواعد كلامية أخذها عن فلاسفة العرب كابن سينا وابن رشد وغيره، وهؤلاء أخذوها مترجمة عن ارسطاطاليس وافلوطين وفيثاغورس وبطليموس وسقراط وغيرهم من فلاسفة اليونان ومنشئي مدرسة الاسكندرية ولو أننا سلمنا جدلاً أن هذه القواعد لا تضر في الدين ولا تؤثر في أبنائه، بل إن فيها من الحجاج العقلية والأدلة المنزهة لله تعالى عما يقوله الزنادقة من مقالات الالحاد، تكن

مع هذا كله محرمة، لأنها دخيلة على الدين ولو كان فيها خيراً لسارع الرسول إلى إضافتها إلى سنته وهديه، ولعلمها أصحابه، ولحث عليها وأوصى أن يعضوا عليها بالنواجذ كما حثهم على أن يعضوا على سنته بالنواجذ. فعندما لم يفعل ذلك ولم يأمرنا بشيء من هذه الطرق الجدلية علم أنها دخيلة على الدين ينبغي إخراجها منه.

ونحن لسنا منهيين عن كل ما نهانا عنه رسول الله ﷺ فحسب، بل إننا منهيون عن كل ما لم يفعله، وما لم يأمرنا به، وهذا معنى قوله ﷺ فى الحديث الذي روته عنه عائشة رضي الله عنها: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد».[1]

واذا كانت البدعة منهياً عنها وإن كانت لا تسبب هذا الضرر في الدين، ولا تخرج أبناء الاسلام عن ملتهم.

فما نقول عندئذ في تلك القواعد التي كانت سبباً في نقض الاسلام عروه عروة!.. فالفلاسفة الدهرية قالوا بقدم العالم بناءً على اقتران أزلية المفعول بأزلية الفاعل. واقتضاء ملازمة المفعولات لفاعلها الازلي.

والجهمية أنكروا أن يكون الله على عرشه، منعاً للمماسة، وأنكروا أن يكون الله قد كلم موسى وقالوا إن الكلام عندنا إطباق شفة والله منزه عن هذا. وقالوا بالجبر، وهو أن الله يحرك عباده في أفعالهم، وقالوا أن العبد كالريشة في مهب الريح وأن المعتزلة نفوا صفات الله سبحانه، وقالوا بالمنزلة بين المنزلين، وأن بعض الأشاعرة نفوا الكثير من صفات الله الفعلية منعاً لقيام الحوادث به. وقسموا الصفات بين مثبت ومعطل وذلك تحت

---

١ ـ رواه البخاري ٥/ ٢٢١ وأحمد ٦/ ٢٧٠ وفي رواية مسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد.. أنظر حديث رقم (١٧١٨) و (١٨).

قاعدة «ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث» فكيف تكون هذه القواعد المستوردة من الفلاسفة هدى وحججاً عقلية تنتصر لهذا الدين وتذب عنه شبه الزنادقة!!..

بل إن من يراجع تاريخ ظهور الفرق ونشأتها، وافتراق الأمة على اثنتين وسبعين وجد أن هذا قد بدأ بادخال المأمون كتب أولئك الفلاسفة، ولتبدأ ـ مع ابتداء دخولها وترجمتها وتوزيعها ـ ظهور الزندقة والتفلسف والانحلال، والعبث بالكتاب والسنة وافترقوا على اثنتين وسبعين كل منها لا ترى الأخرى على شيء في وقت لم يكونوا كلهم على شيء إلا الطائفة التي استثناها رسول الله ﷺ وأين يكون الهدى في هذه الفرق، وهي التي تفرعت عن كل منها فرق وهذه الفرق لم تحدث وهذا البلاء لم يقع لولا هذه القواعد والمقاييس التي بنى كل فريق منهم رأياً خاصاً به مخالفاً للآخر، فابن سينا يخالف الفارابي ومصدر هذا ومصدر ذاك واحد، والمعتزلة حاربوا الدهرية ومصدر الجميع واحد، والأشاعرة والمعتزلة يخالف بعضهم بعضاً ويلعن بعضهم بعضاً، ومصدر الاثنين واحد فهل هذا هو الهدى الذي أراده الله ورسوله؟ أن تفترق الأمة إلى معتزلة وأشاعرة وروافض وشيعة ودهرية وغير ذلك؟ أم أن هذه هي الفرقة بعينها وهي ما نهى الله عنها بقوله: «من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون».

وكيف يكونون على الهدى، وعلى الحق، وهم يعبثون ويلحدون في آيات الله وأسمائه وكل منهم يخوض فيها على مقتضى ما عنده من مقاييس ومقدمات ومناهج لم يهتد بها من كتاب أو سنة، إنما ضل بها بأن أخذها عن الفلاسفة كابن سينا وابن رشد والفارابي وغيرهم ممن أخذوا هذه العلوم عن ارسطاطاليس وأفلاطون، وسقراط، وفيثاغورس، وانكساغورس، وديموقراطيس، وانكسيمانس، وانبذقليس وغيرهم من أهل الضلالة، الذين وصفوا الله بما لم ينزل عليهم به سلطاناً واشترطوا

شروطاً كثيرة للتعرف إليه، مع أن الله لم يخبرهم بذلك ولا وصف لهم نفسه ولم يمنّ عليهم بالهدى بل قال لأمثالهم (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا، إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون).(١)

وأخذها أولئك «المتكلمون» عنهم وتمسكوا بها فاضطرهم ذلك أن يردوا لها الكثير من الصفات الخبرية ويحرموا ما أحل الله، وينزهوه عما وصف به نفسه ووصفه به رسوله، وأدت بهم قواعد التوحيد «اليوناني» إلى تعطيل ونفي ما جاء عن الله وعن رسول الله ﷺ، حتى أنهم لم يبالوا ضرب كتاب الله لموافقة مقدماتهم ومقاييسهم، ولم تكن السنة بأشق عليهم من الكتاب فضعفوا الأحاديث، وردوا الاحاد، والتي أجمع أهل السنة والجماعة على الأخذ بها.

وقولبوا الدين وفق قوالب المتفلسفة ولم يقولبوا مقدماتهم واستدلالاتهم بقالبي الكتاب والسنة، فأوقعهم هذا في الشطط فما استطاعوا التوفيق بين مذاهب الفلاسفة ودين الاسلام.

وقد حذر الرسول ﷺ من تحريم شيء في الدين أو إنكار شيء منه من أجل مسألة عنده مضادة للدين.

قال رسول الله ﷺ: «إن أعظم المسلمين جُرماً، من سأل عن شيء لم يُحرمّ على المسلمين، فحُرّم عليهم، من أجل مسألته».(٢)

فإن أردت أن تعرف الله، فاعرفه من صفاته التي في كتابه وإن أردت أن تنزهه عما يجول في نفسك من التشبيه فعليك أن تنزهه عن ذلك

---

١ - الانعام ١٤٨.
٢ - أخرجه مسلم ح (٢٣٥٨).

بما أخبر في كتابه وهو قوله عز وجل (ليس كمثله شيء) (ولم يكن له كفوا أحد) (هل تعلم له سمياً). فالاثبات موجود في كتاب الله، والتنزيه موجود في كتاب الله، وغير ذلك تنزيه في تعطيل يؤدي إلى تعطيل عن التنزيه.

وليس من الضروري التعطيل بدعوى التنزيه.

إذ أن في كتاب الله ما يكفي من التنزيه عن التمثيل مما يؤدي إلى التنزيه عن التعطيل.

فمن أخذ التنزيه من كتاب الله (ليس كمثله شيء) فقد أثبت ونزهّ.

ومن أصر على أخذه من فلاسفة اليونان وقع في تنزيه تعطيلي لا يلبث إلا أن يصبح تعطيلاً بلا تنزيه.

فلا تلزم نفسك ما سوى كتاب الله وسنة رسوله ولا تَعَدَّهما إلى مقالات المتكلمين والمتفلسفين الذين يوقعهم تنزيههم عن التمثيل باثبات غير ما أثبته وبتحريف كلماته عن مواضعها التي أرادها الله سبحانه.

وكن منزهاً لله بما عند الله تكن منزهاً لله عن تمثيله بخلقه، مثبتاً لآياته على الوجه الذي يليق به، لا كمن يضربون كتاب الله بعضه ببعض ويسمون ذلك توفيقاً.

الصراط المستقيم

كيف يسمى هذا الكتاب بـ «الصراط المستقيم» مع أنه يحوي العديد من آراء الفلاسفة ومواقفهم من الألهيات؟!.. ويبرز ذلك بصورة واضحة في كتابه[1] الدليل القويم، فقد عرّف فيه الجوهر والعرض والمركب والحادث والواجب والممكن، وان الاجسام حادثة ليست أزلية، وغير ذلك من العلوم المبتدعة التي أدخلها مع جملة «الصراط المستقيم» مع أن هذا الصراط هو صراط الفلاسفة المتعرج، وقد أغنانا الله بكتابه وسنة نبيه عن هذا المسمى بـ «علم التوحيد».

نحن لا نعرف صراطاً مستقيماً إلا إثنين لا ثالث لهما، كتاب الله وسنة رسوله، وحسبنا إن تمسكنا بهما، وعضضنا عليهما بالنواجذ أن لا نضل أبداً. وكيف يضل من يعتصم بالله وما أنزله على رسوله من الهدى؟ قال تعالى: (ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم) علم بعد هذا أنه من يعتصم بمخلفات الفلاسفة فقد ضل ضلالاً بعيداً.

قال رسول الله ﷺ: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا أبداً، كتاب الله وسنتي».[2] فها هو ضمان من رسول الله بأنه لن يضل من تمسك بكتاب الله وسنة رسوله، وإن فاتته علوم الفلاسفة، وغابت عنه.

فما الفائدة من هذا التكلف بادخال علوم أخرى إلى هذا الدين ما دام الله قد أكمل دينه وما دام الرسول ﷺ نهى عن الابتداع في الدين، وأي هدىً تفيد هذه العلوم، فالهدى مضمون لمن اكتفى بالكتاب والسنة.

---

١ ـ راجع الدليل القويم ١٢ ـ ٣٩.

٢ ـ رواه مالك في الموطأ ٢/ ٨٩٩.

قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» وفي رواية مسلم «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[1] ومن زعم أن علم الكلام ضروري في الدين لما فيه من التنزيه عن التشبيه وغير ذلك من الألفاظ المزخرفة، فإنه يموه على العوام ويلبس عليهم دينهم.

لأن في هذا منقصة لله ورسوله، واتهام للرسول بالتقصير في تبليغ الرسالة وأنه مات وما أغلق عليهم باب التشبيه والتجسيم ولا بين لهم ما يجب عليهم من تنزيه الله، فجاء ارسطاطاليس وافلوطين وفيثاغورس، وأتموا هذا الباب بعد الرسول رغم أنهم لم يدروا ما هو الاسلام وما هي أركانه ولم يصلوا لله ركعتين!! .. وكيف يكمل الدين ويبقي باب التشبيه والتجسيم مفتوحا لم يحكم الرسول ﷺ إغلاقه؟ أليس هذا إتهام للرسول ﷺ بالتقصير في التبليغ؟.

يقول الامام مالك رضي الله عنه: «من ابتدع في الدين بدعة كان يرى أنها حسنة» فقد زعم أن محمداً قد خان الرسالة. إقرأوا إن شئتم (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً) ثم قال: «فما لم يكن يومئذٍ ديناً، لا يكون اليوم ديناً، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح عليه أولها» ا. هـ.

فإن لم تكن الفلسفة ومقدمات المتكلمين يومئذٍ ديناً كان عليه الرسول ﷺ وصحابته لا تكون اليوم من الدين، هذا لو فرضنا أن لا ضرر على المسلمين منها.

فكيف لو يعلم المرء أن مصدر البلاء والفرقة والزندقة كانت هي تلك الكتب اليونانية التي ترجمت ونقلت إلى العربية وأخذها الفلاسفة

---

١ - البخاري ٥/ ٢٢١، ومسلم (١٧١٨) (١٨)، وأخرجه أحمد ٦/ ٢٧٠.

وبنوا عليها دينهم واضطروا من أجلها لأن ينكروا أو يؤولوا الكثير مما في الكتاب والسنة لأجل هذه المقدمات والمقاييس والقواعد الجدلية، فما حذفوا مقدمة واحدة تعارضت مع ما في الكتاب والسنة، بل عبثوا وأوّلوا وحرفوا ما في الكتاب والسنة ليكونا بعد ذلك وفق مقدماتهم. وتشعبت الآراء واختلفت المباديء ونتج عن اختلاف الآراء إختلاف الصفوف والملل، فكان لكلٍ مذهبه. وهذا معنى قوله تعالى: «ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله».

وينبغي عند ذلك كله أن يؤخذ بعين الاعتبار الكتاب والسنة وأن لا يزاد عليهما من شيء أبداً.

من جرائم الفلسفة

لن أخوض مع الحبشي مسألة القواعد الكلامية، وموقف الإسلام منها، هل هي بدعة في الإسلام أم لا؟ فهذا جواب يعلمه كل من كان في قلبه مثقال ذرةٍ من غيرة على دينه، وصوناً له من لوثات العقائد الأخرى.

لكن الذي أخوض معه فيه، هو مصادر هذه المقاييس الكلامية. ومن أين أتى بها.

ولا يعنيني بالتالي معرفة الوسيط الذي أخذ عنه الحبشي، لكن الذي يعنيني ويهمني هو أن مصدرها الأول فلسفي يوناني محض.

فيمكن أن يكون الحبشي قد أخذ هذه القواعد عن الماتريدي أو الجويني أو إبن رشد، لكني أقطع أن أولئك الأوائل من المتكلمين والفلاسفة كابن رشد والغزالي وغيرهم قد أخذوها عن كتب فلاسفة اليونان والتي ترجمت في عهد المنصور، إذ قضت هذه الفلسفات على الديانة النصرانية من قبلنا، وهذا ما أخافه منها على ديننا». [1]

وما يهمني بيانه هو أن علوم الفلسفة (والمسماة بعلم التوحيد) قد

---

١ ـ وإن كنت على يقين من أن الله قد وعدنا بحفظه لهذا الدين، لكن هذا لا يمنعني من أن أكابد هذه الفلسفات وأجاهد منعها من دخول هذا الدين. لأنها وإن كانت لن تقضي عليه أو تلوثه بلوثاتها ووثنيتها فإنها ستكون سبباً رئيسياً في ضلال العديد من البشر، وليس هذا أيضاً بالأمر السهل! . .

دُست في دين غير ديننا وإمتزجت معه عن قصد وتصميم. فخرجت الفلسفة بتعقيداتها ومتاهاتها وجدلها منتصرة على الدين. ولما تجلى الإثنان متحدان في قالب واحد، أخذ الدين نصيبه من هذا القالب، فكان هو الإسم، وأخذت الفلسفة نصيبها الأكبر وهو المنهج، بعد أن قضت على المنهج العقيدي لهذا الدين.

وخرجت الفلسفة منتصرة بأخذها القلب وتركها القالب للدين، فتسربت فيه عقيدة الثالوث وغيره من الأمور العجيبة. وأصبحت تسمع في ذاك الدين (النصرانية) ما تسمعه عند الفلاسفة من إصطلاحات مما يدل على وحدة المصدر بينهما. كالكلام على المسيح عليه السلام بأنه جوهر وطبيعة، أو جوهر وطبيعتان ومشيئة وعن اعداد الكثرة والبسيط والمركب منهما إلى غير ذلك.

وقد تكشفت هذه الحقيقة لكثير من أبناء تلك الديانة فلم يسكتوا عن ذلك، بل دونوا كتباً وأصبحت الصرخات تعلو لإزالة هذه الفلسفات الوثنية التي تلقحت بها ديانتهم.

فكان العالم النصراني (ترتليان ٢٢٠م) يعلن: «إننا بريئون من الذين ابتدعوا مسيحية رواقية أو إفلاطونية أو جدلية، بعد المسيح والإنجيل لسنا بحاجة إلى شيء».[١]

ويعترف رئيس قسم تاريخ الأديان في جامعة باريس «شارل جنيبير» بهذه الحقيقة فيقول: «إن إغراء الفكر اليوناني ظل يؤثر على هؤلاء الذين كانوا قد عرفوه قبل خضوعهم للنزعة الجارفة التي جاءت بهم إلى الإيمان المسيحي. وهم أيضاً رجال لم يجدوا الإرادة الكافية أو لم يستطيعوا، وإن أخلصوا النية، أن يتناسوا القوانين الأساسية وأساليب التفكير التي

١ - الله واحد أم ثالوث للأخ محمد مجدي مرجان (قس سابقاً) ص ١٤٠.

علموها في المدارس، فراحوا يطبقونها على مبادىء الإيمان وعلى النظريات التي أوحت بها العاطفة الدينية لسذج البسطاء ونشأت عقائد معقدة مثل: التثليث، وتحول الخبز والخمر التي أتى بها «الفلاسفة»... وكانت أساليب الجدل المستخدمة في العصر الذي تتحدث عنه هي أساليب السفسطائيين وأهل المنطق من الاغريق. كما أن المفاهيم التي تراكمت شيئاً فشيئاً على عناصر اللإيمان فحولتها إلى عقائد، كانت نابعة من الميتافيزيقيا الهيلينية[١]... وهكذا استنبط منها فلاسفة الإفلاطونية الحديثة نوعاً من الأديان المهمة، وهكذا أيضاً أدخلها علماء الإسكندرية المسيحيون في إطار مفاهيم إيمانهم، فخرجت من هذا الخليط عقائدية جديدة»،[٢] ثم يتابع قوله:

«وأرادوا لها أن تكون فلسفة، فأصبحت فلسفة بفضلهم.. فلسفة للكمال تنطوي على خير ما جاء في النظريات اللاهوتية والجمالية عند اليونان كما تضم الأفكار الأساسية من نظرياتهم الخاصة بالكون... تلك العناصر التي اندمجت في المسيحية إندماجاً تاماً بحيث بدت وكأنها جزء أصيلاً منها لا يتجزأ».

ثم يعبر عن أسفه الشديد لإمتزاج الفكر الإغريقي والحكمة اليونانية بالديانة النصرانية والتي قال عنها بأنها ليست سوى «حماقة أمام الله» لأنها كما يقول حكمة دنيوية أرضية لا يمكنها الاحاطة بالله ومعرفته يقول:

«كان لها (أي النصرانية) أن تبادر في البدء إلى معارضة «الحكمة الدنيوية» ـ تلك الحكمة التي ليست سوى «حماقة أمام الله» ـ فتواجهها

---

١ ـ «المسيحية» نشأتها، وتطورها (شارل جنيبير) ص ١١٨.
٢ ـ نفس المصدر ص ١٥٥.

ب«غنوصيتها» أي: بمعرفتها الإلهية المنزّلة. بل كان من واجبها أن تصرح باحتقارها للفلسفة، وأن لا تحيد قط بحيث لا يلحق بها أو يضيرها أي تفكير إنساني مهما بالغ أصحابه في الإجتهاد»[١]...

يريد القول بأنه كان على النصرانية أن توصد أبوابها وتحكمها أمام الأفكار الإنسانية كي لا تمتزج بها، وتفسد ما جاءت به من السماء. وهذا يدل على ندم الرجل على دخول تلك الفلسفات لأنه يعلم أنها أفسدت ما جاء به عيسى عليه السلام، هذا ما نحن حريصون على اجتنابه، وهو إحكام هذا الدين وإغلاقه أمام هذه الفلسفات التي كان لها الضلع الأكبر في إفساد دين من كان قبلنا.

ولئن أتحنا الفرصة أمام هذه الفلسفات لدخول الدين (لا من جوانبه وإنما من أصله) فلربما يأتي الكاتب منا يوماً بسطور معبرة عن الأسى والحزن على هذا الدين، وبسطور أخرى يصيب بها حمم قلمه على تلك الفلسفات الدخيلة على ديننا. تماماً كما فعل شارل جنيبير في ما نقلناه عنه.

وكذلك يذكر (BERRY) أحد علماء الغرب بأن «بولس» أراد التوفيق بين النصرانية وما عند الرومان فأدخل صوراً من فلسفة الإغريق ليجذب له أتباعاً من اليونان ـ فاستعار من فلاسفة اليونان وبخاصة الفيلسوف (Philo) فكرة إتصال الإله بالأرض عن طريق الكلمة (The loges)[٢]

ويقول ليون جوتيه[٣] (Gau Thier): «إن المسيحية تشربت كثيراً من الآراء والأفكار الفلسفية اليونانية، فاللاهوت المسيحي مقتبس من المعين

---

١ ـ نفس المصدر ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

٢ ـ DR. BEERY: RILIGIONS OF THE WORLD P.70

٣ ـ المدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية ص ٩٣.

الذي صُبت فيه «الافلاطونة الحديثة» ولذا نجد بينهما مشابهات كثيرة». [1]

وهكذا تم إمتزاج الفلسفات اليونانية وعلوم المدرسة الاسكندرية بالعقيدة النصرانية فأثرت فيها تأثيراً عميقاً أدى الى الحالة التي هي عليها اليوم.

إذاً فالفلسفة قد إقترفت جريمة عظيمة قبل ظهور هذا الدين، فقد قضت على الحقيقة التي جاء بها المسيح عليه السلام وأبدلتها بصورة شبيهة بتلك التي نرى عليها مبادىء الفلاسفة وأساطيرهم.

ولو أردنا أن نأتي بأقوال النقاد وعلماء الغرب وغيرهم ممن يذكرون هذه الحقيقة ويبينون أنها كانت هي وسيلة التدمير الأساسية للعقيدة النصرانية، لأدى بنا ذلك إلى التوسع في هذا الباب، لكن يكفي بأن ننّوه بأن كتب العلماء الغربيين وحتى القساوسة منهم مليئة بما فيه الإعتراف بهذه الحقيقة المرة.

فكيف يقبل العاقل أن يقول عنها بأنها هي التوحيد، وهي التنزيه؟ .. وكيف يكون شرذمة من فلاسفة اليونان أهدى من الذين آمنوا سبيلاً؟ كيف يتوصلون إلى مبادىء وقواعد تفيد التنزيه وتقوي دعائم هذا الدين، فيكونون بذلك قد أسدوا خدمةً جليلةً لهذا الدين، سبقوا بها أهدى الناس سبيلا، كأبي بكر وعمر وغيرهم من الصحابة الكرام؟....

---

١ ـ وبالمناسبة فقد أثبت صاحب كتاب (تاريخ الفلسفة اليونانية) مدى تأثر النصرانية بالغنوصية والمانوية وغيرهما من فلسفات اليونان ما يدعو إلى مراجعته ص ٢٥٣ ـ ٢٥٨ فليراجع.

الطريق الصحيح في الاثبات والتنزيه

ويكفيك من ضلالة القوم وإفترائهم على الله أن يقولوا بأن أخذ الآيات على ظاهرها[1] باطل ويوهم التشبيه.

وهذا مخالف لقوله تعالى في وصفه لكتابه بأنه (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه)[2] والمتكلمة إكتشفوا من ظاهره باطلاً ففي قولهم هذا وفي تنزيههم المزعوم تكذيب لله تعالى فيما وصف به كتابه، ولو أنهم أثبتوا ما وصف الله به نفسه في كتابه وما وصفه به رسوله من الأحاديث، وقالوا نقر بما جاء عن الله وعن رسوله مع نفي التشبيه لله بخلقه قائلين (ليس كمثله شيء) (ولم يكن له كفواً أحد) لكان أسلم لهم وأحكم، ولعُدّوا من أهل السنة والجماعة، لكنهم فضلوا تنزيه الله بطريق تكذيبه ورميه بالنقائص، فما نزهوه من جهة إلا انتقصوه من جهة أخرى. وما أثبتوا له صفة إلا نفوا على حسابها صفة أخرى.

ونحن لا نريد أن نكون منزهين ومعطلين، إذ أن تمثيل الله بخلقه معناه تعطيل صفات الكمال عنه في تمثيلها بالصفات الناقصة التي تعترض المخلوقين.

---

١ ـ فيما يتعلق بآيات الصفات.

٢ ـ فصلت ٤٢.

كما أن التعطيل نفى صفات الكمال لله ظناً أن في إثباتها مشابهة لصفات المخلوقين الناقصة، وكلا الطريقين تؤديان إلى الهاوية.

ولا سلامة ولا حكمة ولا تقوى إلا بإلتزام الطريق الذي التزمه السلف الصالح من الصحابة والتابعين، وهو اعتبار كل صفة أثبتها الله لنفسه بأنها صفة كمال، إذ لا يعقل أن يثبت الله لنفسه صفة نقص.

وكذلك اعتبار أن كل ما وصفه به رسوله ﷺ هو من صفات الكمال، فإن الرسول ﷺ لا يصف الله بأوصاف من عنده، لأننا نعلم بأنه ما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى.

ومن هنا كانت طريق السلف هي إثبات ما أثبته الله لنفسه وما وصفه به رسوله ﷺ من غير تمثيل ولا تعطيل ولا تحريف ولا تبديل أي أنهم يثبتون هذه الصفات إثباتاً بلا تشبيه، وتنزيهاً بلا تعطيل، فلا يقتضي إثباتهم لله تشبيههم له بصفات المخلوقين ولا يقتضي تنزيههم له عن التشبيه أن ينفوا عنه ما وصفه لنفسه من صفات الكمال، بل يثبتون ولا يشبهون، وينزهون فلا يعطلون.

فكما أمرنا أن نصدق ونؤمن بكل آية من آيات الله بما في ذلك آيات الصفات كلها، فكذلك أمرنا أن نؤمن من جملة ما نؤمن بهذه الآيات الثلاث المضادة للتشبيه

(ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)
(ولم يكن له كفوا أحد)
هل تعلم له سمياً).

هذه الطريق تغنينا بسلامتها وأمانها عن السبل الأخرى والمستنبطة من أهواء الفلاسفة الذين استُعِينَ بهم في التوحيد مع أنهم لم يصلوا لله

ركعةً واحدة ولم يفهموا من الإسلام فرضه ولا نفله.

ولم يعرفوا نعمة التوحيد المبتدئة بكلمة (لا إله إلا الله)، فلا يصح عندئذ توحيد الله عن طريق من لم يعرف الله. بل المطلوب منا التقيد بأصلي التوحيد وهما الكتاب والسنة، بهما يعرف التوحيد، وبغيرهما لا يقبل. ومن يبتغ بغير هدى الإسلام توحيداً، فلن يقبل منه، وهو في النهاية من المعطلين.

لماذا تأولتم أحاديث الرسول ﷺ

إننا لو إفترضنا بأن الحبشي قد تأول الآيات الكثيرة وصرفها عن معناها الراجح بحجة أنه من الراسخين في العلم، الذين يعلمون تأويله، وبحجة أن الآيات المتشابهات يمكن تأويلها.

فما الذي دعاه إلى الخوض في تأويل أحاديث رسول الله ﷺ وهل نعتبر أن أحاديث الرسول ﷺ من المتشابه الذي يمكن تأويله؟ لقد علم العاقل والجاهل أن السنة قد أتت مفسرة ومبينة للكثير من الآيات، كما قيل «السنة هي تأويل القرآن»، أي تفسيره وبيانه، كما أنها شارحةً لكثير من الآيات القرآنية وموضحة لما استفسر عنه الصحابة وما أشكل عليهم، فتكون السنة عند ذلك مبينة ومفصلة لما في الكتاب. فإن تك حجة المعطلة عند تأويلهم آيات الله بأنهم تأولوها لأنها من المتشابهات التي تحتمل التأويل، فلا حجة لهم في الأحاديث الثابتة عنه عليه الصلاة والسلام. لأنه ما من أحد قال بأن السنة تنقسم إلى محكم ومتشابه أو أن فيها من المتشابه ما يحتمل التأويل.

والظاهر أن من فتح باب التأويل ولو بآية واحدة فإنه من السهل عليه أن يفتح الأبواب التالية التي هي دونه.

وأصبح الدين كله عند المتكلمين - متشابه يحتمل التأويل.

والحبشي قد تأول حديث الجارية وحديث النزول، وأحاديث الغضب والمحبة والتعجب وحديث القدم وأحاديث أخرى.

فهل أحاديث رسول الله من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله ورسوله والراسخون في العلم، أم أن الأمر قد ابتدأ بتأويل آية. فاطرّد الأمر إلى تأويل أي شيء في الدين؟... إنها مصيبة عظيمة أن تتعطل فرامل التأويل فتبدأ بالكتاب وتمر بالسنة، وبصلاة الجمعة (في تأويلها تركها بحبتين من البصل والثوم) ولا يقوى المتأول عند ذلك أن يكبح جماح تأويلاته التي لم تعد تعرف حداً

ولا يعود يفرق بعد ذلك بين آية وحديث!

عجباً لهذا التأويل، ألا من حدود تحده؟

أما من نهاية لخط سيره؟

أم أنه باب من (التعطيل) فتحه الشيطان وسماه «التأويل» وأعجز الناس عن إغلاقه ؟ ...

إنه في الحقيقة هو باب (التعطيل) لأننا نرى أن كل تأويل تأوله المتكلمون لم يؤد بهم إلا إلى نفي ما وصف الله به نفسه.

فإن قال الله بأنه (استوى على العرش) قالوا: «لو استوى على عرشه لكان مماساً ولجاز القول بأنه مفتقر اليه»... الى غير ذلك من أمور التكلف التي أدت بهم إلى تعطيل صفة الإستواء التي وصف الله بها نفسه. ومن أعلم من الله بما يصف به نفسه؟ ومن أحرص من الله على تنزيهه عن صفات النقص؟ وعظمته هل يعقل عاقل أن يصدق بأن الله قد وصف

نفسه بما يسقط منزلته وعظمته إلى صفات المخلوقين؟ . . أو لم يكن يعلم الله بعواقب هذه الصفات قبل أن ينزلها؟ . . هل هذا تنزيه يحمدهم الله عليه يوم القيامة ؟ . . وما انزل الصفات إلا وهو يعلم ما سيحدث من تشويش في العقائد !

ليس هذا هو التنزيه وإنما هو تنزيه مزور، مقرون بالجرأة على الله، واتهامه بعدم الدقة وصحة التعبير فيما يصف به نفسه.

وكذلك الامر في نفيهم لهذه الآية (ءأمنتم من في السماء)، قالوا ليس في السماء لأن هذا يعني أن السماء تحويه وتحيط به والله تعالى لا يحصره مكان.

نحن معهم بأن الله لا يحويه مكان ولا يحصره، ولكننا لسنا بالذين وصف الله بهذه الوصف من عندنا، فنحن لم نقل هو في السماء باجتهاد خاص من عندنا، وإنما وصفناه بما وصف به نفسه مع يقيننا بأنه ليس كمثله شيء، فإن كان دخول أحدنا إلى الغرفة يجعله محصور فيها، فهذه ذوات المخلوقين وهذا القانون منطبق عليهم.

لكن ذات الله تخالف ذوات المخلوقين فلا يجوز هذا القانون في حقه.

فإننا نثبت الصفة التي وصف بها نفسه جل شأنه، ولا نفصل كيفيتها لأنه لا علم لنا إلا ما علمنا، والله علمنا هذه الصفة ولم يعلمنا كيفيتها. فقلنا:

إن الله في السماء هو أمر معلوم، وكيفيته غير معقولة، والإيمان بها واجب (ويقتضي الإيمان بها إبقاؤها وإثباها على ما جاءت في كتاب الله من غير تكييف ولا تمثيل ولا تأويل ولا تحريف لها ولا تبديل) والسؤال عنها بدعة (أي تفصيلها بدعة كقولكم إذا أقررنا بهذه الصفة لزمنا كذا، وكذا،

فيجوز تأويلها وتبديلها بمعنى آخر يخالف ما دل ظاهرها عليه) وما فعلتموه هو أنكم شبهتم الله بما عند المخلوقين وقستم الله بالمقاييس التي يقاس بها خلقه أي (قياس الشاهد على الغائب) فأدى بكم هذا كله إلى التعطيل بعد وسوسة التشبيه، وهذا ما حدى بكم إلى النفي بطريق التأويل، أي النفي غير المباشر.

إذ أنكم لم تقولوا (والله أعلم): هذه الآيات مردودة على الله ولا نؤمن بها، ولكنكم وقعتم بهذه النتيجة بطريق غير مباشر حين قلتم: إذا كان في السماء فيقتضي كذا وكذا ولو كان مستوياً لكان كذا وكذا.

فخضتم في آيات الله وأكثرتم القول فيها. ووصفتموه بما لا يليق به، ونفيتم عنه ما يليق به مع أنكم لم تروا الله لتعلموا ما يليق به مما لا يليق به.

فحق فيكم قوله:

(ها أنتم حاججتم فيما لكم به علم، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم)[1] ثم أثبت بأنه أعلم منكم بما يصف به نفسه فقال في آخر هذه الآية (والله يعلم وأنتم لا تعلمون).

وذلك كقوله (قل ءأنتم أعلم أم الله)[2]؟ فمن أعلم من الله بما يصفه ياشيخ عبد الله؟..

وليس المشبه من قال: «يد الله كايدينا أو سمعه كسمعنا أو بصره كبصرنا فحسب، بل المشبه من يجعل المقاييس التي يقيس الله بها من جنس ما يقاس به المخلوقات، والأمران تشبيه وتمثيل.

---

١ - آل عمران ٦٦.
٢ - البقرة ١٤٠.

وقال: (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير)
وقال: (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد)

ثم بين أن هذا الخوض والجدل ليس إلا إيحاء من الشيطان فقال:

(وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم).[1]

ثم بين لنا أننا إن اختلفنا في شيء أشكل علينا أن نرجع الى الله قال تعالى: (وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله).[2]

ونحن حكمنا كتاب الله في الآيات التي توهم (عندكم) التجسيم، فكان حكمه في كتابه أن (ليس كمثله شيء) (ولم يكن له كفواً أحد) و (هل تعلم له سمياً)

فرضينا بهذه الآيات حكما لنا، وأغنتنا بالتالي عن مقاييس وقواعد الفلاسفة الذين خاضوا في الله بغير سلطان أتاهم.

فكان رجوعنا الى كتابه هذا بمقتضى قوله تعالى (وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله) إذ حكّمنا كتاب الله بيننا لدفع شُبه التشبيه، فكان خير حكم لنا وخير دواء لنا من أمراض التشبيه والمماثلة بين صفات الله وذاته بصفات وذوات المخلوقين.

ولم نحكّم غيره، ولم نرجع في اختلافاتنا إلى غيره من أدلته ومقاييس الضالين، لأننا واثقون من قول الله عز وجل (اليوم أكملت لكم دينكم) بأنه أكمل الدين وأتم النعمة فلا بد أن نجد حكم الله في مسألة أي خلاف مهما كثرت الخلافات وتعددت المسائل.

---

١ - الانعام ١٢١.
٢ - الشورى ١٠.

وما رجوع المتكلمين إلى الفلاسفة والإغريق إلا لسوء ظنهم بكتاب الله وسنة رسوله وإلا لرجعوا إليهما فيما اختلفوا فيه.

لكنهم أساؤا الظن من حيث ظنوا أن داء التشبيه والتجسيم ابتدأ من كلام الله وكلام رسوله، ووقع العوام في التجسيم والتشبيه بسبب تلك الآيات وتلك الآحاديث.

فاضطرهم سوء ظنهم إلى البحث عن البديل، فكان البديل عندهم فلاسفة «المدينة الفاضلة» ومناطقة مدرسة الإسكندرية الذين كانوا عندهم أحرص على تنزيه الله مما في كتاب الله وسنة رسوله.

«فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً».(١)

وليس التسليم بما في الكتاب والسنة إلا جزء لا يتجزأ من «الإسلام».

بقي أن نقول بأن النزاع بيننا وبين الحبشي هو في إثبات آيات الصفات أم تأويلها. فالرجوع في هذا التنازع ينبغي أن يكون إلى الله ورسوله، قال تعالى:

(فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلاً).(٢) فإن رجع الحبشي بنا إلى كتاب الله ورسوله فذلك خير وأحسن تأويلا وإن رجع بنا إلى مقاييس وجدليات الفلاسفة، لا إلى كتاب الله وسنة رسوله كان ذلك شر وأسوأ تأويلاً.

---

١ ـ النساء ٦٥.

٢ ـ النساء ٥٩.

العقل يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه

يقسم الحبشي الأدلة إلى قسمين: برهان عقلي (يتوسع في شرحه) وبرهان شرعي.

أما البرهان العقلي فهو عنده برهان «يوناني» مؤسس ومبني على طريقة الفلاسفة، ذات النمط المزري الجاف الذي لا يزيد العقول إلا تحجيراً، والذي يختلف بأصوله وفروعه عن الطريقة التي أتى بها هذا الدين العقل.

ولو كان العقل مستقلاً، وخارجاً عن بعض العوامل المحيطة به، والتي تتربص به الدوائر..، لو كان العقل مستقلاً عنها، لخفت نسبة الخطر. لكن هذا العقل محاط بإبليس، الذي وعد رب العزة بأن يأتي إبن آدم من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، مما يجعل استقلالية هذا العقل في النظر والاستدلال، والغلو في ذلك بمعزل عن التزام حدود الشرع، أمر ينذر بالخطر،.. خطر استغلال إبليس لتلك الإستقلالية.

لذا فلا يجوز للعقل الذي يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه، أن يخوض في صفات الله، وأن يتكلف معاني أخرى لنصوص الكتاب الذي قال الله عنه: (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه)[1] إذ أن خوضه في آيات الصفات وتكلفة معاني أخرى غير التي أخبر الله عنها، ينتج عنه أمران:

١ ـ تصحيح ما كاد تركه يضل عوام الناس (بزعم المتكلمين) كقولهم:

---

١ ـ فصلت ٤٢.

يجب تأويل الآيات التي توهم التجسيم عند عوام الناس لصرفهم عن الجسيمة.

٢ ـ تكلف العلم بذات الله مع أن الحبشي وأمثاله من المتكلمين يبتدئون تأويلاتهم بقول (تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذاته) فينقضون هذا القول ويتكلفون العلم بذاته، فيتكلمون في الحرف والصوت والاستواء، ويبتدعون لصفات الله معاني أخرى تخالف ما وصف الله به نفسه، وهذا كله من مخلفات التفكر في ذات الله.

وهذا غير جائز، إذ أن العقل جاهل كل الجهل بأمر روحه التي بين جنبيه والتي لا تزال تلازمه ولا تفارقه إلا عند الموت، فكيف يتكلف العلم بمن هو أعظم من ذلك؟

ولا بد لهذا العقل المستقل عن شرع الله أن يتعرض لعبث الشيطان فيه مهما تحرى الدقة والحذر، فلو أنك أمعنت النظر في هذه الدنيا وما فيها من المخترعات المذهلة، ومن وسائل الرقي والحضارة، ومن المنجزات العلمية والثقافية الهائلة لأصابك العجب من ذلك.

وليصيبنك العجب أكثر ، وأكثر، حين ترى أن أكثر الناس تقدماً وحضارة وعلماً، هم أبقاهم على الوثنية، . . . !! وأكثرهم عبادة للأحجار والأصنام، مع أن العقل السليم يأبى عبادة ما لا يضر ولا ينفع، وهذا ما يؤيد قولنا بأن العقول لا تستقل عن دين الله في أمر من الأمور إلا كان نصيبها التخبط والتردد، لأنها لا تكون في الحقيقة مستقلة، وإنما هي أسيرة إبليس الذي لا يراه أصحاب تلك العقول بل إنه يراهم هو وقبيله من حيث لا يرونه وتلك هي فرصته، وذاك هو مجال عمله. وهذا ما أوقع الفلاسفة وغيرهم في الزندقة والكفر لأنهم أرادوا ديناً على خطىً (عقلانية) فأخطئوا الدّين وأخطئوا العقل، وأصاب الشيطان ما أراده.

لذا فإن أكثر الناس استعمالاً للعقل واستغلالاً لمجالاته (اليوم) هم أكثر الناس تفاهة وضلالاً، وهؤلاء هم (اليابانيون) مثلاً، فإنهم توصلوا إلى علوم وتكنولوجيا تثير إعجاب المرء حقاً، لكن مداومتهم على سجودهم للأحجار والأوثان تثير سخطه وتعجبه من أمرهم، وهذا من تسلط الشيطان على من لا يتحصن بدين الله.

لذلك فإنك ترى لما وعد إبليس ربه، أن يغوي البشر أجمعين قال له الله عز وجل (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان)[1]، بل إن الشيطان أقر بعجزه عن تسلطه على عباد الله، فأقر بذلك قائلاً (إلا عبادك منهم المخلصين)[2].

أما غيرهم ممن لا يتحصنون بهذا الحصن المنيع، وإنما يتحصنون بحصن قواعد الفلاسفة فليسوا هم المعنيين بهذا الاستثناء، لا سيما إذا علمنا بأن «باب الفلسفة» افتتحه الشيطان وقص له «الشريط التقليدي»، فما دخله بعد ذلك إلا المفتونون الذين لم يعتصموا بكتاب الله وبسنة رسوله.

قال تعالى: (ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم)[3].

---

١ ـ الحجر ٤٢.
٢ ـ الحجر ٤٠.
٣ ـ آل عمران ١٠١.

البرهان الشرعي هو نفسه عقلي

وأما فصل الأدلة الشرعية عن الأدلة العقلية فهذا أمر لا يصح.

إذ أن الأدلة الشرعية هي أدلة عقلية، تخاطب العقل نفسة، فإذا كانت الأدلة والبراهين الشرعية غير مخاطبة للعقل، فهل أنزلها الله لتخاطب الجسد، أو لتسمعها الأذن فقط؟.

لذا فإنه ما من دليل إلا كان موجهاً إلى عقل الانسان يدعوه إلى التدبر وإعمال عقله ضمن الحدود، فالعقل في ذلك خادم للنقل وليس أصل مقدم عليه.

إن اتخاذ العقل مقياساً لقبول الشيء أو رفضه وميزاناً لذلك، من غير وضع هذا الشيء بميزان دين الهدى، هو ميزان ذو خلل لا بد أن تطيش فيه كفة على حساب ارتفاع كفة أخرى.

ونحن لا ننهى عن إعمال العقل والتدبر، وإنما ننهى أن يكون ذلك بمعزل عن دين الله وعن هديه، لأن الذي أنزل هذا الدين هو نالذي خلق ذاك العقل، فأنزل ما يكون مناسباً للعقل الذي خيلقه.

لذا فإن من أراد الهداية بغير «هدى الله» فإنه لن يصيب الهدى وإن إجتهد في إعمال العقل وتنميته بشتى سبل العلم وطرائقه.

وكان بذلك كتاب الله هو الهدى، وهو الحصن الذي يقي الإنسان من تسلط الشيطان على عقله.

فأمكن ائتمان العقل عند هذا الدين، لكن إئتمان الدين عند

العقل هو بمثابة إئتمان الذئب على الغنم. فلو أننا اعملنا العقل بمعزل عن كتاب الله وهدي رسوله ﷺ لضللنا.

ومن ذلك تجد حرص السلف على هذا الدين وتقديمة على أي شيء آخر، بل على عقولهم. ومثال ذلك ما روي عن أوسع الناس عقلاً وأكثرهم علماً ـ وهو الشافعي رحمه الله ـ فقد روى مرة حديثاً فقال له رجل: تأخذ به يا أبا عبد الله؟ ـ فقال: سبحان الله! أروي عن رسول الله ﷺ حديثاً لا آخذ به ؟! متى عرفت لرسول الله ﷺ حديثاً ولم آخذ به ـ فأنا أشهدكم أن عقلي قد ذهب[1]

ونحن لا ندعو بحال إلى إلغاء دور العقل، لكننا لا ندعو إلى تقديسه وتقديمه على الشرائع التي أنزلها من خلق العقل، ولو كان بإمكان العقل أن يعمل بمعزل عن هذا الدين، لتمكنت البشرية من استنباط مناهج لها مستغنية بذلك عن هذا الدين. لكنها اليوم كلما توصلت إلى مزيد من العلم كلما ازداد الناس حيرة وتيهاً وتردداً وضلالاً عن معرفة حقيقة وجودهم على هذه الأرض، وما خلقوا له.

لذا فإن أكثر الناس علماً وأوسعهم عقلاً واجودهم ذكاءً، أكثرهم ضيقاً في العقل حين يمضي النهار في اختراع أعقد الأمور، فيأتي آخر هذا النهار ويخر لصنم أو وثن ومع ملازمة العقل لهذا الرجل، فإنه من الذين قال فيهم (أفلا تعقلون). ولم يصف الله الكفرة أنهم «لا يعقلون» لكونهم كانوا مجانين، فالمجنون لا تجري عليه الأحكام والتكاليف، ولا يقال له «أفلا تعقل»!

---

١ ـ أنظر شرح السبكي لقول الشافعي «إذا صح الحديث فهو مذهبي «ضمن مجموعة الرسائل المنيرية ٣/ ٩٨ وآداب ومناقب الشافعي ص ٦٧، وتاريخ الإسلام ٣٣ ـ ٣٤، ومعجم الأدباء ١٧/ ٣١٠، وأعلام الموقعين ٢/ ٣٦١، وطبقات السبكي ١/ ٢٦٢، والعلو ٢٠٤

بل قد وصفهم الله تعالى بذلك لأنهم تعنتوا، فانقادوا «وانقادت عقولهم معهم» إلى تفضيل ملة الكفر على ملة الإسلام، مع ما بهم من النباهة والذكاء والحنكة والدهاء. ولكن الذي يأتي الناس من بين أيديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم، قد تسلط على عقول أولئك الكفرة، واستحوذ عليها.

لذا فإن الاعتصام بالله هو أساس الهدى، وإن الاعتصام بالعقل دون ذلك هو الضلال البعيد.

يقول إبن خلدون في مقدمته:
«فلعل هناك ضرباً من الإدراك غير مدركاتنا لأن إدراكاتنا مخلوقة محدثة، وخلق الله أكبر من خلق الناس، والحصر مجهول والوجود أوسع نطاقاً من ذلك، والله من ورائهم محيط، فاتهم إدراكك ومدركاتك في الحصر، واتبع ما أمرك الشارع[1] به من اعتقادك وعملك، فهو أحرص على سعادتك وأعلم بما ينفعك لأنه من طورٍ فوق ادراكك ومن نطاق عقلك.

وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه، بل العقل ميزان صحيح، فأحكامه يقينية لا كذب فيها، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبؤة، وحقائق الصفات الالهية، وكل ما وراء طورة فإن ذلك طمع في محال.

ومثال ذلك رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال[1].

إننا لا نريد إلغاء العقل، فلولا العقل لما ميز الرجل منا الاسلام على غيره من الأديان بل ولكانت الأديان عنده على السواء، لكننا لا نريد إن

---

١ ـ مقدمة ابن خلدون ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠.

نطلقه ونغالي فيه كما أدى الغلو ببعض المعتزلة إلى أن قال القائل منهم «لا إله إلا الله عقلي رسول الله». فما استحسنه عقلة قبله، وما استقبحه عقله تركه.

ولكثرة تسلط الشيطان على عقل من أعرض عن هدى الله، فإن باستطاعته أن يعمي عليه الأمور ويشكلها عليه فيزين له الباطل فيراه حسناً، وذلك قوله تعالى (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً)[1] وقال (وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون)[2] وقال (قل هل ننبئكم بالأخسرين اعمالاً، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً)[3].

ولذلك فإننا حين ننهي عن استقلالية العقل وإعماله في أمور الدين بمعزل عن هدى الله، لا لنقدح فيه، بل لنحذر من تربص الشيطان به، واحاطته به من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، وقد يزين له السيء حسناً ويقبح له الحسن فيراه سيئاً. ومن نقصان عقول المتكلمين أنهم لا ينكرون أن في كتاب الله أي اختلاف، وإنه كامل لا نقص فيه ولا عيب، ثم يأتي الواحد فيقول بأن الآية الفلانية توهم التجسيم والتمثيل ويجب الاحتياط منها، بصرفها عن معناها إلى معنى آخر، خوفاً من ضلال الناس بها. ويقول كذلك بأن هناك ما يوهم التعارض بين هاتين الآيتين لذا يجب التأويل، وهذا من وساوس الشيطان ومن استغلاله للذين فتنوا في عقولهم فظنوا أنها ميزان الحق والهدى.

وأين تصب وساوس الشيطان، أتصب في جسد الإنسان أم في عقله؟

١- فاطر ٨.
٢- الانعام ٤٣.
٣- الكهف ١٠٤.

ألا يزين له الحرام فيقع فيه، ألا يزين له الفاحشة فيأتيها، فكيف لا يوحي إليه بعد ذلك بنفي وتعطيل آيات الله، مزيناً له ذلك على أنه أمر حسن يؤدي إلى تنزيه الله عن مماثلة البشر وغير ذلك من المبررات التي يطبخها في عقلة!.

اتهام الحبشي ابن تيمية بأنه يقول بأزلية نوع العالم

وكذلك اتهم الحبشي شيخ الاسلام ابن تيمية بأنه يقول بأزلية العالم، ولقن هذا القول للناس فتراهم يرددون عبارته هذه بلا إدراك ووعي لحقائق الأمور، ولا يحاولون الوصول الى حقيقة هذا الأمر، لأنهم يثقون بالشيخ، ويحسنون الظن به، وتراه قد استغل فيهم هذا فأدخل في عقولهم ما يريد، وحرم عليها دخول ما لا يريد.

وهذه عادة المغرضين، إذ أنهم لا يحسنون التلبيس إلا على عوام الناس، فإنهم هم سلاحهم.

قال الحبشي: «وأما أنه يقول بأزلية العالم بنوعه لا بالأفراد المعينة فقد اعتمدنا في ذلك إلى ما ذكرناه في هذا الكتاب في عدة مواضع» منها قوله: «فان الأزلي اللازم هو نوع الحادث لا عين الحادث» قال الحبشي: «فهو يعتقد أن مفعولات الله أي مخلوقاته على اختلاف أنواعها أزلية النوع لا الأفراد، وذلك عنده شامل لحركات العباد التي يتحركونها فهو يرى أن نوعها أزلي أي ليس بمخلوق»[1]

يريد الحبشي القول بأن ابن تيمية كان دهرياً، ولا نريد الإكثار من التعليقات لأن في حوزتنا الكثير من كلام ابن تيمية مما يبطل قول هذا الشيخ.

---

١ ـ الدليل القويم ٤١ ـ ٤٢.

إن أزلية نوع الحادث التي يتكلم عنها شيخ الاسلام ابن تيمية هي صفات الله تعالى، وسأضرب على ذلك مثلاً من أقوال ابن تيمية، يقول رحمه الله:

«وكل مخلوق فهو محدث مسبوق بعدم نفسه، وما ثم قديم أزلي إلا الله وحده، وإذا قيل لم يزل خالقاً فإنما يقتضي قدم نوع الخلق، ودوام خالقيته لا يقتضي قدم شيء من المخلوقات، فيجب الفرق بين أعيان المخلوقات الحادثة بعد أن لم تكن، فإن هذه لا يقول عاقل أن منها شيئاً أزلياً».

ثم يقول «بأن الله لم يزل فعالاً خالقاً، ودوام خالقيته من لوازم وجوده، فهذا ليس قولاً بقدم شيء من المخلوقات».(١)

وهذا الكلام من ابن تيمية إنما هو رد على طائفتين من الفرق وهما الدهرية والمتكلمون من الكلابية والأشاعرة وغيرهم.

فالدهرية استدلوا على أزلية صفات الله بوجوب قدم العالم وأزليته، فوقعوا في الافراط، أما المتكلمة فنفوا صفات الأفعال لأنها تقتضي بزعمهم الحدوث جرياً على قاعدتهم المعتادة «ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث» فوقعوا في التفريط. ولقد كان ابن تيمية في موقف الوسط فبين أن صفات الله أزلية وما يتسبب منها فهو حادث. وفي رده على المتكلمين يقول: ولا يقتضي حدوث العالم حدوث الصفات، وكذلك لا يقتضي قدم النوع (وهو صفة الله) قدم شيء من المخلوقات. ويضرب ابن تيمية مثلاً على ذلك فيقول: بأن الكلام الذي كلم الله به موسى هو حادث وإن كان نوع كلامه قديماً لم يزل. ومن قال بأنه لم يزل ينادي موسى في الأزل فقد خالف كلام الله.. لأن الله يقول «فلما جاءها» فأتى بالحروف الدالة على الاستقبال»(٢)

---

١ - مجموع فتاوى ابن تيمية ١٦/ ٩٥.

٢ - منهاج السنة النبوية ١/ ٢٢١ - ٢٢٤، إنه لا ريب أن من الصفات ما هو لازم لذات الله تعالى

فصفة الكلام أزلية لكن عين الكلام الذي كلم الله به موسى حادث.

ولعل قائلاً يقول: ما الدليل على أن قول الشيخ (نوع الخلق) أي صفة الخالق لله عز وجل؟

نقول له: لقد فصّل ابن تيمية هذا الجانب فأتى بصفة الفعل لله تعالى وقال عنها: «فلا يلزم من دوام الفاعلية دوام شيء أصلاً، ودوام النوع يقتضي حدوث أفراده، فكل ما سوى الله حادث بعد أن لم يكن، وعلى هذا التقدير فإنه يجوز حدوث الحوادث بلا سبب حادث، والنص والعقل دل على أن كل ما سوى الله مخلوق حادث كائن بعد أن لم يكن.. ثم قال: وليس النوع فانياً كما قال تعالى (إن هذا لرزقنا ما له من نفاد) هذا النوع (أي صفة الرزق) وإلا فكل فرد من أفرادنا منقضٍ ليس بدائم».(١)

فالنوع الأزلي عند ابن تيمية هو «دوام خالقية الله» وهو «دوام الفاعلية» وليس معنى النوع الأزلي هو حركة المخلوقات كما يقول الحبشي، وهنا جملة يتضح بها مقصود ابن تيمية بـ «دوام النوع» فيقول: «كما أن جميع المتحركات الممكنات لا تدوم حركتها إلا بدوام السبب المحرك المنفصل عنها»(٢) فالمخلوقات كما يقول ابن تيمية لا تدوم حركتها إلا بدوام

= أزلاً وأبداً كصفة الحياة والوجود فهذا لا يجوز أن يتأخر فيه شيء، وأما ما كان غير لازم للذات كصفة الكلام والفعل وغيرهما فهو مما تتعلق به المشيئة والإختيار، ولا يكون إلا حادثاً شيئاً بعد شيء وإن كان نوعه لم يزل موجوداً، فكلام الله مثلاً قديم الجنس وإن كان الكلام الذي كلم به موسى هو كلام حادث، والدال على ذلك أن الله قال «فلما أتاها نودي يا موسى» فالكلام من الله حصل بعد إتيان موسى، ومن قال إن الله كلم موسى بكلام أزلي فقد أخطأ، لأنه لا يعقل أن الله ما زال يكلم موسى قبل أن يولد وبعد أن كلمه وإلى يومنا بل إلى الأزل!! فهذا لا يقوله عاقل.

١ - منهاج السنة ١/ ١١٨.
٢ - منهاج السنة النبوية ١/ ٢٣٦

السبب المحرك وهو الله فدل هذا على أن دوام السبب المحرك هو هذا «النوع» الذي يقول ابن تيمية بدوامه.

وزعم الحبشي أن ابن تيمية يقول بأزلية نوع الأفراد لا عين الأفراد أي حركاتها، يدل على عدم فهمه للكلام وتسرعه في الحكم، وكيف يوافق على أن ابن تيمية يقول بحدوث الأفراد ودوام حركاتها. إذ أن حدوث الأفراد يعني حدوث كل ما فيها من أعيان وحركات وكل شيء، وهذا تناقض في الفهم.

فأين وجد من كلام ابن تيميمة أن «النوع الأزلي» معناه أن حركات المخلوقات أزلية؟ هل يملك دليلاً على هذا إنه من المحال، فإنه لن يجد من كلام ابن تيمية ما يعضد حجته ويقوي دليله.

وإذا علم هذا، علم عندئذٍ أن الشيخ يحرف معاني الكلمات ويؤولها بسهولة (لأنه قد سهل عليه تأويل كلمات القرآن فسهل عليه تأويل مادون ذلك). من كلام الناس. وأنا لا أريد أن اكتفي بجملة أو جملتين من كلام ابن تيمية لأثبت أنه بريء مما يرميه به الحبشي.

فلا يكاد يخلو كتاب من كتب شيخ الاسلام ابن تيمية (في مجال العقائد) إلا ويعيب فيه أقوال الدهرية القائلين بقدم العالم، ويفند آراءهم ويبددها واحدة تلو الأخرى، يقول:

«ومذهب الدهرية أن العالم قديم، [1] فقالوا: إما أن يكون العالم مخلوقاً أو قديماً، وهذا الثاني كفر ظاهر معلوم فساده بالعقل والشرع، فلو كان العالم قديماً وجب أن يكون مع الله قديماً آخر». [2] ثم قال: «وكان ما علم بالشرع مع صريح العقل أيضاً راداً لما يقوله الفلاسفة الدهرية من

---

١ - شرح حديث النزول ١٦٠.
٢ - شرح حديث النزول ١٧٠.

قدم شيء مع الله، بل القول بقدم العالم قول إتفق جماهير العقلاء على بطلانه، وجماهير أساطين الفلاسفة معترفون أن هذا العالم محدث كائن بعد أن لم يكن». [1]

وفي رد ابن تيمية على ابن عربي - لقوله في وحدة الوجود - كلام مشابه للكلام السابق. يقول: «ولو أن هؤلاء قالوا: «ان المعدوم ثابت في العلم [2] لكان جائزاً ومقبولاً منهم، لكنهم يقولون إنه في نفسه شيء ثابت في العدم، وهذا باطل، والذي دل عليه الكتاب أن المعدوم ليس شيئاً ثابتاً في نفسه، وقد دل الكتاب والسنة على ذلك. قال تعالى «وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) [مريم ٩] (هل اتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) (أو لا يذكر الانسان أنّا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً) [3] [مريم ٢٧].

وقال: وإن من قال بقدم العالم أو شيء منه، فليس معه إلا مجرد الجهل والاعتقاد الذي لا دليل عليه، وهذا الخطاب كافٍ في هذا الباب» [4] ثم قال:

«إنه معلوم بالفطرة والضرورة أنه لابد من محدث للمحدثات وفاعل للمصنوعات، وإن كون المفعول مقارناً لفاعله لم يزل ولا يزال معه، ممتنع في فطر العقول... [5] ولو قيل لعامة العقلاء (سليمي الفطرة) إن الله خلق السموات والأرض ومع هذا فلم تزالا معه لقالوا: هذا ينافي خلقه لهما، فلا يعقل خلقه لهما إلا إذا خلقهما بعد أن لم تكونا موجودتين.. وقد

---

١ - شرح حديث النزول ١٧٨.
٢ - علم الغيب.
٣ - مجموعة الرسائل والمسائل ٤/ ٦ - ١٧، وانظر «حقيقة مذهب الإتحاديين» ٦ و ١٤.
٤ - منهاج السنة النبوية ١/ ١٠١.
٥ - منهاج السنة النبوية ١/ ١٠٢.

أخبرنا الله بزمان خلقهما كما في قوله تعالى (خلق السموات والأرض في ستة أيام).

فهذا برهان مستقل في أن كل ما سوى الله محدث كائن بعد أن لم يكن شيئاً، فسبحان من إنفرد بالبقاء والقدم والزم ما سواه بالحدوث عن العدم». [1]١. هـ

ولمزيد من التأكيد أكرر هذه الجملة التي أرجو أن يتبين بها الحق وهي قول شيخ الاسلام:

«وان نوع الكلام قديم وان لم يجعل نفس الصوت المعين قديماً، وهذا هو المأثور عن أئمة الحديث والسنة، والكلام الذي كلم به موسى هو حادث وإن كان نوع كلامه قديماً لم يزل. ومن قال أنه لم يزل ينادي موسى في الأزل فقد خالف كلام الله مع مكابرة العقل، لأن الله يقول (فلما جاءها نودي ياموسى).. فأتى بالحروف الدالة على الاستقبال».

فكلامه هذا يدل على أن الرجل يريد أن يفرق بين نوع الصفة، وبين ما يقوم بها من حوادث فنوع صفة الخلق أزلي، وما يقوم بها من مخلوقات فهي محدثة مسبوقة بـ: لا شيء (عدم).

وهذا ما يحرص ابن تيمية على ذكره دائماً كقوله: «ولا يلزم من دوام كونه (فاعلاً في الأزل) أن يكون معه مفعول معنى قديم بل هذا من أبطل الباطل» [2].

وقارن بين الجملة السابقة والجملة التي سنذكرها الآن تجد أن معني «دوام النوع» هو نوع الصفة الأزلية الإلهية وليست كما يقوله الحبشي هداه

---

١ - منهاج السنة النبوية ١/ ١٠٣ ـ ١٠٤.
٢ ـ منهاج السنة النبوية ١/ ٩٢.

الله أن المقصود به حركات الأفراد لا عينها، لأن من يقول أن الأفراد منعدمة لا يمكن أن يقول أن حركاتها أزلية، ولو أن ابن تيميمة أتى بهذا الكلام صريحاً لقلنا هذا تناقض منه، لكن هذا الاتهام هو من استنباطات الحبشي، فهو ينسب لابن تيمية ما ليس في صريح منقوله، ويرميه بعد ذلك بالكفر. فهلا أتانا بما يوافق زعمه نصاً منقولاً عن شيخ الاسلام؟

الجملة الثانية المطلوب مقارنتها بما قبلها هي: قول شيخ الاسلام: «فلا يلزم دوام النوع قدم شيء بعينه، والنص والعقل دل على أن كل ما سوى الله مخلوق حادث كائن بعد أن لم يكن»[1].

يتبين للقارىء المنصف الذي لا يبتغي إلا الحق أن هذا هو المعنى الصحيح لقدم النوع، ولو أن ابن تيمية يستثنى من الحدوث شيئاً من المخلوقات كالحركات أو شيء آخر كما يزعم الحبشي، لما قال في هذه الجملة الأخيرة «أن كل ما سوى الله مخلوق حادث كائن بعد أن لم يكن» ولما قال «ومن قال بقدم العالم أو قدم شيء منه فليس معه إلا الجهل والاعتقاد الذي ليس عليه دليل»[2].

فلو أراد أن يستثنى من ذلك شيئاً لم يقل «أو قدم أي شيء منه» ولقال: إلا حركات المخلوقات.. إلخ. وهذه علة الحبشي فإنه يتتبّع المجمل والمبهم ليعقد عليه تأويلاته واستباطاته.

---

١ ـ منهاج السنة النبوية ١/ ١١٨ وحقيقة مذهب الإتحاديين ص ٧.
٢ ـ منهاج السنة النبوية ١/ ١٠١.

حجة الحبشي في هذه القضية

ولقد كانت حجة الحبشي في ذلك ضعيفة جداً ولا تقوم أمام حججنا التي بيناها له. فقد اقتطع من كتاب «منهاج السنة لابن تيمية» مقالاً واخذ منه كلمة مبهمة استدل بها على ان إبن تيمية من «المجسمة».

فقال في «الدليل القويم»[1]: قال ابن تيمية:[2]

«وأما قوله (أي قول الرافضي) انه يفضل عنه من العرش من كل جانب أربع أصابع، فهذا لا أعرف له قائلا ولا ناقلاً، والحديث قد طعن فيه غير واحد من المحدثين كالإسماعيلي وابن الجوزي، ومن الناس من ذكر له شواهد وقواه، ولفظ النفي لايرد عليه شيء فإن مثل هذا اللفظ يرد لعموم النفي».

فتمسك الحبشي بكلمة (ولفظ النفي لايرد عليه شيء) وقال: كيف يقول هذا القول»؟. وما لبث بعد ذلك أن رماه بالتشبيه.

قلت: لم هذه الضغينة؟ وهذا التحامل؟ إن أخذ الحبشي لفظا مجملا كهذا وتركه جملة ما ذكرناه من أقوال إبن تيمية المفصلة والموضحة لمنهجه في التنزيه، ينبى تعطش الحبشي لأن يتمسك بأي شيء يمكنه من قذف هذا الرجل ورميه بأسوأ النعوت. كأن ينقل عنه من الجمل والعبارات ما أجمل وأبهم واستشكل على عامة الناس. فهذا ليس دليلاً يصح الاستدلال به على إلصاق هذه التهمة.

١ - الدليل القويم ص ٤٠.
٢ - منهاج السنة النبوية ١/ ٢٦١.

إذ لو أكملنا قول ابن تيمية في هذه المسألة لظهر لنا أنه ينكر هذا الحديث انكاراً قوياً، كقول ابن تيمية: «والحديث إن لم يكن النبي ﷺ قاله فليس علينا منه» وقوله «وفي أقوال الإمامية من المنكرات مايعرف مثل هذا» أي مثل هذا الحديث، وهذا صريح بإنكاره لهذا الحديث، وكذلك قوله:

«لأن الحديث بتقدير ان يكون باطلاً، ليس هو قول جماعتهم، بل غايته أنه قالته طائفة» ويعني ابن تيميه رحمه الله أنه بتقدير أن تكون طائفة من أهل الحديث قالت بهذا الحديث فلا يدل هذا على أن كل طوائف وجماعة اهل الحديث يقولون بذلك.

ومفهوم من كلامه انه لو كان الحديث حقاً لأجمع أهل السنة عليه ففي اختلافهم فيه مايبني شبهته (لكن الحديث مطعون فيه ومنكر) هذا ما قاله ابن تيمية، فكيف يطعن فيه ثم يوافق مافيه؟.

ومن أراد الحق نظر بعين الإنصاف إلى ما فصلناه عن ابن تيمية في كتبه لأن فيها ما ينفي هذا الاستدلال المبهم الذي اخذ به الحبشي.

ناهيك عن ان الحبشي - كما أسلفنا - يعتمد تزوير بعض النصوص والتي ينقلها عن ابن تيمية مثال ذلك ما قاله عنه انه ينسب الحركة الى الله وينسب ذلك الى أئمة الحديث[1] وكذلك حرّف من أقوال ابن تيمية في كتابه منهاج السنة جملة قال فيها:

«والحديث إن لم يكن النبي ﷺ قاله فليس علينا منه»[2].

فحرفها الحبشي وجعلها «فليس علينا شيءٌ، واستبدال كلمة «شيء»

---

١ - قارن الجملة بين كلام ابن تيمية في منهاج السنة ١/ ٢٢٤ وبين نقل الحبشي لهذا الكلام في كتابه المسمى بـ «الدليل القويم» ص ٤٠.

٢ - أنظر منهاج السنة ١/ ٢٦١، وقارن هذه الجملة التي نقلها الحبشي عنه ص ٤٠.

مكان «منه» تبدل المعنى الذي اراده ابن تيمية[1].

فليس الحبشي امينا في نقله لكلام شيخ الاسلام ابن تيمية، ومن اراد التأكد مما قلنا فما عليه إلا المقارنة بين الجملتين ، الأولى في كتاب ابن تيمية «منهاج السنة» والثانية الجملة المنقولة عن إبن تيمية في كتاب الدليل القويم للشيخ الحبشي.

---

١ - الدليل القويم ص ٤٠

الرد على اتهامه لشيخ الاسلام ابن تيمية انه كان مشبها

ولتلفيق الشيخ تهمة التجسيم على ابن تيمية ليتمكن من إصدار حكمه الجائر فيه، اقتطع فقرات من بعض كلام ابن تيمية ليستدل بها على أن الرجل كان مشبهاً لله بخلقه. ولن أفصّل هذا التقطيع الذي قام به الحبشي قبل أن أنزه ابن تيمية من صريح منقوله ما يدحض حجج المفترين. وليس دفاعي عن ابن تيمية اتباعاً للرجال عن الحق، ولكن تبييناً للحق في شأنهم.

يقول ابن تيمية: «ومذهب السلف إنما هو التوحيد والتنزيه دون التشبيه والتجسيم... فمن الحق الذي فيه: ذم من يمثل الله بمخلوقاته ويجعل صفاته من جنس صفاتهم، وقد قال تعالى (ليس كمثله شيء) (ولم يكن له كفوا أحد) (هل تعلم له سميا)[1].

وقال: «ومن هذا يعلم بطلان قول المشبهة الذين يقولون: بصر كبصري، أو يد كيدي أو نحو ذلك، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً....» ١هـ[2]

ويقول: «أما القسم الاول فهم نوعان: أحدهما يجريها على

١ ـ نقض المنطق ١١٨.
٢ ـ الرسالة التدمرية ٩١.

ظاهرها، ويجعل ظاهرها من جنس صفات المخلوقين، فهؤلاء المشبهة، ومذهبهم باطل أنكره السلف».

ويتابع قوله: «فإن الصفات كالذات، فكما أن ذات الله ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس ذوات المخلوقات، فصفاته ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس صفات المخلوقات».[1].

ويقول: «ومذهب السلف أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله وقال: « ومذهب السلف بين التعطيل وبين التمثيل فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه كما لايمثلون ذات الله بذات خلقه، ولاينفون عنه ماوصف به نفسه ووصفه به رسوله»[2]

وقال في العقيدة الواسطية: «ومن الايمان بالله، الايمان بما وصف نفسه في كتابه ووصفه به رسوله محمد ﷺ من غير تحريف ولاتعطيل، ومن غير تكييف ولاتمثيل، بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير...، فلا يكيفون ولايمثلون صفاته بصفات خلقه، لأنه سبحانه لاسمى[3] ولا كفو له، ولا ندّله[4] ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلاً، وأحسن حديثاً من غيره»[5].

وقال رحمه الله: «ثم من توهم أن كون الله في السماء بمعنى أن السماء تحيط به وتحويه فهو كاذب إن نقله عن غيره، وضال إن اعتقده في ربه». ثم أوضح مذهب السلف في الصفات وأنهم لا ينفون صفات الله، فوصل

---

١ ـ الفتوى الحموية الكبرى ٦٦.
٢ ـ الفتوى الحموية ١٧.
٣ ـ أي مثيلاً ونظيراً.
٤ ـ الأمثال والنظراء، فمن اتخذ مع الله إلهاً آخر أو شريكا» فهو مشرك بالله اتخذ معه نداً، كقوله تعالى: (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله).
٥ ـ العقيدة الواسطية ٣ ـ ٤.

الى موضوع التشبيه فقال: «وما رأيت أحداً نفاها (أي من السلف) وإنما ينفون التشبيه، وينكرون على المشبهة الذين يشبهون الله بخلقه مع إنكارهم على من ينفي الصفات أيضاً، كقول نعيم بن حماد الخزاعي (شيخ البخاري): «من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ماوصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهاً». (١)

وقال: « فلابد من إثبات ما أثبته الله لنفسه ونفي مماثلته بخلقه . . . ومن قال :«له علم كعلمي، أو قوة كقوتي، أو حب كحبي، أو رضاء كرضائي، أو يدان كيديّ ، أو استواء كاستوائي كان مشبهاً ممثلاً لله بالحيوانات، بل لابد من إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل». (٢)

ويقول: «وأما لفظ المشبهة، فلاريب أن أهل السنة والجماعة والحديث من أصحاب مالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد وغيرهم متفقون على تنزيه الله تعالى عن مماثلة الخلق وذم المشبهة الذين يمثلون صفاته بصفات الخلق، متفقون على أن الله ليس كمثله شيء لافي ذاته ولافي صفاته ولافي أفعاله». (٣)

ويقول :«فمن الحق الذي فيه: ذم من يمثل الله بمخلوقاته، ويجعل صفاته من جنس صفاتهم، وقد قال الله تعالى: ليس كمثله شيء» وقال تعالى «ولم يكن له كفواً أحد» «هل تعلم له سميا» وتمثيل الله بخلقه والكذب على السلف من الأمور المنكرة»(٤)

«والقرآن جرى في حديثه على وجود الله على أن المقصود إثبات

١ ـ مجموع الفتاوى ٥/ ١٠٦، الفتوى الحموية الكبرى ٦٤.
٢ ـ الرسالة التدميرية ٢٠.
٣ ـ منهاج السنة النبوية ١/ ٢٤١.
٤ ـ نقض المنطق ١١٨ ـ ١١٩.

وجوده تعالى ـ لا إثبات كيفيته وإذا كانت ذاته لاتماثل الذوات، فكذلك صفاته لاتماثل الصفات». [1]

ويقول: «والتنزيه الذي يستحقه الرب، يجمعه نوعان: أحدهما نفي النقص عنه، والثاني: نفي مماثلة شيء من الأشياء فيما يستحقه من صفات الكمال، فإثبات صفات الكمال له مع نفي مماثلة غيره له يجمع ذلك». [2]

---

١ ـ درء تعارض العقل والنقل ٤/ ٣٢١.
٢ ـ منهاج السنة النبوية ١/ ٢٦١.

زعمه أن ابن تيمية ينسب الحركة إلى الله

ومما يعجب له المرء أن ينوع الحبشي إتهاماته فتارة ينسب القول «بالجسمية» الى ابن تيمية وتارة يرميه في القول بقدم العالم (مع اننا فصلنا الكلام على هذه المسألة وكذلك مسألة التشبيه) ثم يرميه بقول عظيم فيقول بأن ابن تيمية يرى نسبة الحركة إلى الله، وينسب هذا القول إلى أئمة الحديث.

والذي لايراقب المسألة جيداً ولايراجع أقوال ابن تيمية في نفس الموضوع تنطلي عليه هذه الإفتراءات العظيمة عند الله تعالى.

ومما لاحظته مرات عديدة أن الحبشي ينقل عن كتب ابن تيمية كلاماً لايكون كلامه، بل يكون حاكياً عن أقوال بعض الطوائف والفرق ومفنداً آراءهم ولا يبدي رأيه فيها فيظن الحبشي أنه يوافقهم على آرائهم التي ينقلها ابن تيمية عنهم.

ومن جهة الكلام على الحركة، فالسلف لم يتكلموا عنها إثباتاً لله أو نفياً عنه.

ولم يخوضوا بما خاض به تلامذة اليونان من المتكلمين وغيرهم. ولم يكن هذا سبيل المؤمنين، لأن الخوض في كنه الله وذاته أمر من أقبح الامور التي كانوا ينهون عنها ويحذرون منها ومن سوء عاقبتها.

والحاصل أن الحبشي يقول بأن ابن تيمية ينسب هذا القول (بالحركة) إلى أئمة الحديث وهذا تزوير وتحريف وتبديل، إذ أن ابن تيمية لم يقل أن هذا القول هو قول أئمة الحديث بل على انه قول طوائف منهم، والفرق بين كلمة (أئمة) الحديث وبين (طوائف) منهم، هو فرق عظيم.

ولا ريب أن طوائف من أهل الحديث قد وقعوا في بعض الأخطاء، فلم يكن ذلك الخطأ هو إجماع أئمة الطوائف جميعهم على هذا الخطأ، بل إن أئمة الحديث قد ردوا بعض طوائف أهل السنة عن أخطاء قد وقعوا فيها، ولايكون ذلك الخطأ مجمعاً عليه من أئمة الحديث وعامتهم، وهذا الخطأ قد وقع به القليل من عامتهم لا أئمتهم.

ومن يحرف الكلم عن مواضعه فيضع كلمة (أئمة اهل السنة والحديث) بدل الكلمة السابقة وهي الاصلية (طوائف من اهل السنة والحديث) لايصعب عليه أن يرمي الناقل عنهم بأنه يوافقهم في ذلك، أو أنه يرى ذلك وأن يحرف كلامه ويختلق له رأياً لم يتضح من كتب ابن تيمية صحته. إذ أن ابن تيمية لم يوضح رأيه في ما قالته طوائف من أهل السنة والجماعة ولم يعارض في هذا الموضع، فعدم المعارضة أو الموافقة لاتعني موافقته على ذلك، إلا أن نرى من كلامه، صريح مايتهمه به الحبشي.

والمهم أننا سننقل هذه الفقرة عن كتاب ابن تيمية (منهاج السنة النبوية) لنبين أن الشيخ لايريد الحق، بل جُلّ ما يريده هو برمجة عقول الناس على مايريده لهم، وإغلاقها عن أن تفهم غير مايريده.

قال ابن تيمية: «وقول طوائف من أهل السنة والحديث كالذين يقولون إن الحركة من لوازم الحياة. وكل حي متحرك»[1] فعلم أن قول طوائف من الناس شيئاً لايعني إجماع الناس كلهم عليه. واورد الحبشي

---

١ ـ منهاج السنة النبوية ١/٢٢٤

كلمة (أئمة) ليفهم الناس أن هذا القول هو يعني به ابن تيمية إجماع أئمة الحديث كلهم (بزعمه)

وهذا كلام مزور على ابن تيمية، بل إن اتهامه بأنه يرى هذا القول هو تزوير ثانٍ يضاف الى تزويره الأول، لأن شيخ الإسلام ابن تيمية لم يبد رأيه بهذا القول، بل إنه ينقل ذلك نقلاً فقط. وليس من المعقول أن يكون ابن تيمية موافقاً لرأي كل طائفة ينقله عنها، فقد نقل عن الدهرية آراء كثيرة، وكذلك عن الرافضة وعن اليهود والنصارى والفلاسفة وغيرهم، ولم يكن ليوافق رأي كل واحد منهم، وسيظهر في الباب التالي تنزيه ابن تيمية عن نسبة الحركة أو الانتقال الى الله لأنه لا يرى لتلك الكلمة حيزاً في مصطلح أهل السنة حيث أنهم لم يتكلموا بها نفياً ولا إثباتاً.

١ ـ لقد أوضح ابن تيمية أن هناك خلاف بين أهل الحديث حول نفي «الحركة» أو إثباتها. فذكر من الذين نفوا أمثال: نعيم بن حماد الخزاعي والبخاري وابن خزيمة وابن عبد الله وأصحاب أحمد منهم من يوافقهم أمثال أبي عبد الله ابن بطة وأبي بكر عبد العزيز ومنهم من يوافق الأولين كأبي عبد الله بن حامد وأمثاله، ومنهم طائفة ثالثة كالتميميين وابن الزاغوني. ومن الذين أثبتوا فإنهم على نوعين وهو الذي ذكره عنهم من نقل عن مذهبهم كحرب الكرماني وعثمان بن سعيد الدارمي وغيرهما وأنهم صرحوا بلفظ الحركة وذكر حرب الكرماني أن ذلك قول من لقبه من أئمة السنة كأحمد بن حنبل وابن راهوية والحميدي وسعيد بن منصور. أنظر درء تعارض العقل والنقل ٢/٧ـ٨.

الرد على هذا الزعم

قلنا إن ما نقله ابن تيمية عن بعض طوائف اهل السنة لاكلهم من أن كل حي متحرك، الخ. . . لايستدل منه على صريح موافقته لهذا أو معارضته، لأن ذلك كان مجرد نقل، لانقد فيه ولا تأييد.

وقد ذكر أن هذا الكلام كلام بعض طوائفهم لا إجماع أئمتهم كما يجزف ذلك الحبشي وفي هذا الباب نذكر رأي ابن تيمية في التحرك والانتقال وغير ذلك مما ينسبه اليه الحبشي افتراء عليه.

وما سنذكره عن ابن تيمية هو من صريح منقوله، لا من استخراج أو هامنا واستنتاج اهوائنا.

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «فمن قال أنه (أي رب العالمين) ينزل فيتحرك وينتقل من مكان الى آخر، أو يفرغ منه مكان ليشغل آخر، أو أن نزوله ـ كنزول الإنسان من السطح الى أسفل الدار، فهذا كله باطل قطعاً يجب أن ينزه الله عنه، فإن الرب هو الأعلى، ولو كان نزوله يلزم عنه تفريغ مكان وشغل آخر لما كان هو الأعلى في حال نزوله، ومن هنا كان كلام السلف على انه تعالى ينزل ولايخلو منه العرش ولأن نزوله ليس كنزول المخلوقين»[1].

---

١ ـ شرح حديث النزول ١٨٨ ـ ١٨٩، مجموع فتاوى ابن تيمية ٥/ ٤٥٨ ـ ٤٥٩ و ٥٧٨.

قال ابن تيمية: «وكذلك إذا قال قائل: كيف ينزل ربنا الى السماء الدنيا؟ قيل له: كيف هو؟ فإذا قال: لا اعلم كيفيته، قيل له: ونحن لا نعلم كيفية نزوله. إذ العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف... واذا كنت تقر بأن له حقيقة ثابتة في نفس الامر مستوجبة لصفات الكمال لايماثلها شيء، فسمعه وبصره وكلامه ونزوله واستواؤه ثابت في نفس الأمر، وهو متصف بصفات الكمال التي لايشابهه فيها سمع المخلوقين وبصرهم وكلامهم ونزولهم[1] واستواؤهم». [2]

وبهذا يتضح للقارىء الفرق بين كلام ابن تيمية «المنقول عن كتبه» وبين إتهام الحبشي الذي لم يأت به من كتب ابن تيمية، بل هذا الإتهام هو مختلق لا دليل عليه، إذ لا يوجد كلامه هذا في بطون كتبه.

وهذا الكلام الذي ذكرناه عن ابن تيمية صريح في ظاهره لايحتاج الى أن يستنبط البعض معانٍ أخرى مخالفة له.

والبلاء العظيم الذي ابتلينا به وجود جماعة لم تعد تأبه للنصوص، فأصبح الحق عندها ما يستخرجونه من المعاني المبدلة المحرّفة.

والنداء الأخير للحبشي هو:

هات لي من كلام ابن تيمية نصوصاً صريحة ترد هذه التي ذكرناها حتى نسلم ونذعن لقولك ونوافقك، إذ اننا لسنا كالآخرين ممن يريدون

---

١ - الرسالة التدمرية ص ٢٩ - ٣٠ ط المكتب الإسلامي في شرح حديث النزول ١١ (ما يشابهه).

٢ - قلت: وفي هذا رد على من زعم أن ابن تيمية قال وهو يخطب على المنبر «إن الله ينزل كنزولي هذا» وما ذكرته من الأمثلة التي نقلتها من كتبه يخالف زعم ابن بطوطة ويرد افتراءات الكوثري، لأن أخذ الكلام عن كتب ابن تيمية هو أثبت وأقوم دليلاً وأقوى حجة ممن قال مقولةً لا ندري عن ثبوتها شيئاً، إذ أن ابن بطوطة «غفر الله له» لم ير ابن تيمية ولم يسمع منه. وهذه كتب ابن تيمية بين أيدينا تدل على خلاف هذه الفرية.

الحق أن يتبع أهواءهم . فلو إتضح أن الحق في جانبكم بأن أتيتم بنصوص صريحة عن ابن تيمية تناقض هذه التي أتينا بها لوافقناكم ولقلنا إن ابن تيمية متناقض في آرائه مضطرب في عقيدته .

وانا جئتكم بما نقلته عنه وهو نفيه للانتقال أو التحرك أو الفراغ من مكان لشغل آخر التي ينسبها كثير من طوائف الفلاسفة والمتكلمين الى الله . وهذا النقل من كتبه ثابت ونقلناه عنه بأرقام الصفحات فوجب ان تأتوني بصريح منقول عنه يكون على عكس ماجئتكم به تماما ويكون نصاً صريحا لامجمل ولا من هوى أو سجية» أو تأويل . . بل من نص ظاهر واضح كوضوح الشمس لكي يعمي بضوئه وجلائه ابصار مخالفيكم، فتهدوهم بذلك الى الحق «إن كانوا ضالين» .

ثناء أهل العلم على ابن تيمية

فقد أثنى على شيخ الاسلام كثير من العلماء والفقهاء المشهود لهم بالاستقامة والصلاح والانصاف.

فقال فيه ابن كثير رحمه الله:

«هو الشيخ، الامام الرباني، إمام الأئمة، ومفتي الأمة وبحر العلوم، فريد العصر، شيخ الاسلام، وترجمان القرآن، قامع المبتدعين، وآخر المجتهدين، تقي الدين أبوالعباس أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن عبدالله بن الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبدالله بن تيمية الحراني ثم الدمشقي التيمي».. وقال: «وكان ذكياً كثير المحفوظ، فيقال: إنه كان أعرف بفقه المذاهب من أهلها الذين كانوا في زمانه وغيره»[1].

وقال فيه الحافظ البزار: «أما معرفته بصحيح المنقول وسقيمه فإنه في ذلك من الجبال التي لا ترتقى ذروتها، ولا ينال سنامها»[2].

وقال فيه ابن عبدالهادي: «كان بحراً لا تكدره الدلاء، وخيراً يقتدى به في الأخيار الألباء، طنت بذكره الأمصار، وضنت بمثله الأعصار». [3].

---

١ ـ البداية والنهاية ١٤/ ١٣٦، شذرات الذهب ٦/ ٨٠ و ٨٦، العقود الدرية ٢، ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٣٨٧ ـ ٣٨٨، الأعلام العلية ١٨، جلاء العينين ٥.

٢ ـ الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية ص ٣٢.

٣ ـ العقود الدرية ص ٧ و ١٠ و ١٢ و ٢٦.

ونقل ابن كثير عن الواسطي قوله: «فوالله، ثم والله، لم يرتحت أديم السماء مثل شيخكم ابن تيمية علماً، وعملاً، وحالاً، وخلقاً، وإتباعاً، وكرماً، وقياماً في حق الله تعالى عند انتهاك حرماته»[1].

وقال الذهبي فيه:

«ولقد نصر السنة المحضة والطريقة السلفية، واحتج لها ببراهين ومقدمات، وأمور لم يسبق إليها، وأطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون. وهابوا وجسر هو عليها، حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام قياماً لا مزيد عليه، وبدّعوه وناظروه وكابروه، وهو ثابت لا يداهن ولا يحابي، بل يقول الحق المر الذي أداه إليه إجتهاده، وحدة ذهنه». [2].

وكان ابن تيمية رحمه الله تعالى يقوم بنفسه بازالة المنكرات، فقد مر يوماً على قوم يلعبون بالشطرنج على مسطبة بعض حوانيت الحدادين، فنفض الرقعة وقلبها»[3].

وفي يوم دار الشيخ رحمه الله ومن معه من أصحابه على الخمارات والحانات في بلاد الشام فكسروا آنية الخمر وشققوا الظروف وأراقوا الخمور، وعزروا جماعة من أهل الحانات المتخذة لهذه الفواحش ففرح الناس بذلك». [4].

ومع شجاعة ابن تيمة وقوته في الحق، فقد كان عفواً حليماً حيث مكان العفو والحلم. فقد طلب منه السلطان قلاوون على أن يستصدر منه فتوى بقتل العلماء الذين أفتوا بوجوب حبسه ظلماً، لكن حلم ابن تيمية

---

١ ـ البداية والنهاية ١٤/ ١٣٧ لإبن كثير.
٢ ـ الذيل على طبقات الحنابلة ٢/ ٣٩٤.
٣ ـ العقود الدرية ص ٢٨٨.
٤ ـ البداية والنهاية ١٤/ ١١.

وعفوه منعاه من ذلك، وثقل عليه أن ينتصر لنفسه وقد جعل انتصاره كله للدين فقال للسلطان:

«من آذاني فهو في حل مني، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه. وأنت إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم»[1].

ولقد انبهر بذكائه أهل الشام لقوة حافظته وسرعة إدراكه وبداهته..

قال عنه الذهبي:

«كان يحضر المدارس والمحافل في صغره، ويناظر ويفحم الكبار، ويأتي بما يتحير منه أعيان البلد في العلم، فأفتى وله تسع عشرة سنة، وشرع في الجمع والتأليف في ذلك الوقت»[2] «وأثنى عليه الموافق والمخالف، وسارت بتصانيفه الركبان لعلها بلغت ثلاثمائة مجلدة»[3].

هذا هو قول اهل العلم في ذاك الشيخ، فبم ترد قولهم بذلك؟ أتردّه بقولك: إن أبا حيان مازال يلعنه حتى مات؟[4]، فإن ذلك من افتراءاتك «إذ أن ذلك يلزمك أن تذكر سبب هذا اللعن» وإلا كان ذلك دالاً على أنك تريد النيل من الرجل فقط، لا ترجو من هذا تبيين الحق، وتريد بذلك أن تعلم الناس الطعن به، وحثهم على لعنه، وكم تبوء بذلك إثماً عظيماً، والحساب عند الله لن يكون بعيداً.

فاللعن لا يجوز أبداً، إذ أن رسول الله ﷺ كان يلعن في دعائه بعض القبائل الذين غدروا أصحابه وقتلوا العديد منهم فأنزل الله تعالى (ليس

---

١ ـ العقود الدرية ١٩٥.
٢ ـ العقود الدرية ٤.
٣ ـ تذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٧٦ ط حيدر أباد ١٩٥٨.
٤ ـ الدليل القويم ص ٣٩.

لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون)[1] وهؤلاء كفار. . فكيف برجل ذب عن الكتاب والسنة وبيّن للناس حقيقة اسلافك من الذين أمضوا حياتهم في محاولة إذابة الدين بفلسفات الاغريق، فقال الذهبي فيه قولته المشهورة: «كأن السنّة نصب عليه».

واذا أردت معرفة حكم اللعن واللعانين فما عليك إلا أن تنظر إلى ما ذكر الحافظ ابن عساكر في ذم ذلك[2] لتعلم إن كان لعنك لابن تيمية حقاً أم لا.

وقد روى ابوالدرداء عن رسول الله ﷺ انه قال: «إن العبد إذا لعن شيئاً صعدت اللعنة إلى السماء فتغلق أبواب السماء دونها ثم تهبط إلى الأرض فتغلق أبوابها دونها ثم تأخذ يميناً وشمالاً، فإن لم تجد مساغاً رجعت إلى قائلها»[3] فاحرص أن لا يصيبك ما قذفت!.

وقال عليه الصلاة والسلام: «إني لم أُبعث لعاناً، وإنما بعثت رحمة»[4].

وقال ﷺ: «لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة»[5].

وقوله فيما رواه الترمذي «لا يكون المؤمن لعاناً»[6].

فكيف تكون عالماً (بالحديث) وتنسى تلك الاحاديث الواردة في ذم

---

١ - آل عمران ١٢٨.
٢ - تبيين كذب المفتري ٤١٧ - ٤١٨.
٣ - رواه أبو داود وإسناده ضعيف.
٤ - أخرجه مسلم (٢٥٩٩).
٥ - أخرجه مسلم (٢٥٩٨).
٦ - أخرجه أحمد ١/ ٤١٦، والبخاري في (الأدب المفرد) ٣١٢ والحاكم في المستدرك ١/ ١٢ وقال على صحيح الشيخين ووافقه الذهبي.

اللعن واللعانين أم أن شهوتك فى قذف الرجل قد أنست عنك كل شيء؟

إن اتخاذ هذا الاسلوب لا يدل على موضوعية ما في الكتاب، بل ولا يدل على غاية علمية، وانما يدل على تحيز وجاهلية عمياء وعلى حقد، وكل هذا يحجب المرء عن الغاية من بحثه، حتى يقصر غايته على اللعن والشتم.

وما كان ابن تيمية يستعمل هذا النوع من الاسلوب، بل عرف عنه أنه كان منصفاً ومعتدلاً في كتاباته رغم ردوده على أشد الفرق كفراً «وزندقة». ولم يعرف عنه أنه لعن أو شتم أحداً بعينه، لأنه كان يأمل رجوع اولئك الفرق عما كانوا عليه.

فمن نقل عن أحد كأبي حيان أو غيره أنه لعن ابن تيمية فليذكر السبب وإلا فهو مدلس وصاحب هوى، وما الله بغافل عن ذلك شيئاً، ولا مفر من الحساب عنده يوم الحساب.

الرد على مايقول الحبشي في ابي حنيفة رضي الله عنه

أراد الحبشي ان يستدل على إباحة علم الكلام - المسمى عنده بالتوحيد - فحكى عن أبي حنيفة أنه كان من المتكلمين، وخلط في ذلك بين الكلام في الفقه وبين الكلام والجدل في الله وفي أسمائه فقال:

«فإنه رضى الله عنه وصاحباه أول من تكلم في أصول الدين. . . وبلغ في الكلام - أي علم التوحيد[1] - الى أنه كان المشار إليه بين الأنام»[2]

يريد بذلك أن أبا حنيفة رضي الله عنه كان متكلماً في الله وصفاته - تأويلها وحملها على محامل الظن والتخمين وتعطيلها كحالة غيره اليوم - ويسمي هذا النوع من الكلام «توحيد» فيُدخل الجدل في الدين من أصله ويجعله باباً من أبوابه.

لقد كان الامام ابوحنيفة نابغةً وغاية في الذكاء، قويا في حجته، فاراد أن يطلب العلم بعدما نصحه الناس بذلك لما استرعى ذكاؤه

١ - أنظروا كيف يسمي علم الكلام الذي ذمه سائر الأئمة «توحيداً»، إذ أنه أدخل الجدل في باب معرفة الله وصفاته وجعله التوحيد الأسمى، مع أن الله ذم الجدل في كتابه، وبين رسوله أن الجدل علامة على الضلال والانحراف عن طريق الهدى فقال: «ماضل قوم بعد هدىً كانوا عليه إلا أوتوا الجدل، فكيف يكون الجدال توحيداً» ؟.

٢ - الدليل القويم ص ٤.

انظارهم، وكاد أن يتجه الى الكلام لولا أن بعض أصحابه قد نهوه عنه وحذروه منه، وحرضوه على تعلم الفقة وفي هذا قصة طويلة نذكر منها مايلي: قال ابوحنيفة: «لما أردت طلب العلم جعلت أتخير العلوم وأسأل عن عواقبها، فقيل لي: تعلم القرآن، فجعل يسألهم بعد ذلك عن الحديث، ثم سألهم عن النحو، وعن الشعر، حتى سألهم عن الكلام فقال: «فإن نظرات في الكلام ما يكون آخره؟ قالوا: لايسلم من نظر في الكلام من مشنعات الكلام، فيُرمى بالزندقة، فسألتهم عن الفقه قائلاً: فإن تعلمت الفقة؟ قالوا: تسأل وتفتي الناس وتُطلب للقضاء، وإن كنت شاباً. قلت: ليس في العلوم شيء أنفع من هذا، فلزمت الفقه وتعلمته»[1].

وهناك رواية أخرى ينقلها لنا يحيى بن شيبان عن أبي حنيفة أنه يقول: «كنت رجلاً أعطيت جدلاً في الكلام، فمضى دهر اتردد فيه، وبه أخاصم، وكنت اعد الكلام من أفضل العلوم، وكنت أقول هذا الكلام في أصل الدين، فراجعت نفسي وتدبرت فقلت إن المتقدمين من أصحاب النبي ﷺ والتابعين، لم يكن ليفوتهم شيء مما ندركه نحن، وكانوا عليه أقدر. وبه أعرف، واعلم بحقائق الأمور، ثم لم ينتصبوا فيه منازعين ولامجادلين، ولم يخوضوا فيه، بل أمسكوا عن ذلك، ونهوعنه أشد النهي، ورأيت خوضهم في الشرائع وأبواب الفقه وكلامهم فيه: إليه تجالسوا، وعليه تحاضوا، كانوا يعلمونه الناس... الى أن قال: «فلما ظهر لي من أمورهم هذا الذي وصفت، تركت المنازعة والمجادلة والخوض في الكلام واكتفيت بمعرفته. ورجعت الى ماكان عليه السلف وجالست اهل المعرفة» نقف هنا لنركز على شيء واحد، وهو أنه رضي الله عنه إلتزم بترك الخوض

---

١ - سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٩٥ - ٣٩٦، تاريخ بغداد ١٣/ ٣٣١ - ٣٣٢ الأئمة الأربعة (مصطفى الشكعة) ص ١١.

في الكلام فور تنبهه الى أن السلف ما اتخذوه طريقاً لهم، مع مقدرتهم على ذلك، وبراعتهم فيه لو انهم فعلوا، فعلم أن الحد هو ماوقف عنده السلف، لذا تراه قد وقف عند الذي وقفوا عنده، وليس السبب فقط في أنهم لم يفعلوه، بل لأنهم نهوا عن الكلام والخوض فيه.

ونتابع معه في تتمة الفقرة الأولى شعوره نحو الكلام وأهله فيقول: «وإني رأيت من ينتحل الكلام ويجادل فيه، قوم ليس سيماهم سيما المتقدمين ولامنهاجهم منهاج الصالحين، رأيتهم قاسيةً قلوبهم، غليظة أفئدتهم، لايبالون مخالفة الكتاب والسنة والسلف الصالح، ولم يكن لهم ورع ولا تقى»[1] ا هـ.

وليس هذا شعوره وحده، بل هو شعور كل مؤمن حريص على إجلال الكتاب والسنة والسلف، هكذا شعورهم مع كل من أدخل الجدل في الدين وزعم بأنه علم في التوحيد، مستورداً إياه من مدارس الاغريق وفلاسفة اليونان الذين ماتوا ولم يتذوقوا طعم التوحيد. ليصبه في الدين ويصهره فيه وما هو بصاهره !!

نهي ابي حنيفة عن الكلام

لقد عرف عن الإمام ابي حنيفة رحمه الله، أنه كان كثير الفكر، طويل الصمت قليل الكلام، تلك هي صفاته ممن عرفه، بل ومن أقرب الناس إليه قال فيه حماد بن أبي حنيفة (ابنه). . كان لايتكلم إلا جواباً»[2]

---

١ ـ تاريخ المذاهب الإسلامية ٢/ ١٣٣ ـ ١٣٤ لأبي زهرة، الأئمة الأربعة ص ١٢.
٢ ـ سير اعلام النبلاء للذهبي ٦/ ٣٩٩ ـ ٤٠٠.

وجاء في كتاب الانتقاء لإبن عبر البر: «حدثنا أبو الشريك محمد بن الحسن الطرابلسي قال: حدثنا محمد بن عوف الحمصي، قال حدثنا الهيثم بن جميل قال سمعت شريكاً النخعي (القاضي) يقول: «كان أبو حنيفة رحمه الله طويل الصمت، دائم الفكر، قليل المجادلة للناس»[1]

وقال ابن البزازي: « ولما اتجه الى الفقة والحديث بقلبه وعقله وبكله، كان على بيّنة من الأمر، وبصر بالحقائق، ومع انه ابتدأ حياته متكلماً، كان ينهي اصحابه وبنيه عن ان يجادلوا فيه، ورأى في كبره ابنه حماداً يناظر في الكلام فنهاه»[2] بل إن ابا حنيفة لعن أول من خاض في الكلام وسن هذه السنة السيئة فقال: «لعن الله عمرو بن عبيد ، فإنه فتح للناس الطريق الى الكلام»[3]. وهذا مما حدا بأبي يوسف ـ صاحب ابي حنيفة ـ أن يقول:

«من طلب الدين بالكلام تزندق»[4] قالها وهو أقرب الناس الى ابي حنيفة وأعلم الناس بالعلم الذي يسلكه.

وقال ابوحنيفة: «الناظر في القدر كالناظر في شعاع الشمس، كلما ازداد نظراً ازداد حيرة»

وعن ابراهيم بن رستم (المروزى) عن . . .[5]قال : قلت لأبي حنيفة: ماتقول فيما أحدث الناس من الكلام في الأعراض والاجسام؟

---

١ ـ سير اعلام النبلاء ٦/٤٠٠، تاريخ بغداد ١٣/٣٣٩ ـ ٣٤٠، الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء (لإبن عبد البر) ص ١٣١.
٢ ـ مناقب أبي حنيفة، لإبن البزازي ١/ ١١١، تاريخ المذاهب الإسلامية ٢/ ١٣٤.
٣ ـ صون المنطق ص ٦٠.
٤ ـ تبيين كذب المفتري لإبن عساكر ٣٣٣، تأويل مختلف الحديث لإبن قتيبة ٤٣، صون المنطق للسيوطي ٦٠، شرف أصحاب الحديث للبغدادي ص ٤.
٥ ـ لم يمكن قراءتها من الأصل.

فقال: مقالات الفلاسفة[1] عليك بالأثر، وطريقة السلف، وإياك وكل محدثة فانها بدعة»[2].

فعلى القائلين بأن الكلام هو طريقة ابي حنيفة، وهم يحتجون بذلك، أن يعيدوا النظر في هذا، ويأخذوا الجانب الآخر من حياته، فيتركوا ماترك بعد اعترافه بأنه كان مخطئاً في ابتدائه بعلم الكلام

وكيف لايرجع ابو حنيفة عن خطئه، وهو الذي يقول: «إننا نقول القول اليوم ونرجع عنه غدا».

أي انه لايتمسك بخطأ أبداً، ولايقول اليوم قولاً باطلاً يتمسك به غداً، بل إنه غاية في تجنب الباطل وتحري الحق ـ فهل يحتذي الحبشي هذا الحذو؟

---

١ ـ وهذا يصدق ما نقوله من أن علم الكلام مأخوذ من مقالات الفلاسفة.
٢ ـ صون المنطق ص ٣٢، ذم الكلام للهروي، الانتصار لأهل الحديث.

ذم الكلام وأهله

قال تعالى: (الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم) [غافر ٣٥]

وقال سبحانة: (ماضربوه لك إلا جدلاً) [الزخرف ٥٨]

وقل جل شأنه: (وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم) [الانعام ١٢١]

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «تلا رسول الله ﷺ (هو الذي انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) حتى بلغ (وما يذكر إلا أولو الألباب) فقال رسول الله ﷺ : «إذا رأيتم الذين يتبعون ماتشابه منه، فأولئك الذين سمّى الله فاحذروهم». (١)

وخرج رسول الله ﷺ يوماً على أصحابه وهم يقولون: «ألم يقل الله كذا وكذا، يرد بعضهم على بعض، فكأنما فقىء في وجهه حب الرمان، فقال: «إنما أفسد على الأمم هذا، فلا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض،

---

١ ـ أخرجه مسلم ح (٢٦٦٥) والبخاري ح (٤٥٤٧) وأبو داود ح (٤٥٩٨) والترمذي ح (٢٩٩٤) وقال حديث حسن صحيح، وابن ماجة بدون واسطة بين أبي مليكة وعائشة ح (٤٧) ومجمع الزوائد ١/ ١٥٦. وابن جرير ٣/ ١٢٠.

فان ذلك يوقع الشك في قلوبكم[1]

وعنه ﷺ أنه قال: « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل، ثم قرأ (ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون)» .[2] وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة.[3]

وعن عبدالله بن عمرو قال: « هجّرت[4] إلى رسول الله ﷺ يوماً ، قال فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله ﷺ يُعرف في وجهه الغضب . فقال: «إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب» وفي حديث آخر «إقرؤا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فيه فقوموا»[5].

وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن أبغض الرجال الى الله، الألدّ الخصِم »[6]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ حاكياً عما يكرهه

---

١ - رواه البخاري في خلق أفعال العباد وزاد فيه: (وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً، فلا تضربوا بعضه بعضاً، ما علمتم منه فقولوا ومالا، فكلوه إلى عالمه) ص ٦٣، ورواه الترمذي من أبي هريرة ٦/ ٣٠٦ وابن ماجة ح (٨٥) وقال البوصيري في زوائد ابن ماجة: هذا إسناده صحيح ورجاله ثقات، والفتح الرباني ١/ ١٤٤، والهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٥٦.

٢ - رواه الترمذي ح (٣٢٥٣) وقال حديث حسن صحيح ٩/ ٦ وابن ماجة ح (٤٨) وأخرجه الإمام أحمد ٥/ ٢٥٢ و ٢٥٦ عن أبي أمامة وكذلك الحاكم في مستدركه، وأقره الذهبي.

٣ - ومن ذلك أيضاً قوله عليه الصلاة والسلام: «ذروني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم» وهذا رواه مسلم ح (١٣٣٧).

٤ - هجّرت (بتشديد الجيم) أي بكرت.

٥ - الرواية الأولى في مسلم ح (٢٦٦٧) والأخرى أخرجها الدارمي في سننه ٢/ ٤٤٢ - ٤٤٣.

٦ - أخرجه مسلم ح (٢٦٦٨) والترمذي (٢٩٧٦) والنسائي ٨/ ٢٤٧، وأحمد ٦/ ٦٣ و ٢٠٥ والبخاري (٤٥٢٣).

الله لعباده: «ويكره لكم ثلاثاً: «قيل وقال، وكثرة السؤال وإضاعة المال» وفي رواية: «ونهى عن ثلاث»(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «أخوف ما أخاف عليكم جدال منافق عليم اللسان»(٢).

وعن سليمان بن يسار، أن رجلاً يقال هل صبيغ قدم المدينة، فجعل يسأل عن متشابه القرآن، فأرسل إليه عمر، وقد اعدّ له عراجين النخل، فقال: «من أنت ؟ قال: «أنا عبدالله صبيغ ،فأخذ عرجوناً من تلك العراجين النخل، فقال: «من أنت؟ قال: «أنا عبدالله صبيغ، فأخذ عرجوناً من تلك العراجين فضربه حتى دمى رأسه... وكتب الى أبي موسى الاشعري، أن لايجالسه أحد من المسلمين، فقال: «أما بعد، فإن الأصبغ تكلف ماكفى، وضيع ماولى، فإذا جاء كتابي هذا فلا تبايعوه، وإن مرض فلا تعودوه، وإن مات فلا تشهدوه»(٣)

وروي ابن جرير عن ابن عباس انه قال: «إنما أهلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله».(٤).

ذم الشافعي رحمه الله للكلام

وقد استدل الحبشي على استباحة الكلام والجدل، بكلمة مبهمة لاتفهم معناهاإلا بذكر شيء قبلها أو بعدها فروى عن الشافعي انه قال:

---

١ ـ رواه مسلم ح (٥٩٣) و (١٧١٥) ومالك في الموطأ ح (٢٠)، وأحمد ٢/ ٣٢٧ و ٢/ ٣٦٠.
٢ ـ ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٨٧، وابن حبان في صحيحه ١/ ٢٣٨.
٣ ـ الإصابة في تمييز الصحابة ٥/ ١٦٩، وسنن الدارمى ح (١٤٦) بلفظ يختلف، والآجري في الشريعة (٧٣) وذكره السيوطي في الاتقان في علوم القرآن ٢/٤.
٤ ـ تفسير ابن جرير الطبري ٨/ ٦٥ (المجلد الخامس).

«أحكمنا هذا قبل ذاك».

وقال الحبشي «أي علم التوحيد قبل الفقه»[1] وإن كان قول الشافعي هذا صحيحاً فهو ليس بدليل على جواز وصحة علم الكلام واستحبابه عند الشافعي.

إذ أن علم التوحيد عند الشافعي يختلف عن مقصود الحبشي بكلمة التوحيد، فالتوحيد عند الحبشي هو اختزال صفات الله الواردة في كتاب الله وفي سنة رسوله على ثلاث عشرة صفة فقط منها حوالي الخمسة لم تثبت في كتاب أو سنة وإنما أصلها عند بني الفلاسفة والمتكلمين أرسطو وافلوطين وغيرهما.

والشافعي لم يستدل في مناظرته ومناقشاته على العقيدة الصحيحة بالحادث والجوهر والعرض، مما يدل على انه أحكم علم التوحيد على مذهب السلف لا على مذهب المتكلمين إذ أن الحبشي يعتمد في الدفع والمحاجة بالمركب والحادث والجوهر والعرض والهيولي، وما في كتب الشافعي يخالف هذا الاتجاه. بل إن هناك آثارا كثيرة رويت عن الشافعي تثبت ذمه للكلام ونهيه عنه وتسميته المتكلمين بأنهم زنادقة، وليطمئن الحبشي فإنه لن يجد من آثار الشافعي شيئاً يبيح له الأخذ بعلم الجدل أو ما يسمى (بالكلام).

ولنأخذ مثالا على ذلك، فالحبشي يقول عن صفات الله أنها «ليست هي هو ولا هو هي» مما يدل على التناقض في هذا الكلام، وكأنه يقول بذلك ما يوافق به المعتزلة وهو أن هناك منزلة بين المنزلتين، مع أنه يبغض المعتزلة بغضاً شديداً، وهو يعني بذلك أن الأسماء ليست هي الله ولا هي

---

١ ـ الدليل القويم ٣ ـ مع أن الله تعالى قال: «ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها.

غيره، وهذا نوع من العبث في الالفاظ وسيأتي بيانه مفصلا، وقد قال الشافعي في هذا النوع من العبث: «إذا سمعت الرجل يقول الاسم غير المسمى فاشهد عليه بالزندقة»[1].

فلم يكن الشافعي ليتكلم بالكلام المستورد من عند شرذمة من الفلاسفة، لأن اكتفاءه بالكتاب والسنة يغنيه على استيراد طريقة ما غير طريقهما ولو كان فيها الذب عنهما.

وعن يونس بن عبد الاعلى ان الشافعي قال: لأن يُبتلى المرء بما نهى الله عنه ـ خلا الشرك ـ خير له من أن يبتليه بالكلام».[2]

وأخرج من طريق ابي داود وابي ثور قالا: «سمعنا الشافعي يقول:

«حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد، ويحملوا على الابل، ويطاف بهم في العشائر والقبائل، وينادى عليهم: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام».[3]

وقال كذلك: «حكمي في أهل الكلام، حكم عمر في صبيغ..
قال السيوطي تعليقا على قوله: «دل ذلك منه على تحريم النظر في علم الكلام ما يخشى منه إثارة الشبهة[4]

وكذلك قوله: ما ارتد احد بالكلام فأفلح[5]

---

١ ـ ذكره البيهقي في الاعتقاد ص ٢٠، وابن الجوزي في التلبيس ٨٢، وابن عبد البر في الانتقاء ٧٩، والسيوطي في صون المنطق ٣١.

٢ ـ أخرجه ابن أبي حاتم في آداب ومناقب الشافعي ٨٢ و١٨٦، وتبيين كذب المفتري ٣٣٥ و٣٣٧، وابن عبد البر في الانتقاء ٧٨، والبداية ١٠/٢٨١، وجامع بيان العلم وفضله ٢/٩٥ وصون المنطق ٦٦، والسنن الكبرى ١٠/٢٠٦ والحلية ١١٢ والتوالي ٦٤ وتاريخ الإسلام ٣٦.

٣ ـ تلبيس ابليس ٨٢ ـ ٨٣، وأبو نعيم في الحلية ٩/ ١١٦، وصون المنطق ٦٥، والانتقاء ٨٠.

٤ ـ صون المنطق ١٩.

٥ ـ رواه ابن بطة ١/ ٥٤، وابن أبي حاتم في آداب الشافعي ١٨٦، وتبيين كذب المفتري ٣٣٥، ٣٤٥، وصون المنطق ٦٤.

ثم بين سوء عاقبة الجدل والمراء فقال: «المراء في الدين يقسي القلب»(١)

وكذلك حكى عنه اسماعيل بن يحيى المزني انه كان ينهى عن الخوض في الكلام(٢)

«وكذا قال الحسن بن عبدالعزيز الجروى أن الشافعي كان ينهى النهي الشديد عن الكلام»(٣) وحكى الربيع أن رجلا كلم الشافعي، فطالت مناظرته إياه، فخرج الرجل الى شيء من الكلام فقال له الشافعي: «دع هذا فإن هذا من الكلام»(٤) وعلم عنه كذلك انه قال: «ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم الى لسان ارسطاطا ليس».(٥)

هذه بعض آثار الشافعي رحمه الله، والتي دلت ـ بصريح المنقول لا بمبهمه ـ على أن الشافعي كان ينهى النهي الشديد عن الكلام ويرى أنه من أسوأ ما يبتلي العبد به ـ عدا الشرك ـ والسعيد من اتعظ به واقتدى بسيرته، والشقي من أعرض عنه وآثر المكابرة.

---

١ ـ أبو نعيم في الحلية ٩/ ١١١ ـ ١١٢ والذهبي في العلو.

٢ ـ مفتاح دار السعادة ٥٦٧ والشذرات ٢/ ٩، والانتقاء ٨٠ وصون المنطق ٦٤، ٦٥، ٦٦، وآداب الشافعي ١٨٨، وانظر تبيين كذب المفتري (٣٤٥ ـ ٣٤٨) كلام للبيهقي عن أسباب ذلك.

٣ ـ تبيين كذب المفتري ٣٣٨، وصون المنطق ١١٩ وطبقات السبكي ١/ ٢٤١ والحلية ٩/ ١١٣ والآداب الشرعية ١/ ٢٢٥ ومناقب الفخر ٣٤ والجوهر اللماع ٤٥. وآداب الشافعي ومناقبه ١٨٥ لإبن ابي حاتم.

٤ ـ تبيين كذب المفتري ٣٣٨، صون المنطق ٦٦ من طريق ابن أبي حاتم، وآداب ومناقب الشافعي ١٨٥ والتوالي ٦٤.

٥ ـ أورد هذا النص قاضي المسلمين الحافظ عز الدين ابن قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة في تذكرته.

ذم الامام ابي حنيفة رحمه الله للكلام

ولم يسلم كذلك ابوحنيفة من افتراءات بعض المتكلمين الذين أرادوا به استباحة علم «ارسطو وافلاطون» أي علم الجدل المسمى زورا بـ «التوحيد» وقد ذكرنا ذلك في فصل خاص بأبي حنيفة وبينا أنه كان فصيح اللسان، قوي الحجة لا يقوى مخاصموه على الوقوف أمامه لمناظرته إلا كان في ذلك ردا لهم.

لكنه ما استعان يوما بأنبياء الفلاسفة والمتكلمين (ارسطو وافلوطين وفيثاغورس) ليجعل من سفسطائيتهم حجة ينتصر بها للاسلام. ثم إنه أعرض عن هذا واشتغل بالفقه وألزم نفسه به طيلة حياته.

ونورد من الأمثلة الدالة على ذمه لعلم الكلام ما نسد به ذريعة المتكلمين الذين يجاهدون ويجتهدون ويبذلون الغالي والرخيص في سبيل تحقيق أمنيتهم في إدخال فلسفات اليونان الى دين الاسلام.

سئل أبوحنيفة رضي الله عنه: «ماتقول فيما أحدث الناس من الكلام في الاعراض والاجسام؟» فقال: «مقالات الفلاسفة، عليك بالأثر وطريقة السلف وإياك وكل محدثة فإنها بدعة.[1]».

---

١ - قال السيوطي: أخرجه أبو المظفر السمعاني في كتاب الإنتصار قال: أخبرنا الثقة من أصحابنا. أخبرنا الشيخ أبوعبدالرحمن السلمي، أخبرنا أبوالقاسم بن متويه به. وقال الهروي في ذم الكلام: «أخبرني طيب بن أحمد. أنا محمد بن الحسين. أنا أبوالقاسم بن متويه، ثنا حامد بن رستم ثنا الحسن بن مطيع ثنا ابراهيم بن رستم». صون المنطق والكلام ٣٢.

وكلام أبي حنيفة هذا صريح في ذم العلوم الفلسفية.

وأخرج الهروي في ذم الكلام عن محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة قال: قال أبوحنيفة: لعن الله عمرو بن عبيد فإنه فتح للناس الطريق الى الكلام فيما لايعنيهم من الكلام(١)

وكذلك أخرج الهروي عن أبي يوسف (القاضي) صاحب أبي حنيفة قال: «من طلب الدين بالكلام تزندق»(٢) وقد روى ابن عبدالبر عن الحسن بن زياد أنه قال: «ما ادركت مشيختنا زفر وأبا يوسف وأبا حنيفة، ومن جالسنا وأخذنا عنهم، يهمهم غير الفقه والاقتداء بمن تقدمهم» (جامع بيان العلم ٢/٥٩)

ذم الامام احمد بن حنبل (رضي الله عنه) للكلام

روى ابن الجوزي عن الامام احمد أنه قال: «لا يفلح صاحب كلام أبداً، علماء الكلام زنادقة»(٣)

وكذلك روى عنه أنه قال: «لست بصاحب كلام، ولا أرى الكلام في شيء من هذا إلا ما كان من كتاب الله أو سنة رسوله أو عن أصحابه»(٤)

---

١ ـ صون المنطق والكلام ٦٠.

٢ ـ ذم الكلام للهروي ٦/١٠٤/١، وتأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ٤٣ . وتبين كذب المفتري لابن عساكر ٣٣٣، وشرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي ص ٤ وصون المنطق والكلام ٦٠، وكذلك أخرجه الهروي عن مالك مثله ٥/٩٤/٢ .

٣ ـ تلبيس ابليس لابن الجوزي ٨٣، صون المنطق ١٢٨ .

٤ ـ مناقب الإمام أحمد ١٥٦ وترجمة الإمام أحمد ضمن (سلسلة اعلام المسلمين ط دار القلم) ص ١٢٣ . هذا المقطع آخر رسالة للإمام أحمد كتبها لعبيد الله بن يحيى، وقد قال الذهبي فيها: رواة هذه الرسالة عن أحد أئمة إثبات، أشهد بالله أنه أملاها على ولده. (أنظر ترجمة أحمد للحافظ الذهبي منقولة من تاريخه في مقدمة المسند ط دار المعارف ١٢٤/١

وكذلك قال: «لا تجالسوا أهل الكلام، وإن ذبوا عن السنة»

ثم ذكر ابن الجوزي أن الامام احمد بن حنبل هجر الحارث بن أسد المحاسبي - وكان من أهل العلم - برده على المبتدعة بعلم الكلام، وقال له: «ليس السنة أن ترد عليهم، ولا يناظرون، إنما السنة أن يُخبروا بالآثار والسنن، فإن قبلوها، وإلا هجروا في الله»

وكذلك هجر أبا ثور لما تكلم بجواب المبتدعة في رد الصفات حين سئل عن الحديث: «إن الله خلق آدم على صورته»، فغضب أحمد فرجع عن ذلك أبو ثور واعتذر»[1].

وروى ابن الجوزي في المناقب أن الامام احمد كان ينشد أبياتاً من الشعر وهو في سجن المحنة[2]

ولم يحمد الله الجدال وأهله ... وكان رسول الله عن ذاك يزجر
وسنتنا ترك الكلام وأهله ... ومن دينه تشديقه والتقعر
تفرغ قوم للجدال واغلقوا ... طريق التقى حتى غلا المتهور[3]

وقد ذم الامام أحمد طريقة المتكلمين وأدلتهم وأساليبهم في اتخاذ العوام من الناس سلاحا لهم، وتلبيس دين الله عليهم، وخداعهم لهم بما يلبسون عليهم فقال عن المتكلمين بأنهم:

«هم مخالفون لكتاب الله، مختلفون في الكتاب، متفقون على مخالفة

---

١ - مناقب الإمام أحمد (لابن الجوزي) ص١٨٦، وصون المنطق للسيوطي ١٣١ - ١٣٢، وطبقات الشافعية ٢٧٨/٢

٢ - هذه الأبيات لم تكن منسوبة للإمام أحمد وإنما هي منسوبة لإسماعيل بن فلان الترمذي لكن الإمام أحمد كان ينشدها مع أنه لم يكن صاحبها كما ذكر ذلك ابن الجوزي.

٣ - مناقب الإمام أحمد، ص٤٢٦

الكتاب، يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدعون جهال الناس بما يلبسون عليهم»(١)

ولا عجب أن يقول ابن الجوزي بعد هذا كله:

«إعلم أن من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه، وإذا أراد الله بعبد شراً ابتلاه بالجدل، وإذا أراد الله بعبد خيراً ابتلاه بالعمل». . وقال: «وليس على المرء أضر من الخوض في ذات الله وصفاته»(٢)

وروى ابن الجوزي عن احمد أنه قال: «ولا تخاصم أحدا، ولا تناظره، ولا تتعلم الجدال فإن الكلام في القدر والرؤية والقرآن وغيرها من السنن مكروه منهى عنه، لا يكون صاحبه - وإن أصاب بكلامه - من أهل السنة، حتى يدع الجدال ويؤمن بالآثار»(٣).

وقال: الذي كنا نسمع، وادركنا عليه من أدركنا، أنهم كانوا يكرهون الكلام، والجلوس مع أهل الزيغ، وإنما الأمر في التسليم، والانتهاء الى ما في كتاب الله، لاتعد ذلك (أي لا تتعداه الى غير ذلك)(٤)

وكان يكره الكلام ويمنع منه، ويغضب لسماعه ويأمر باتباع الأثر، ويقرأ (وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال)(٥) [الرعد ١٣].

---

١ - مجموعة شذرات البلاتين ص ٤ بتحقيق محمد حامد الفقي وكذلك من كتاب الرد على الجهمية والزنادقة ص ٣ (المقدمة).
٢ - مجالس ابن الجوزي ص ١١ تحقيق جهاد عيسى البنا
٣ - مناقب أحمد لابن الجوزي ١٧٢ وكذلك ذكر نهي الإمام أحمد عن الجدال والمراء في الدين ص ١٧٦ وكذلك شرح أصول السنن للالكائي ١/ ١٥٧.
٤ - ترجمة الذهبي للإمام أحمد في مقدمة المسند، ترجمة الإمام أحمد (ضمن سير اعلام المسلمين) ص ١٢٣
٥ - مناقب الإمام أحمد ١٢٤، ترجمة الإمام أحمد في مقدمةالمسند ٨٥، طبقات الحنابلة ٢/ ٢٧٠ .

ذم مالك رحمه الله للكلام

رحمه الله تعالى، لقد علم ما عليه المجادلون والمتكلمون من كثرة التقلب في الرأي والتنقل من قول الى آخر، فقال قولته المأثورة: «أرأيت إن جاء من هو أجدل منه، أيدع دينه كل يوم «لدين جديد؟»[1]

وفي هذا تصديق لقول الامام الزاهد عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه: «من جعل دينه عرضا للخصومات أكثر التنقل».[2] ويرد قوله هذا زعم الحبشي بأنه كان من متكلمي أهل السنة كما جاء هذا في كتابه «الدليل القويم»ص ١٦٦ وكأنه لا فرق عنده بين عمر بن عبد العزيز وبين ابن سينا وابن رشد وغيرهما.

وقال الهيثم بن جميل: «قلت لمالك بن أنس: يا أبا عبدالله، الرجل يكون عالما بالسنة، أيجادل عنها؟ قال: لا، ولكن يُخبر بالسنة، فإن قبلت منه، وإلا سكت»[3]

وعن عبدالله بن الزبيري قال: «كان مالك بن أنس يقول: «الكلام في الدين أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه.. لا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل، فأما الكلام في دين الله، وفي الله، فالسكوت أحب إليّ»[4]

---

١ ـ جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٩٥، واللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة ٢/ ٣٧ وصون المنطق ١٢٠، وشرف أصحاب الحديث ٥ والهروي في ذم الكلام ٢/ ٩٤ والدارمي ١/ ٩٦.

٢ ـ جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٩٣، تأويل مختلف الحديث ص ٤٤ (ابن قتيبة) والإنتقاء (ابن عبدالبر) ٣٣ وإحياء علوم الدين ٣/ ١١٧ والدارمي في سننه ١/ ٩٤ والأجري في الشريعة٥٦ ـ ٥٧، والبغوي في شرح السنة ١/ ٢١٧

٣ ـ جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٩٤، صون المنطق ١٣٤

٤ ـ جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٩٥

وأخرج الهروي من طريق عبدالرحمن بن مهدي (البصري) قال: دخلت على مالك وعنده رجل يسأله فقال: «لعلك من اصحاب عمرو بن عبيد، لعن الله عمرواً، فانه ابتدع هذه البدع من الكلام، ولو كان الكلام علماً لتكلم به الصحابة والتابعون كما تكلموا في الاحكام والشرائع[1]

وأخرج الهروي عن مالك: قال: إياكم والبدع، قيل يا أبا عبدالله وما البدع؟ قال: أهل البدع الذين يتكلمون في اسماء الله وصفاته، وكلامه وعلمه وقدرته، ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم»[2]

ذم عامة الأئمة للكلام

وأخرج الهروي عن الاوزاعي رحمه الله قال: «عليك بآثار السلف، وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوها لك بالقول[3].

وقال رجل لابن عمر: «أرأيت. . أرأيت، قال: إجعل «أرأيت» في اليمن، إنما هي السنن». [4]

قال الزركشي: ولهذا نهى السلف عن الكلام في ذات الله تعالى، لأن كثرة النظر في ذلك تسقط مهابة الرب من القلب[5]، قلت، أما والله فقد صدق، إذ أن متكلمي اليوم قد تبلد احساسهم عن استشعار هذه العظمة، فقاسوا الله بمقاييس أضل البشر (وهم الفلاسفة) فأدت بهم هذه المقاييس الى ضرب الكتاب بعضه ببعض، وضربه بالسنن، وضرب

---

١ ـ صون المنطق والكلام ٣٣

٢ ـ صون المنطق والكلام ٥٦ ـ ٥٧

٣ ـ صون المنطق والكلام ٣٨، وشرف أصحاب الحديث ص ٧

٤ ـ رواه ابن بطة في الإبانة الكبرى ٢/١٧٣، والهروي في ذم الكلام ١/٣٧

٥ ـ إعلام الساجد بأحكام المساجد ١٣٠، ورواه السيوطي عن الجنيد وغيره بلفظ يشابهه ٤٤ و٤٧، علاقة الإثبات والتفويض ١١١

السنن ببعضها فاستقبلوا آيات وأحاديث وطردوا (بدعوى التنزيه) آيات وأحاديث، وأصبحت العقيدة عندهم عبارة عن معادلات حسابية، فودع التقوى قلوبهم وحلت مكانه شياطين فلاسفتهم.

وقال الذهبي: «فإن علم الكلام مولد من الحكماء الدهرية، فمن أراد الجمع بين علم الانبياء وبين علم الفلاسفة بذكائه، لابد وأن يخالف هؤلاء وهؤلاء»(١)

وقال ابن عباس رضي الله عنه: «إياكم والرأي، فإن الله رد على الملائكة الرأي، قال: (إني أعلم مالا تعلمون) [البقرة ٣٠] وعن الحسن أنه تلا: (خلقتني من نارٍ، وخلقته من طين) [ص ٧٦] وقال: قاس إبليس، وهو أول من قاس».(٢)

وقال الحارث بن أسد المحاسبي: «والمراء، ترك السنة، لأن النبي ﷺ نهى بسنته عن الجدال» وقال: «ثم هو في نفسه ﷺ قد بعث الى جميع الأديان، فما جادلهم إلا بما تلي عليه من التنزيل، ولو شاء كلمهم بالمقاييس ودقيق الكلام»(٣).

وقال ابوطالب المكي: «ثم ظهرت بعد سنة مايتين، مصنفات الكلام، وكتب المتكلمين بالرأي والهوى والمعقول والقياس».(٤).

وقال الخطابي: ولما رأوا (المتكلمون) كتاب الله تعالى ينطق بخلاف ما انتحلوه، ويشهد عليهم بباطل ما اعتقدوه، ضربوا بعض آياته ببعض،

---

١ ـ صون المنطق للسيوطي ١٩
٢ ـ صون المنطق للسيوطي ٤٠ و ٤٤
٣ ـ كتاب الرعاية للمحاسبي، ورواه عنه الهروي في ذم الكلام، صون المنطق ٨٤ ـ ٨٥
٤ ـ قوت القلوب ٢/٣٧، صون المنطق ١٢٧

وتأولوها على ما سنح لهم في عقولهم، واستوى عندهم على ما وضعوه من أصولهم». [1]

وروى ابن الجوزي عن ابن عقيل انه قال: «أنا أقطع بأن الصحابة ماتوا، وما عرفوا الجوهر والعرض، فإن رضيت أن تكون مثلهم فكن، وإن رأيت ان طريقة المتكلمين أولى من طريقة ابي بكر وعمر فبئس ما رأيت» ثم قال: «وقد أفضى الكلام بأهله الى الشكوك، وكثير منهم الى الالحاد، تشم روائح الالحاد من فلتات كلام المتكلمين»[2]

وقال إبن رجب الحنبلي رحمه الله: «فمن عرف قدر السلف عرف أن سكوتهم عما سكتوا عنه من ضروب الكلام وكثرة الجدال والخصام والزيادة في البيان على مقدار الحاجة لم يكن عياً وجهلاً، وإنما كان ورعا وخشية لله، واشتغالا عن ما لا ينفع بما ينفع[3].

وصية الجويني بالامساك عن الكلام

وذكر ابن الجوزي عن الامام الجويني رحمه الله أنه قال لأصحابه: «يا أصحابنا، لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت ان الكلام يبلغ بي ما بلغ ماتشاغلت به». [4]

ثم قال ابن الجوزي: «ومنهم من نفره ابليس عن التقليد، وحسّن له الخوض في علم الكلام والنظر في اوضاع الفلاسفة وقد تنوعت احوال

---

١ ـ صون المنطق ٩٣ عن كتاب الغنية عن الكلام للخطابي.
٢ ـ تلبيس إبليس ٨٥
٣ ـ فضل علم السلف على علم الخلف ص ٧٧
٤ ـ تلبيس إبليس «لابن الجوزي» ٨٥ ، وصون المنطق والكلام للسيوطي ١٨٤ ، وطبقات الشافعية للسبكي ٣ / ٢٦٠

المتكلمين، وافضى الكلام بأكثرهم الى الشكوك، وببعضهم الى الالحاد، ولم يسكت القدماء من فقهاء هذه الأمة عن الكلام عجزا، ولكنهم رأوا أنه لا يشفي غليلا.. فأمسكوا عنه ونهوا عن الخوض فيه»(١)

وقال: «وقد رأينا من المتفلسفة من أمتنا جماعة لم يكسبهم التفلسف إلا التحيّر»(٢).

وقال ابن عبدالبر رحمه الله: «نهى السلف رحمهم الله عن الجدال في الله عز وجل في صفاته واسمائه»(٣)

ثم ذكر حديث النبي ﷺ: «لاتقوم الساعة حتى تكون خصومات الناس في ربهم».

وقال الخطيب البغدادي: «وكل فئة تتحيز الى هوى ترجع اليه، وتستحسن رأيا تعكف عليه سوى أصحاب الحديث، فإن الكتاب عدتهم، والسنة حجتهم.. لايعرجون على الآراء، ولا يلتفتون الى الأهواء»(٤)

فدع عنك آراء الرجال وقولهم ... فقول رسول الله أزكى وأشرف

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنه سيأتي أناس يأخذونكم بشبهات القرآن، فخذوهم بالسنن فإن أهل السنن اعلم بكتاب الله»(٥)

أهل الكلام دعونا من تعسفكم ... كم ابتغيتم لدين الله تبديلا
ما أحدث الناس في أديانهم حدثا ... إلا جعلتم له وجهاً وتأويلاً

---

١ - تلبيس إبليس ٨٢
٢ - تلبيس إبليس ٤٩
٣ - جامع بيان العلم وفضله ٢/٩٢، صون المنطق والكلام ١٣٣.
٤ - شرف أصحاب الحديث ص ٩ ط دار إحياء السنة النبوية، صون المنطق ١٤٥
٥ - أخرجه الدارمي في سننه ح (١٢١) والآجري في الشريعة ١/٤٨ و٥٢ وصون المنطق ١٥٠

وقال السبكي: «وليس على العقائد أضر من شيئين:

١ ـ علم الكلام

٢ ـ والحكمة اليونانية»[١]

وحكى ابن خلدون في مقدمته عن مقدمات علم الكلام فقال: «إن كثيرا منها مقتبس من كلام الفلاسفة في الطبيعيات والالهيات.. ثم قال: «ثم إلتبست مسائل الكلام، بمسائل الفلسفة بحيث لايتميز أحد الفنين عن الآخر».

وقال: «فينبغي أن يُعلم ان هذا العلم الذي هو علم الكلام غير ضروري، لهذا العهد على طالب العلم، والمبتدعة قد انقرضوا، والأئمة من أهل السنة كفونا شأنهم فيما كتبوا ودونوا[٢]

وقيل لعبد الرحمن بن مهدي: «إن فلانا صنف كتاباً يرد فيه على المبتدعة، قال: بأي شيء؟ بالكتاب والسنة؟.. قيل: لا، لكن بعلم المعقول والنظر قال: أخطأ السنة وردّ بدعة ببدعة»[٣]

وعن عبدالله بن مسعود أنه قال: «إتبعوا ولا تبتدعوا فإنكم كفُيتم «قال اللالكائي: فلم نجد في كتاب الله وسنة رسوله وآثار صحابته الا الحث على الاتباع وذم التكلف والاختراع»[٤]

وقال ابن قتيبة: «فأما الكلام فليس من شأننا، ولا أرى اكثر من هلك إلا به»[٥]

---

١ ـ مقدمة السيف الصقيل ص ١٢ .

٢ ـ مقدمة ابن خلدون ٤٦٧ .

٣ ـ صون المنطق والكلام ١٣١ .

٤ ـ صون المنطق والكلام ١٠٩

٥ ـ الاختلاف في اللفظ ص ٢٢٥ ، لإبن قتيبة.

وأخرج الهروي عن ابن عباس انه قال: «لاتضربوا كتاب الله بعضه ببعض، فإن ذلك يوقع الشك في قلوبكم»[1]

وأخرج عن ابن الحنفية والقاضي عياض وابي جعفر محمد بن علي أنهم قالوا: «لاتجالسوا أصحاب الخصومات فإنهم شرار أهل القبلة»[2]

وأخرج الهروي عن علي ابن أبي طالب قال: «يخرج في آخر الزمان أقوام يتكلمون بكلام لا يعرفه أهل الاسلام، ويدعون الناس الى كلامهم، فمن لقيهم فليقاتلهم، فإن قتلهم أجر عند الله»[3]

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «وإن أبغضكم إلى وأبعدكم مني يوم القيامة، الثرثارون والمتشدقون، والمتفيقهون».[4]

وقال مسلم بن يسار: «إياكم والجدال، فإنها ساعة جهل العالم، وفيها يبتغي الشيطان زلته».[5]

وعن محمد بن الحنفية: «لاتقوم الساعة حتى تكون خصومات الناس في ربهم».[6]

وقال ابوقلابة: «إياكم وأصحاب الخصومات، فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم أو يلبسوا عليكم بعض ما تعرفون».[7].

---

١ ـ صون المنطق والكلام ٤٠

٢ ـ أخرجه الدارمي ١/١١٠ ، صون المنطق والكلام ٥٣

٣ ـ صون المنطق ٤٩

٤ ـ رواة الترمذي (٢٠١٩) وإسناده حسن وصححه إبن حبان (١٩١٧) وعن أبي هريرة عند أحمد ٢/٣٦٩.

٥ ـ أخرجه الدارمي ١/١٠٩ ، والآجري في أخلاق العلماء ٦٩ ، والهروي في ذم الكلام ١/٣٧ ،

٦ ـ أخرجه الديلمي كما في الدر المنثور ٥/١٤١ ، وكما في العلل للدار قطني ١/٤٧٧ وهو مرفوع.

٧ ـ رواه الآجري في الشريعة ص ٥٦ ، والهروي في ذم الكلام ١/٩٢ والبيهقي في الاعتقاد ١١٨

قال السمعاني: «هذا وقد تواترت الاخبار أن النبي ﷺ كان يدعو الكفار الى الاسلام والشهادتين قال عليه الصلاة والسلام لمعاذ رضي الله عنه حين بعثه الى اليمن: ادعهم الى شهادة أن لا إله إلا الله. وقال: أمرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، ولم يرو عنه أنه دعاهم الى النظر والاستدلال. وفي ذلك رد على زعم المتكلمة القائلين: أول ما يجب على الانسان النظر المؤدي الى معرفة الباري وهذا قول مخترع لم يسبقهم اليه احد من السلف وأئمة الدين.. ومن قبيح ما يلزمهم اننا اذا بنينا الحق على ما قالوا، وأوجبنا طلب الدين بالطريق الذي ذكروه، وجب من ذلك تكفير العوام بأجمعهم لأنهم لايعرفون إلا الاتباع المجرد، ولو عرض عليهم طريق المتكلمين في معرفة الله تعالى ما عرفه أكثرهم»(١).

وقال الجويني: وكانوا رضي الله عنهم ينهون عن التعرض للغوامق والتعمق للمشكلات.. الى أن قال: وما كانوا ينكفون رضي الله عنهم عما تعرض له المتأخرون عن عي وحصر، وتبلد في القرائح، هيهات! قد كانوا أذكى الخلائق أذهاناً، وأرجحهم بياناً»(٢)

رأي الغزالي في علم الكلام

وقال الغزالي: ثم إني ابتدأت بعلم الكلام فحصلته وعقلته، وطالعت كتب المحققين منهم.. فلم يكن الكلام في حقي كافيا، ولا لدائي الذي كنت أشكو منه شافياً.. الى أن قال: «ولم يكن من كلام المتكلمين إلا كلمات معقدة مبددة، ظاهرة التناقض والفساد»(٣)

= والدارمي ١٠٨/١ واللالكائي ٣٠٣/٢، وشرح السنة للبغوي ٢٢٧/١ والاعتصام للشاطبي ٣٧/١

١ ـ صون المنطق والكلام ١٧١ ـ ١٧٧

٢ ـ غياث الأمم للجويني. تحقيق مصطفى حلمي وفؤاد عبدالمنعم ط: دار الدعوة بالقاهرة.

٣ ـ المنقذ من الضلال ١٤ ـ ١٧

وقال رحمه الله: «وأدلة المتكلمين مثل الدواء الذي ينتفع به الناس ويستضر به الاكثرون».

وقال: والدليل على تضرر الخلق به المشاهدة والعيان والتجربة وما ثار من الشر منذ نبغ المتكلمون وفشت صناعة الكلام مع سلامة العصر الأول من الصحابة عن مثل ذلك، ويدل عليه أيضا أن رسول الله ﷺ والصحابة بأجمهم ما سلكوا في المحاجة مسلك المتكلمين في تقسيماتهم وتدقيقاتهم لا لعجز منهم عن ذلك»[1]

وقال الغزالي أيضا: «ولما كان زمان السلف الاول زمان سكون القلب بالغوا في الكف عن التأويل خيفةً من تحريك الدواعي، وتشويش القلوب، فمن خالفهم في ذلك الزمان فهو الذي حرك الفتنة، وألقى هذه الشكوك في القلوب مع الاستغناء عنه، فباء بالاثم»[2]

. . وقال: «ولذلك لم تجر عادة السلف بالدعوة لهذه المجادلات، بل شددوا القول على من يخوض في الكلام ويشتغل بالبحث والسؤال، واذا تركنا المداهنة ومراقبة الجانب صرحنا بأن الخوض في الكلام حرام لكثرة الآفة فيه إلا لأحد شخصين: رجل وقعت له شبهة ليست تزول بكلام قريب وعظي عن قلبه. . الثاني: شخص كامل في العقل راسخ القدم في الدين، ثابت الايمان بأنوار النفس يريد ان يحصل هذه الصنعة ليداوي بها مريضاً» لكنه مالبث أن قال: بل الايمان المستفاد من الدليل الكلامي ضعيف جدا، مشرف على التزلزل بكل شبهة»[3] وحكى كذلك

١ ـ إلجام العوام عن علم الكلام للغزالي «ضمن مجموعة: القصور العوالي ٨٨ ـ ٨٩ ط دار الطباعة المحمدية بالأزهر ١٩٧٠م تحقيق محمد مصطفى أبوالعلا.

٢ ـ إلجام العوام عن علم الكلام ٨١

٣ ـ فيصل التفرقة ١/١٥٢ ـ ١٥٣ ضمن مجموعة (القصور العوالي) تحقيق أبوالعلا، ونقل هذا الكلام السيوطي في صون المنطق ص ١٨٧ ، وانظر الجواهر الغوالي ص ٩٩

عن عطاء بن أبي رباح قوله: «إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام» .[1]

وروى كذلك عن الزبير أنه قال لابنه: «لاتجادل الناس بالقرآن فانك لن تستطيعهم ولكن عليك بالسنة» وعن مالك رضى الله عنه أنه قال: «ليس هذا الجدال من الدين في شيء»[2]

وقال الامام المقدسي في كتابه لمعة الاعتقاد: «ومن السنة هجران أهل البدع وترك الجدال والخصومات في الدين»[3]

هذا جزء يسير من موقف أهل العلم من الكلام ومن أهله، [4] وأما قول القائلين بأن له فضل وأنه كان طريقة السلف وأهل السنة، وبه كانوا يحاجون أهل الباطل من القدرية والمعتزلة، فهذه مغالطة، وتحريف لطريقة السلف إذ أنهم حاربوا القدرية وطوائف المعتزلة لكنهم لم يحاربوهم بهذا السلاح الهزيل الذي ما يلبث أن ينقلب على صاحبه، فيفسد العقائد بعد أن يُتخذ للدفاع عنها. وما كانوا ليحاجوهم الا بماعلموا من كتاب الله ومن سنة نبيهم ﷺ وأما بغيرهما فلم يفعلوا، ويوضح ذلك ما ذكرناه من أن الامام احمد هجر أباثور والحارث المحاسبي بسبب ردهما على المبتدعة بأجوبة مبتدعة (وبالتحديد) (بعلم الكلام).

وكذلك ذكرنا قول مالك واحمد بأن طريقة السلف أن يخبروا طوائف الضلال بالسنن والآثار فإن قبلت منهم والا سكتوا، لا أن يستوردوا من

---

١ - إحياء علوم الدين ١١٤/٣

٢ - إحياء علوم الدين ١١٧/٣

٣ - لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد ٢٩

٤ - بل وحتى المتصوفة غير الغزالي قد ذموا الجدل والمراء في الدين أمثال الكلاباذي في كتابه: «التعرف لمذهب أهل التصوف» حيث يقول فيه: «وأنكروا - أي الصوفيون - الجدال والمراء في الدين، والخصومة في القدر والتنازع فيه، ورأوا التشاغل بما هم وعليهم أولى من الخصومات في الدين» ا . هـ ص ٥٨ .

ارسطاطا ليس وافلوطين وفيثاغورث مايذبون به عن الدين.

والواقع ان حجة المتكلمين هذه يعللون بها اعتمادهم على علوم الفلاسفة وأخذ التفلسف والكلام عنهم بأن ذلك من أجل دحض حجج الزنادقة والقدرية وغيرهم - هي حجج واهية وباطلة، لأنهم وان كانوا ذبوا عن السنة وواجهوا الطوائف الضالة وبينوا بطلان اقوالهم، فإنهم مالبثوا ان وقعوا هم أنفسهم بالتالي في ما وقعت فيه طوائف الضلال من الجدال في الدين وضرب الكتاب ببعضه ونفي بعض الصفات وابتداع البعض الآخر، واضطراهم لتأويل كثير من الآيات بسبب قواعدهم ومقدماتهم التي اعتمدوها مما أوقعهم في ضرب القرآن ببعضه والأخذ بصفات من الكتاب على حساب نفي الأخرى، والرسول ﷺ يقول: «المراء في القرآن كفر»[1] وماسبب هذا كله إلا أخذهم من مصادر لم تعرف الاسلام ولم تهتد بهديه، وأي منهج غير المنهج المتلقى عن الله لابد وان يقع النقص والانحراف والاختلاف فيه. وهذه ثمرة أخذهم أصول ومقدمات لاتمت الى دين الله بصلة.

فالاسلام كالقلعة، ومحاربة الخارجين عنه يجب ان تكون من داخل هذه القلعة، فمن خرج منها ليدافع عنها فقد هلك. وما أسلم ان يكون الدفاع عن الله ورسول بالسلاح الذي اعطانا إياه الله ورسوله، وما أحمق ان يكون الدفاع عن الله ورسوله بفلاسفة الاغريق، الذين ما عرفوا نعمة الاسلام وما ذاقوا حلاوة الايمان وما كانت علومهم إلا تخمينات وتوقعات وتخرصات لا تغني من الحق شيئا.

قال الشاعر:

ترى المرء يعجبه أن لا يقولا   وأسلم للمـــرء أن يقـــولا

---

١ - رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي ٢/٢٢٣، وصححه ابن حبان كما في حاشيته شرح السنة للبغوي ١/٢٦٠، ورمز السيوطي لصحته في الجامع الصغير

فأمسك عليك فضول الكلام		فإن لكل كلام فضولا
ولا تصحبن أخا بدعة		ولا تسمعن له الدهر قيلا
وقد أحكم الله آياته		وكان الرسول عليها دليلا
وأوضح للمسلمين السبيل		فلا تتبعن سواها سبيلا
أناس بهم ريبة في الصدور		ويخفون في الجوف منها غليلا

وقال غيره:

دع من يقول الكلام ناحية		فما يقول الكلام ذو ورع[1]

---

١ ـ هذه الأبيات منقولةعن كتاب «تأويل مختلف الحديث» لإبن قتيبة ص ٤٣ ـ ٤٤ .

ليس علم الكلام والجدل توحيداً

يحث الحبشي الناس على الالتفاف حول «علم الكلام»، والذي سماه زوراً وبهتاناً «علم التوحيد» فجعل الجدل والمخاصمة والمناظرة في أسماء الله وصفاته أصلاً من أصول الدين مع أن أصل الدين كان يتجلى في أول ما يدعو كل نبي قومه «أعبدوا الله ما لكم من إله غيره»، ويظهر هذ جلياً في كتاب الله كقوله تعالى:

(وإلى عاد أخاهم هوداً، قال يا قوم أعبدوا الله ما لكم من إله غيره) [الأعراف ٦٥] (وإلى ثمود أخاهم صالحاً، قال يا قوم أعبدوا الله ما لكم من إله غيره) [الأعراف ٧٣] (وإلى مدين أخاهم شعيباً، قال يا قوم أعبدوا الله ما لكم من إله غيره) [الأعراف ٨٥]

هذا هو التوحيد الحقيقي، وهذا هو مكانه المطلوب، وهو أن يكون في بداية الدعوة، إذ هذا مطلب الرب من عباده «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون».

من هنا تبدأ الدعوة، ومن هنا تقف إن لم يستجب لها ولا يتسنى لها الانطلاق فإن انطلقت بعد هذا الشرط الذي بدأ به الأنبياء دعوتهم، سارت عندئذٍ محصورة محدودة بالشرائع التي أنزلها الله على أنبيائه، وليس لأحد أن يرسم لنفسه طريقاً خاصاً مستقلاً ليسير به على طريق الدعوة أبداً. إذن فرأس الدعوة هو أن لا معبود بحق إلا الله، والمسيرة فيها تسير

عبر المنهج الذي أنزله تعالى، لا نرضى بأن نأخذ أو نتحرى طريق الهداية والرشد من أي مصدر آخر غير المصدر الذي أخذ عنه الأنبياء وأبلغونا إياه. فيكون أول الدعوة «لا إله إلا الله» ومسيرتها لا مشرع الا الله وأصل الدعوة لم نختلف عليه نحن والحبشي، فنحن وإياه متفقون على أنه لا إله إلا الله، لكننا افترقنا عند الخطوة التالية بـ «لا إله إلا الله وهي لا مشرع إلا الله فنحن نقول بأننا نعرف الله بما وصف به نفسه وما وصفه به نبيه ﷺ من غير تمثيل ولا تعطيل ولا تحريف ولا تكييف، لأنه ليس هناك أعلم من الله بصفات الله إلا الله نفسه. لكن الحبشي قد اختار طريقاً آخر ليعرف به الله.

فاستقى لنفسه منهجاً مستنبطاً من قواعد فلاسفة اليونان وغيرهم ليعرف الله به. وكان القرآن كافيه لو أنه اكتفى به، إذ لا يعقل أن يكون القرآن شاملاً لكل صغيرة وكبيرة ـ فيه نبأ ما قبلنا وخبر ما بعدنا ـ ثم بعد هذا كله يكون التعريف فيه بصفات الله وأسمائه ناقصاً غير كامل. ناقصاً من جهة التعريف وناقصاً من حيث الدلالة على التوحيد المطلوب. إذ قد تكفل الله لنا أن لا نقع في هذه المسيرة لحاجة أي منهج آخر أو طريقة أخرى تكمل نقصاً أو تزيد بياناً.

قال تعالى: ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾ [الفرقان ٣٣] وقال سبحانه: ﴿ولقد جئناهم بكتابٍ فصّلنٰه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ [الأعراف ٥٢] وقال سبحانه: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾ [المائدة ٣].

فما الحاجة بعد هذا إلى أرسطو وأفلوطين وغيرهم من فلاسفة النجوم والطبيعيات الذين ماتوا فما هدوا وما اهتدوا، وكان الموت آخر فلسفتهم تغنوا بالكلمات المطاطة وتشدقوا بالكلام وزينوه، واعترفوا في آخر حياتهم بأن طريقتهم كانت فلسفة بالجهل، وجهلاً بحقيقة الفلسفة.

فكان قول القائل منهم عند موته: «الشيء الذي لا أزال أجهله جيداً أنني لست أدري[1]» ولا يسمح ديننا أن يخالطه أي مصدر آخر، أو أية عقيدة كان مصدرها غير الله ورسوله، إذ أن هذا الدين إلهي المصدر، لا يقبل أن يشاركه فيه أحد غيره. لذا كانت وصيةالنبي ﷺ في كل خطبة: «وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار»، فما زال يكررها عند كل خطبة، وقوله ﷺ «فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي. وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة.

فالتوحيد هو توحيد القرآن لا توحيد الفلاسفة. والضروري معرفته في الدين أن الله لا يُعبد إلا بما شرع، والحبشي قد شرع للناس من الدين ما لم يأذن به الله، ودعاهم إلى سبيل ليست من صراط الله المستقيم، والصراط المستقيم إنما هو اتباع ما جاء في الكتاب والسنة. لا نخوض بآرائنا، ولا نأتي بصراط الفلاسفة المتعرج، زاعمين أن طريقتهم تفيد التنزيه، مع أنهم كانوا على الوثنية وعلى الضلالة. فكيف يسابقون كتاب الله وسنة رسوله وهدي صحابته في التنزيه والتوحيد؟

---

١ ـ هذا القول لسقراط (الدين لدراز ٦٠)

التنزيه عند أهل السنة

وليس هذا التنزيه الذي يعلمه الحبشي للناس هو تنزيه بل هو تعطيل مزخرف بالتنزيه وليس هو من عند الله، بل هو من عند الفلاسفة، فكيف يصح لمسلم عاقل مدرك أن يقبل بأن الفلاسفة كانوا أكثر فصاحة وأكثر تنزيهاً لله من الله وآياته، وكيف يكونون أكثر حرصاً من الله على نفي التشبيه وغير ذلك من المصطلحات المستقبحة التي لم يعرفها أجيال الإسلام الأوّل؟.. قال تعالى: «ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً».

إذ أن زعمهم ينافي مفهوم هذه الآية ومقصودها، والله تعالى لم يغفل عن تحذير الناس من التشبيه وغيره فأنزل آية عامة شاملة لنفي التشبيه. كفيلة لمن يأخذ بها أن يفهم التنزيه من غير أن يقع في التعطيل. وتنزيهات المتكلمين تختلف عن هذه الآية، فهي ما تلبث أن تنزه الله عن شيء إلا وتعطله عن بعض ما وصف به نفسه، وسيأتي هذا مفصلاً في قضايا الصفات، والفصل في هذا أن نعتقد ما اعتقده أهل السنة كالأوزاعي والثوري والليث وابن راهويه ومالك والإمام أحمد وغيرهم، على أننا نصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تمثيل ولا تعطيل ولا تحريف، لا نتكلف التأويل، ولا نخوض مع الخائضين في صفاته فنفصل هذه من غير دليل ولا حجة. ولا نلحد في آياته وأسمائه.

والفلاسفة لا يقبلون بهذه القاعدة لأنها ترد عليهم تعطيلهم لصفات الله وضربهم الصفات ببعضها بعد أن يأخذوا ببعضها على حساب نفي البعض الآخر. فصفة اليد عندهم «النعمة والقدرة» والاستواء عندهم «الاستيلاء» والمجيء عندهم «مجيء الأمر» وكل هذا تنزيه لله (بزعمهم) لكن على حساب تعطيل ونفي الصفات التي وصف الله بها نفسه.

«ليس كمثله شيء» دواء ناجع

علماً أننا لا نكون منزهين لله بذلك إلا بعد أن نكون معطلين، وهذا هو الإنكار غير المباشر لبعض آيات الله وهو ما يسمى «بالتأويل التعطيلي». إننا مكلفون بقبول كل صفة وردت في كتاب الله أو سنة رسوله وعدم ردها أو الخوض فيها بالتأويل الذي هو في الحقيقة تحريف الكلم عن مواضعه، لكن هنالك شرط مهم جداً لا غنىً عنه أبداً، وهو أن نقرن الصفات كلها بهذه الآية العظيمة (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) فهذه الآية ترد على فريقين وتبطل مزاعم كل واحد منهما بالشكل التالي:

١ ـ أولاً: أنها ترد على الذين لا ينزهون الله عن تشبيهه بخلقه فالقسم الأول منها (ليس كمثله شيء) رد على الممثلة.

٢ ـ ثانياً: أما القسم الثاني من الآية (وهو السميع البصير) فهو رد على المعطلة الذي لا يفهمون من صفات الله إلا بما يليق بالمخلوقات، فيقعون بعدها في التعطيل ظناً منهم أنهم بهذا النفي لصفات الله قد نزهوا الله عن التشبيه.

وهذا هو ضرب من الغباء، ووسوسة شيطانية، والشيطان لا يبالي أن يوقع العبد إما في الإفراط وإما في التفريط لأنه يعلم تمام العلم أن في كلتيهما ضلالة، فيوحي للفريق الأول أنه ينبغي وصف الله بما وصف به

نفسه لكن يعيقهم عن تدبر الآية الكريمة (ليس كمثله شيء) فيوقعهم في التمثيل. ثم يوحي للفريق الثاني أن هذه الآيات تفيد التشبيه فالأولى تأويلها بما يخالف ظاهرها صرفاً للناس عن تشبيه الله بخلقه فيوقعهم في التعطيل. وكلا الطريقين إفراط وتفريط، والوسط بينهما هو الصواب وهو المراد وهو ما كان عليه المسلمون الأوائل، فإن الحق هو الوسط بين التمثيل والتعطيل. فلا نمثل الله بخلقه ولا نرد ما وصف الله به نفسه، بل نقول نصفه بما وصف به نفسه من غير تمثيل ولا تعطيل ولا تكذيب ولا تحريف.
فإذا سئلنا عن صفة الاستواء فإننا نقول كما قال مالك رضي الله عنه: «الاستواء معلوم والكيف مجهول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ـ وإذا سئلنا عن كيفية صفة اليد قلنا كذلك: اليد معلومة، والكيف مجهول، والإيمان بها واجب والسؤال عنها بدعة، جارين بهذه القاعدة على باقي الصفات.

وبهذا يتجنب العبد التشبيه مع تجنبه النفي والتعطيل. وهذا هو الصراط السوي الذي يجمع العبد فيه بين تنزيهين لا تنزيه واحد:

١ ـ تنزيه الله عن المماثلة بأن يلتزم بآية (ليس كمثله شيء) فيسد على الشيطان باب التمثيل.
٢ ـ تنزيهه لله عن أن يكون قد أنزل صفات توهم التشبيه والتعطيل بدعوى التنزيه ـ وهو اتهام جريء لله عز وجل بأنه أنزل ما يفيد مماثلته للمخلوقات فيسد بذلك على الشيطان باب ـ وصف الله تعالى بالنقص والخطأ ـ .

ولباب القول أن الممثل لله بخلقه قد وقع في التعطيل، كما أن النافي لبعض صفات الله بحجة التنزيه قد وقع كذلك في التعطيل.

فتعطيل المعطل معلوم لا يحتاج إلى تبسيط وإلى شرح فهو واضح.

أما الممثل فإنه قد قبل بصفات ولم ينفها، لكنه عطل آية مهمة بل آيات، نذكر منها ثلاث:

(ليس كمثلة شيء).
(ولم يكن له كفواً أحد).
(هل تعلم له سمياً).

فهذه الآيات الثلاثة معطلةعند من لا يفهم من صفات الله إلا ما يشابه صفات المخلوقين. وهذا ما حاربه السلف.

وهذه الآية العظيمة (ليس كمثله شيء) هي الفصل بين التمثيل والتعطيل، فإنها ترد أوهام الممثل في تشبيه الله بالمخلوقات، وترد على المعطل تشبيهه لله بخلقه، ومن ثم تعطيله الصفات الثابتة عن الله ورسوله.

ومثال ذلك: فإن الحبشي يقول: «وكل آية أوهمت تشبيهاً أو جسمية يجب أن لا تحمل على ظاهرها[1]». وذلك باطل إذ أننا نقول:

بل كل آية أوهمت تشبيهاً فيجب إقرانها بـ(ليس كمثله شيء) ليزول هذا الوهم الذي أودى بصاحبه إلى التعطيل، وهذا هو الدواء الناجح، والذي وصفه ربنا لكل مصاب بداء التشبيه والتمثيل.

أما التأويل فليس هو الدواء الناجح، بل لو أمعنا النظر قليلاً لقطعنا بأنه هو داء آخر يشارك داء التشبيه، فالمعطلة أصيبوا بداء التشبيه فأرادوا أن يبرؤا منه بالتأويل، فأوقعهم ذلك في مرض التعطيل، فازدادوا مرضاً إلى مرضهم ووقعوا في نفي ما أثبته الله لنفسه ووصفه به رسوله. وهذان المرضان متساويان في الخطورة، ومن لم تكن له هذه الآية بالدواء الشافي فلن يجد الشفاء بغيرها، ولن يأمن التعطيل أو التشبيه أو التحريف أو

---

١ ـ الدليل القويم ص ٤٩

التكذيب ولن يكون بذلك كلام فلاسفة المتاهات أهدى وأعلم وأحكم وأفصح ممن قال عنه رسول الله ﷺ (فإن خير الكلام كلام الله). ولن تكون أحكم ممن قال عنها رسول الله ﷺ (وخير الهدي هدي محمد ﷺ). ولن تدخل إلا في حكم ما قال عنه رسول الله ﷺ (وشر الأمور محدثاتها). ولن تكون إلا بدعة قال الرسول ﷺ فيها وفي أمثالها (وكل بدعة ضلالة).

ولن تؤدي هذه الضلالة إلا إلى النهاية السيئة (وكل ضلالة في النار).

وعلى كل حال فإن (ليس كمثله شيء) هي دواء يصلح وصفه لجميع عوارض هذا المرض (التشبيه) شامل لكل مداخلاته، كفيل بإخراجه من أي باب دخل منه، فالنفي الذي فيها مجمل يسد الأبواب وإن كثرت وتعددت. بعكس النفي التفصيلي الذي مهما نفى فإنه يغيب عنه أشياء كثيرة يجب نفيها لا تخطر بباله، لذا فإن مجالات دواء (ليس كمثله شيء) أوسع من مجال دواء المتكلمة الذي لا يسدون إلا بضع أبواب، فتنفتح عليهم بعدها أبواب وأبواب، وقوله بعد (ليس كمثله شيء) (وهو السميع البصير) دواء للمعطلة الذين أمرضهم التعطيل بحجة التنزيه. ودواء (ليس كمثله شيء) حلو الطعم، لا مرارة في أخذه، بعكس أدوية المتكلمين فإنها تستعمل أدوية لا تخلو من المرارة، لأنهم يستعملون كلمات مستقبحة، ومُرة فيها تنزيه قبيح جداً يؤدي إلى الجرأة والوقاحة على رب العزة. كقولهم عن الله: ليس بذي طول ولا عرض، ولا هو هواء، ولا لون له، وليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة، ولا لحم ولا دم، الى قولهم: ولا بذي حرارة ولا رطوبة ولا يبوسة ولا عمق.

إنها وإن كانت في الحقيقة صحيحة فإنها كلمات تفوح منها رائحة القبح والتجرؤ على الله تعالى.

فالله حقيقة «لا يتصف بهذه الصفات، لكن تنزيه عنها بهذا التفصيل لا يدل على تقوى ولا على تقديس ولا تعظيم، وانعدام التقوى سيوصلهم بطبيعة الحال إلى هذا الضلال، لأن الفلسفة لم تعتمد على الإيمان والتقوى، بل اعتمدت على حسابات ومعادلات رياضية قيست على الرب كما تقاس على العباد، إذ أن العباد أنفسهم لا يقبلون أن يُنَزَّهوا بهذا الأسلوب الوقح فكيف بالخالق سبحانه!!...

ولبيان ذلك أضرب المثل الآتي: «لو أنك رأيت رجلاً على الطريق فاستوقفته وقلت له: (تريد تعظيمه وتنزيهه عن البهيمية والحيوانية) إنك لست حماراً ولا كلباً ولا زنديقاً ولا خنزيراً الخ .... فإنك وإن كنت تنزهه عن ذلك إلا أنك تجرأت عليه بأشد مما لو أنك ألصقت به هذه الصفات السيئة.

هذا بالنسبة للمخلوق فكيف بالخالق؟.. ولله المثل الأعلى (سبحانه).

فلا شفيت أدوية المتكلمين... بل وأخيراً... وما كانت دواء. بل إنها المرض بعينه، فرب مريض مشبه شفي من مرضه بغيرها، ولكن كم من طبيب فاشل «مريض» أمرض بها كثيراً ممن لم يكن بهم مرض. فأحرى له أن يفتش عن الدواء الصحيح ليطبب به نفسه أولاً، ويشفي من كان هو سبباً في مرضهم فأثبت لنفسك اللهم ما شئت من صفات، إنا مصدقون بها، وآخذون بها ما دامت (ليس كمثله شيء) تحول بينها وبين صفات المخلوقين وتبني جداراً يفصل بين ما يليق بك، وبين ما يليق بخلقك.

فسبحان ذي الوجه والعين واليدين والأصابع والقدم والمجيء والنزول والاستواء. وسبحان من ليس كمثله شيء. لا في أسمائه ولا في صفاته ولا في استوائه ونزوله ومجيئه.

وفي ذلك نكون قد أتينا بالإثبات والنفي، فأثبتنا لله الصفات التي تليق به، ونفينا عنها مشابهتها لصفات المخلوقين. هذا هو الأصل المطلوب في الدين والأصل في النفي أن يكون من الدين لا من عند فلاسفة الأساطير اليونانية.

بقي هناك سؤال واحد أتوجه به إلى الحبشي وهو: هل تعتقد أن هذه الآية الكريمة (ليس كمثله شيء) كافية لإزالة شبه التشبيه وأمراض التمثيل، أم أنها ليست كافية لإزالة تلك الأمراض مما يحتم اللجوء إلى مبادىء الفلاسفة الذين لم يعرفوا للإسلام نوره ولا طعمه؟

إن قلت ليست بكافية فقد أظهرت ما في نفسك ورميت القرآن بالنقص وعدم فعاليته في الشفاء مع أن الله تعالى يقول: «(وشفاء لما في الصدور) [يونس ٥٧] وتكون بذلك نقضت الإسلام من أول عروة فيه ووقعت بما لم يقع به سلفك من المتكلمة وإن قلت: بل هي كافية، وقعت الحجة عليك، ووجب رمي مراجع الفلاسفة وكتبهم التي عندك في أقرب قمامة تمر بها، وتحتم عليك إلتزام قول السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وأن تقتنع أن مبادىء أولئك الفلاسفة وما أخذته عنهم هو من التكلف الذي قال عنه النبي ﷺ: «أنا وأتقياء أمتي برءاء من التكلف». وتلتزم بعد ذلك مذهب أهل السنة. أما ما أنت عليه الآن فإنه ليس من منهج السلف الصالح في شيء. مهما حاولت إفهام العوام هذا، ومهما وضعت هذا في كتبك، فذلك لن يغير من الأمر شيئاً، إذ إنك لن تجد واحداً من السلف إستدل على وجود الله بالواجب والممكن، ولا بالجواهر والأعراض، ولا بالقديم والحادث، أو بالمركب والبسيط. بل السلف برءاء من هذه العلوم المبتدعة ومن مصادرها. فلئن كان أهل الجهل في شك من أمرك، إن أهل العلم من أمرك لعلى يقين.

يمكنك أن تشتم المعتزلة وأن ترد أقوالهم وتبطل معتقداتهم، وتقول بعد هذا كله، على أساس أن السلف ناظروهم وحاجوهم وأفحموهم. لكن لا يمكنك أبداً أن تتأول الآيات والأحاديث ـ وتنفي صفات الله بعد أن تستثني منها سبعة، وتسب معاوية ابن أبي سفيان وتشتمه وتقول أنه من أهل النار ـ ثم تأتينا بعد ذلك كله وتقول: «أن معتقدك هو ما كان عليه السلف. لأن من كانت له أي خلفية بعقيدة السلف لا يمكن أن يصدق هذا الكلام وهذا الادعاء أبداً.

وأما هذا الكتاب فإن فيه من المقارنة بين عقيدتك وعقيدة السلف، ما يوضح الصورة، ويظهر الاختلاف بينك وبينهم. ويعلم الناس حقيقة الأمر. وأن مرجعك في العقيدة ليس من كتاب ولا سنة وإنما من مدرسة الحكمة. والمدينة الفاضلة، وقد أوضحت لك في غير هذا الموضع «بالدليل القاطع» أنك توافق المعتزلة في العديد من آرائهم كتأويل الصفات والانتقاص من معاوية، وأوضحت أن الأشعري قد أنكر على المعتزلة هذين القولين، فأين الصحة في عقيدتك؟

والحاصل أن هناك أمراً يجب التفطن له وهو:

أن كل من زعم أن هناك سبيلاً غير «القرآن والسنة» ينبغي التمسك به لما فيه من التنزيه من التشبيه فقد اتهم خلوّ القرآن والسنة أو نقصانها عن التنزيه من التشبيه والتمثيل إذ لو أتيا بهذا الباب مكملاً، ومفصلاً لما احتيج بعدهما إلى منهج آخر يكمل هذا الباب.

وإدخال شيء فيهما يدل على نقصانهما منه.

وما أرى غير كلام الله وهدي رسوله دواءً لمرضى التمثيل والتشبيه، فإن لم يتداووْا بهما. فلا يأملن أحد منهم الشفاء بغيرهما!!..

فما وجدت أعظم من هذه الكلمات الثلاث، (ليس كمثله شيء) والتي ـ والله ـ كافية في شموليتها لتخليص المريض من أعظم وأخطر مرض في هذا الدين ألا وهو مرض التشبيه ـ تشبيه الله بخلقه.

فإن الحبشي يقول برأيه في كتاب الله ويؤوله على ما يحلو له، مع أنه يحرم ذلك في موضع من مواضع كتابه إذ ينقل عن الإمام أبي حنيفة قوله: «لا ينبغي أن ينطق في الله بشيء من ذاته، ولكن يصفه بما وصف به نفسه ولا يقول فيه برأيه شيئاً»[1].

وتأويله للنصوص الصريحة يناقض ما يستشهد به.

أين الهدى في الفلسفة والكلام؟

ولا يصح أن تكون الفلسفة والكلام ضرورة في الدين. ولا يصح أن تكون هدياً، إذ أن الفلاسفة بجملتهم لا يتفقون على رأي واحد في الدين، وكل منهم له طريقته الخاصة به في «التنزيه» المخالفة للآخر.

فكيف يحصل الهدى في الفلسفة وهي التي ابتعثت الخوض والكلام في صفات الله وفي ذاته ابتعاثاً؟

وكيف يحصل الهدى في الفلسفة، وهي هي التي فرقت هذه الأمة إلى شيع وطوائف فأصبح منهم الجهمي والمعتزلي والأشعري والكلابي والكرامي والشيعي والباطني إلى غير ذلك. وخالف بعضهم رأي بعض، ولعن بعضهم بعضاً، وضرب بعضهم بكلامه ورأيه كلام ورأي البعض

---

١ ـ الدليل القويم ص ١٦١ ، والمثير العجب أن الحبشي يقول في ص ١٥١ بأن الصريح لا يؤول ومع ذلك فقد تأول صريح كتاب الله وسنة رسوله.

الآخر، فأصبحوا متحدين على المصدر الذي استقوه منه، مختلفين في آرائهم وأفكارهم، يتنازعون الصفات والقدر والمشيئة وغير ذلك مما هو أخطر باب من أبواب هذا الدين.

وكيف يقبل العاقل أن يوافقهم على ما هم فيه. وقد علم من أحاديث الرسول ﷺ أن كل الطوائف والفرق في النار إلا طائفة واحدة إستثناها عليه الصلاة والسلام وهي الطائفة التي بقيت على ماكان عليه ﷺ هو وأصحابه، والتي أبقت على الكتاب والسنة كمصدر لها دون المصادر التي أخذ عنها باقي الفرق.

فالأمر إذن غاية في الوضوح، إذ أن الرسول ﷺ لم يسكت عن الأخذ بقواعد الفلاسفة (لو كان فيها خيراً) نسياناً منه، ولم يذكرها بخير، بل ذم الجدل والخصومة في الدين وهما ميزتان من ميزات الفلاسفة والمتكلمين، وبشر الفرق كلها بأنها في النار واستثنى منها من نبذ كل تلك المصادر، واتخذ مصدره كتاب الله وسنة رسوله فأين الهدى في الفلسفة.

ولا ريب أن حال الطائفة الناجية المشابهة للحال التي كان عليها الرسول ﷺ وأصحابه هي مخالفة لأحوال المتكلمين المشابهة لأحوال أسلافهم من الفلاسفة اليونانيين، وفلاسفةالعرب كابن سينا والفارابي وابن رشد وغيرهم.

فكانت الطائفة الأولى أحرى في الفوز بالنجاة دون غيرها من الطوائف، لأن تمسكها بالكتاب والسنة دون غيرها من المصادر أدى إلى تعظيمهما دون غيرهما. وهذا التعظيم كان بمثابة الحاجز المانع للتأويل والتبديل والعبث فيهما. وكل من تمسك بالكتاب والسنة دل على حرصه عليهما من أن تشوبهما شائبة أو أن تدخل عليهما فلسفة المتفلسفين وزندقة المتزندقين.

وكل من تمسك بالكتاب والسنة يعلم تمام العلم بأن بقاء هذا الدين من غير قواعد الفلاسفة وآرائها لا يضره شيئاً، ودخولها فيه لا يفيده شيئاً ولأنه يعلم أن الله قد أكمل الدين، وأن الرسول ﷺ بلغ الرسالة وأشهد الأمة على ذلك فأقروا له وشهدوا بذلك، فمن زاد في الدين شيئاً فكأنه اتهم الله بأنه لم يكمل الدين، أو أن الرسول ﷺ لم يبلغ الرسالة حق التبليغ، فكانت شهادة الأمة عندئذ بأنه قد بلغ هي «شهادة زور».

علم عند ذلك أن «التوحيد التعطيلي» الذي أتى به المتكلمون كالمعتزلة وغيرهم يقتضي ما ذكرناه، فلا يكونون أهلاً للنجاة.

وعلم عند ذلك أيضاً أن التعظيم الذي حصل عند الطائفة الناجية هو بسبب تهاونهم بكل مصدر غير مصدر الكتاب والسنة، وبسبب اكتفائهم بهذين المنبعين الصافيين. وهذا ما يؤهلهم لأن يكونوا من الطائفة الناجية دون غيرهم من الطوائف.

والذي أود الإشارة إليه هو أن المعظم لكتاب الله وسنة رسوله المتمسك بهما يضطره ذلك إلى محاربة كل من أراد العبث بهما أو تعطيل شيء منهما بدعوى التوفيق أو التنزيه أو صرف العوام عن أن يضلوا بشيء منهما.

فتصبح وظيفة المتمسك بهذين الأصلين كوظيفة الكريات البيضاء في جسم الإنسان تحارب الجراثيم الداخلة عليه وتطوقها وتذيبها، فيبقى الجسم سليماً ببقاء تلك الكريات البيضاء على وظيفتها هذه، حتى إذا ضعفت مقاومتها أمام تلك الجيوش من الجراثيم ضعف صاحب هذا الجسم ومرض وربما مات.

ولولا هذه «الكريات» من أبناء الطائفة الناجية لأعمل الفلاسفة

والمتكلمون بكتاب الله وسنة رسوله تأويلاً وتعطيلاً وتبديلاً وتحريفاً. فالحمد لله الذي يقيض لهذا الدين من يمنع بهم دخول بدع المتبدعين فيه، ويبطل شبه الضالين.

النفي والتنزيه

ومع أننا لا نختلف مع الحبشي في نفي المثيل لله سبحانه إلا أننا نخالفه في طريقة النفي والتنزيه، إذ أن طريقتنا في النفي والتنزيه قرآنية المصدر. أما طريقته فلا تكاد تخلو من منهج المتكلمين الذين أخذوا هذا المنهج بدورهم عن فلاسفة اليونان.

وقد تكلمنا في معنى (ليس كمثله شيء) وأثرها القوي في التنزيه مما يغني المسلم عن استعارة مناهج جاهلية وجدلية لاثبات التنزيه لله تعالى، وبينا بأن تنزيه المتكلمين لله تعالى هو تنزيه مقرون بالتعطيل ونفي ما أثبته الله لنفسه من صفات الكمال، وأن هذه الآية كانت كافية لهم لو اكتفوا بها ولم يلجئوا لغيرها، واستدللنا بهذا على سوء ظنهم بكتاب الله وسنة رسوله لانهم لو تأكد لهم أن الله الذي أثبت الصفات لنفسه، هو الله الذي نزه نفسه عن مشابهة المخلوقين لأقروا بما أنزل ولما تأولوا ذلك، ولأثبتوا ما أثبت، لكنهم قد وجدوا في كتاب الله وسنة رسوله ما يوهم التشبيه بزعمهم ففروا منها الى كلام المتفلسفين وفعلوا عكس ما أمر به رسول الله ﷺ فإنه قال بأننا ما تمسكنا بكتاب الله وسنة رسوله فاننا لن نضل، وهم لم يتمسكوا بكتاب الله وسنة رسوله لأنهم زعموا أن فيهما من التشبيه ما يضل العوام به فتركوهما وتمسكوا بغيرهما، وكانوا بذلك هم الضالون، لأن الرسول ﷺ قال عن الكتاب والسنة: «ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي

أبدا، كتاب الله وسنتي» وفي هذا النفي القاطع لمن تمسك بهما عن أن يضل، فينبغي على كل مسلم ان يصدق هذا، ويكون على يقين من أن التمسك بكتاب الله وسنة رسوله فقط لا يؤدي الى ضلالة، بل يغلق أبواب الضلالة ويوصدها.

وهؤلاء المتكلمون يصورون للعوام بأن كتاب الله فيه من الصفات ما يوهم الضلالة ومن ثم يجب الفرار منها، والاقبال على الكلام والجدل وسموا ذلك «توحيداً». فجعلوا في كتاب الله ما يؤدي الى الضلالة، فعلى كلامهم كان على الله أن يراعي جهل العوام في المجتمع، فلا يصف نفسه بتلك الصفات التي أودت بهم الى التشبيه، ومعلوم أن التشبيه ضلالة، نصحوا الناس أن يتعلموا الكلام لما فيه من التنزيه عن «الجسمية»، مع ن الكلام والجدل عند الرسول ﷺ هو الضلالة بعينها لقوله: «ماضل قوم بعد هدىً» كانوا عليه إلا أوتوا الجدل».

ويكفيك من شططهم وتعسفهم ان جعلوا التوحيد ضلالة والضلالة توحيدا.

وأخذوا ينتزعون استدلالاتهم على صحة طريقهم انتزاعا فإن قال لهم أحد بأن هذه الطريقة الجدلية لم تكن من منهج الصحابة ولا غيرهم، قالوا: كان الصحابة والتابعون يتناظرون فيما بينهم في أمور الفقه وغير ذلك مما هو منقول عنهم بالدليل فهذا يدعم صحتنا بأن الكلام كان معروفا من قبل..

فالقول الحق هو بأن الصحابة رضوان الله عليهم قد تنازعوا في كثير من مسائل الاحكام، لكن ولله الحمد، لم يقع تنازع بين أحد منهم في مسألة الاسماء والصفات، ولم يقل أحدهم للآخر بأن أخذ هذه الآية على ظاهرها يفيد الكفر، بل كانوا كلهم على موقف واحد لايتغير منها، وهو

إثبات ماجاء في الكتاب والسنة، فلم يسوموها تأويلا ولم يحرفوها تعطيلا، بل تلقوها بالقبول والتسليم والاجلال والتعظيم، وسلموا بالآيات كلها، فلم يسلموا بآيات الصفات وحدها دون آيات التنزيه (ليس كمثله شيء) (ولم يكن له كفواً أحد) فأثبتوا الصفات وأثبتوا التنزيه عن مشابهة الغير، فكانت طريقتهم بذلك هي طريق الحكمة والتقوى، واجلال كتاب الله وتعظيم سنة رسوله وكانت هي طريق السلامة التي سلكوها بحكمتهم وتقواهم.

إن جماهير العلماء مقرّون بفضل السلف لما لهم من الفضل والتقوى، حتى إن من تأثر بالفلاسفة يقر بذلك، فهذا ابن رشد يقول في كتابه «فصل المقال»:

«إن الصدر الأول، إنما صار إلى الفضيلة الكاملة والتقوى باستعمال هذه الأقاويل دون تأويلات فيها، وأما من أتى بعدهم فإنهم لما استعملوا التأويل، قلّ تقواهم وكثر اختلافهم، وارتفعت محبتهم، وتفرقوا فرقاً».(١)

ويقول المقريزي في «الخطط»:

«ولم يرد في دواوين الحديث وآثار السلف أن صحابياً سأل الرسول عن صفات الله، أو اعتبرها صفة ذات أو صفة فعل، وإنما اتفقت كلمة الجميع على إثبات صفات أزلية لله تعالى».(٢)

فأصل الإثبات هو إثبات ما ثبت من كتاب الله ومن سنة رسوله لا نخرج عن ذلك إلى وصفه بصفات من عندنا، كوصف الحبشي لله بصفات لم ترد في قرآنه كصفات «القيام بالنفس» و«المخالفة للحوادث».

---

١ ـ فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ص ٢٦ ط مطبعة الشرق الاسلامية.
٢ ـ الخطط المقريزية ـ تاريخ الاسماء والصفات ـ الجزء الرابع.

وليس يعني رفضنا لتلك الصفات أن الله سبحانه مفتقر إلى خلقه أو أنه حادث كمخلوقاته أو أنه يسبقه عدم، ليس هذا معنى رفضنا لتلك الصفات، وإنما معناه أن نعلم نفس معاني هذه الصفات بألفاظ من كتاب الله تخالف ألفاظ المتكلمين

لأننا كما نعبد الله على نور من كتابه ومن سنة نبيه ﷺ لا نلجأ بذلك إلى عبادته من أديان أخرى فكذلك نتعرف على صفاته من خلال ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله لا نلجأ كذلك إلى أديان ومناهج أخرى لم تعرف الإسلام ولم تذق طعمه، فنتعرف إليه بها. فكما أنه لا يُعبد الله إلا بما شرع. فكذلك لا يُعرف الله إلا بما أثبت من الصفات التي أراد بها تعريف عباده به.

التنزيه عند السلف وعند المتكلمين

ولم يكن المتكلمون... ولن يكونوا يوماً ما أحرص على هذا الدين من السلف الصالح من الصحابة والتابعين، ولن يكونوا أغير عليه منهم.

إذ أن من حرص السلف وغيرتهم على هذا الدين أنهم حافظوا عليه وحموه من بدع المتبدعين ومن تحريفات الضالين، حتى جاءت عصابات النفي والتعطيل التي أرادت تنزيه الله بطريق تكذيبه وتأويل صريح آياته، بحجة أن ظاهرها يضر بعوام الناس ويوقعهم في التشبيه والتمثيل، فعلى ذلك يكون كتاب الله قد أضر بالخلق، إذ لو لم يأت بهذه الآيات لما ضل الناس بضلالة التشبيه والتمثيل

وهذا التنزيه الذي أتى به المتكلمون لم يستخرجوه من تقوى قلوبهم، ولا من تعظيم الله في صدورهم، وإنما أرادوا به تطبيق فلسفة اليونان على دين الإسلام.

وفرق عظيم، بين طريقة تنزيههم، وطريقة تنزيه السلف.

فطريقة السلف تعتمد على الإيمان بما وصف الله به نفسه وبما وصفه رسوله مع تنزيهه عن مماثلة المخلوقات بطريقة (ليس كمثله شيء)

أما طريقة المتكلمين فتعتمد على طريقة (ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث) وطريقة (الجوهر ما له تميز وقيام بذاته، والعرض ما لا يقوم بذاته) و (الواجب والممكن) وغير ذلك مما لا يدل على حرص على الدين، بل حرص على إدخال كلام أفلوطين وأرسطو وديموقراتيس وفيتاغورس وغيرهم إلى هذا الدين الذي قال الله فيه (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) [المائدة ٣] فقول الله (اليوم أكملت لكم دينكم) يدل على سد باب الابتداع وادخال شيء من تشريعات العباد إلى هذا الدين، ذو التشريع الالهي

فلو فرضنا أن الفلسفة اليونانية نافعة للناس لكان مع ذلك محرم إدخالها في الدين اتباعاً لقوله ﷺ: من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد

فكيف وأن هذه الفلسفة اليونانية كانت سبباً رئيسياً في وقوع المتأثرين فيها بالتعطيل والنفي لما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله؟

كيف وأنها شتتت صفوف المسلمين وفرقتهم ومزقت أبناء الأمة شر تمزيق فحصل بسببها الجهمي والباطني والقرمطي والشيعي، والمعتزلي والأشعري والصوفي وغيرهم من الفرق التي تزيد على السبعين ؟

أفلا تكون بعد ذلك محرمة في دين الأنبياء؟

وما الفائدة التي حصل عليها المتكلمون سوى التأويل والتعطيل والتحريف لآيات الله وأحاديث رسوله؟

إنهم لم يجنوا من هذه الفلسفات إلا التردد والتنقل من رأي إلى آخر، والخصومات في دين الله والجدال في آياته.

فاقتحموا بذلك أخطر باب من أبواب هذا الدين، وصار هذا الدين عندهم بمثابة معادلات رياضية مجردة عن أي تقوى وخشية من الله.

هل المتكلمون من الطائفة الناجية

قال رسول الله ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى أو إثنين وسبعين فرقة، وتَفرقّت النصارى على إحدى أو وإثنين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة[1] وفي رواية: «وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة»، قالوا: «ما هي يا رسول الله؟ قال: «من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي»[2].

وكيف يليق بالمتكلمة الظن بأنهم من الطائفة الناجية وهم ليسوا على ما كان عليه الرسول وصحابته فالرسول ﷺ والصحابة من بعده كانوا على قلب رجل واحد فيما يتعلق بذم الجدل والكلام والتشدق فيه.

والمتكلمون اليوم على قلب رجلٍ واحد فيما يتعلق بمحاولة إدخال جدلهم وكلامهم إلى الدين وجعله أصلاً من أصوله[3]، وعلماً من أشرف

---

١ - رواه ابوداود في أول كتاب السنة في صحيحه، والترمذي ورواه احمد في المسند ١٠٢/٤ والحاكم في المستدرك ٢٢٨/١، وابن ماجه ح (٩٩١م) والآجري في الشريعة ص ١٨.

٢ - رواه ابوداود (٤٥٩٦) وابن ماجة (٣٩٩١) والحاكم وقال على شرط مسلم، «وقال هذه أسانيد تقام فيها الحجة» ١٢٩/١ واحمد في المسند ١٠٢/٤ والآجري ص ١٥ ورواه ابن كثير عن الحاكم وقال: اخرجه الحاكم بهذه الزيادة ٣٤٦/١.

٣ - إلا من هدى الله منهم فذمّ الكلام في آخر عمره كالرازي والجويني، والغزالي في إلجام العوام، وللمثال على ذلك ننقل بعض كلام الرازي: «قال ابن الصلاح اخبرني القطب الطوغاني مرتين أنه سمع فخر الدين الرازي يقول: «ياليتني لم أشتغل بعلم

علومه. فبان أن هؤلاء ليسوا من أولئك. ولا يجدر بأحد أن يزعم بأنه على مذهب أهل السنة والجماعة فيتمسك بمنهج فلاسفة اليونان، ويضرب فيه الدين من أصله ويخوض في صفات الله، فيثبت أشياء منها وينكر أخرى زعماً منه أنها توهم التشبيه، وهو لا يدري أن هذا افتراء على الله لأن معنى قوله يصبح: «يا رب... أنزلت ما يوهم التشبيه مما لا يليق بك ولا ينبغي أن تنزل علينا ما لا يليق بك ما يوهم التشبيه والمماثلة وغير ذلك»، وأهل الطائفة الناجية بريئون من هذا، فهم لم يتجرؤا على القول بأن آيات الله توهم التشبيه. أو أن أحاديث رسوله يفهم منها مماثلة المخلوقات، لذا كانوا هم الأولى بأن يكونوا من أرباب الطائفة الناجية، ومن لا يتوانى عن هذه الجرأة، ويلزم نفسه القول بأن في كتاب الله سنة رسوله ما يوهم التشبيه فقد أعظم الفرية على الله، واتهمه بأن كلامه المنزل على عباده، يصرفهم عن التنزيه ويوقعهم في التشبيه والتمثيل. فهذا ليس فيه تعظيم لله من شيء، وليس بالتالي جديراً أن يُحشر مع الطائفة الناجية. بل لا يليق بمقامه عندئذٍ إلا التي أعدها الله لكل كفارٍ أيثم.

فما أجدر أن يرجع كل منتمٍ لهذه الفرق إلى هذا الحديث القيم، فيقرن حالة الرسول وصحابته بحالة الفرقة التي هو عليها حتى ينجو بنفسه مع هذا الطائفة.

وأصبح من المعلوم بديهياً أن المتكلمين وغيرهم ممن خاضوا في أسماء

= الكلام ـ وبكى» وكذلك قال في كتابه الذي صنفه في أقسام اللذات: «ولقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما وجدتها تشفي عليلاً ولا تروى غليلا، ورأيت أصح الطرق طريقة القرآن، إقرأ في التنزيه (والله الغني وأنتم الفقراء) وقوله تعالى (ليس كمثله شيء) و (قل هو الله أحد) وأقرأ في الاثبات (الرحمن على العرش استوى) (يخافون ربهم من فوقهم) و (إليه يصعد الكلم الطيب) ا. هـ أنظر كتاب اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي ص ٢٣، ط دار الكتب العلمية.

الله والحدوا فيها وأثبتوا من الصفات من يناسب قواعدهم ويوافقها في الحادث والمركب والجوهر والعرض الخ . . .

وعطلوا منها ما لم يوافق مقاييسهم، لم تكن حالتهم هذه هي حالة الرسول وأصحابه إذ لم يأمر الرسول أصحابه أن يأخذوا التوحيد والتنزيه من فلاسفة خاضوا في الله ما خاضوا وكان خوضهم هذا «خبط عشواء» واتباع للظن وما تهوى انفسهم وعلى غير نور ولا هدى ولا كتاب مبين.

لم يأمرهم أن يأخذوا بآراء الفلاسفة ويتركوا كتاب الله الذي لم يترك شيئاً إلا وفصله تماماً (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) الفرقان ٣٣

بل كان غاية إثباتهم لأسماء الله وصفاته هو بحسب ما أثبته الله في كتابه وأثبته الرسول في سنته، وهم يعظمون كل آية في كتاب الله، بل كل حرف فيه، فلا بد إن يضعوا في حسبانهم تلك الأيات الثلاث: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) (ولم يكن له كفواً أحد) (هل تعلم له سمياً) فلم يكونوا يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض! لم يكونوا يؤمنون بما أثبت الله لنفسه من الصفات ويتركون ما أثبته لنفس من التنزيه

لذا لم يأمرهم الرسول أن يأخذوا عن فلاسفة اليونان، فقد ذكر الأحاديث الكثيرة التي تبين أحوال أمته وما سيكون من شأنها، كما في هذا الحديث الذي ذكرناه آنفاً أي حديث افتراق أمته فلو كان راضياً عن مبادىء الصابئة والمتفلسفة لذكر لنا شيئاً من ذلك. ولحثنا عليها لما فيها من (التنزيه) كما يزعم بعض المفتونين.

وإذا وصف عليه الصلاة والسلام الفرقة الناجية بأنها هي التي ستكون حالها على ما كان عليه هو وأصحابه، وإذا علم أن طريقته كانت سهلة رسلة لا تكلف فيها ولا تعطيل فيها بدعوى التنزيه، بل إن حياته

كلها وسلوكه كله هو القرآن، كما قالت عائشة رضي الله عنها: «كان خلقة القرآن» ـ علم بعد هذا أن مسلك المتكلمين وحالهم ليست هي حال النبي ﷺ التي كان عليها هو وأصحابه.

فائدة جليلة

إن الرسول ﷺ قد غضب حين رأى صحيفة من التوراة في يد عمر رضي الله عنه فقال: «لو كان أخي موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي[1]، وفي روايه: «والذي نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين[2]

فهذا موسى نبي من أنبياء الله، لو أنه ظهر فينا فاتبعناه من دون محمد ﷺ لكان في ذلك ضلالتنا، فما بالك بعلوم الفلسفة الإغريقية.

ومبادىء حكماء اليونان، الذين لم يورثوا النبوة ولم يعرفوا الهدى!!... بل لقد كانت علومهم سبباً في تفرق جماعة المسلمين إلى فرق عديدة، كل منها تتبنّى رأياً لها وتخالف فيه الأخرى!!...

فهل يقول عاقل بأن حال تلك المبادىء والقواعد والمقاييس الجدلية كانت هي حالة الرسول وصحابته؟

---

١ ـ حديث حسن رواه احمد ٣٨٧/٣، ورواه الدارمي ١١٥/١ وابن عبدالبر جامع بيان العلم ٤٢/٢ وابن أبي عاصم ٢/٥، والهروي في ذم الكلام (٦٧/٤ ـ ٢) والضياء المقدسي في المنتقى ٣٣/٢

٢ ـ جامع بيان العلم وفضله ٤٢/٢، والطبراني في الكبير.

(مقارنة بين حال الأحباش وحال الرسول وصحابته)

ولنضرب أمثلة نبين فيهما أن الحبشي وجماعته ليسوا على الحال التي كان عليها الرسول ﷺ وأصحابه فنقول: «

أولاً: لقد نهى الرسول ﷺ عن الجدل والمراء وأخبر أن هذا ما هلكت به الأمم من قبلنا والأحباش اتخذوا الجدال حرفة لهم، فخاضوا فيه أشد الخوض، بعد أن زخرفه لهم الحبشي وسماه بـ «علم التوحيد» والتوحيد بريء من هذا العلم المزور.

ثانياً: نهى الرسول ﷺ عن الكلام في القدر والخوض فيه، والحبشي قد خاض في القدر كثيراً وتكلم عن نظرية الكسب التي تعود به إلى الجبر.

فخاض في القدر وأطنب الحديث فيه، حتى أخذ ذلك قسماً من كتابه. مع أن النبي ﷺ يقول: «وإذا ذكر القدر فأمسكوا»[1] لكن الحبشي ما التزم الإمساك عن الخوض في القدر، بل أطال فيه

---

١ ـ هو جزء من الحديث: «إذا ذكر اصحابي فأمسكوا ، واذا ذكر النجوم فأمسكوا وإذا ذكر القدر فأمسكوا» رواه الطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد حسن ، ٢/٨٧/٢ ، كما ذكر ذلك الحافظ العراقي في «تخريج الاحياء» ١/٥٠ وابو نعيم في الحلية ١٠٨/٤ وابن عساكر ٢/١٥٥/١٤ عن النضر أبي قحذم أبي قلابة عن ابن مسعود مرفوعا ، واللالكائي في شرح أصول السنة ١/ ٢٣٩ .

وتوسع ويمكن ملاحظة ذلك بوضوح في كتابه «الدليل القويم»[1]

ثالثاً: نال من معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه مع أن النبي ﷺ نهى عن ذلك وقال: «الله الله في أصحابي لا تجعلوهم غرضاً من بعدي».

رابعاً: نهى الرسول الله ﷺ عن ضرب كتاب الله بعضه ببعض وحذر من ذلك.

فقال: «فلا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، فإن ذلك يوقع الشك في قلوبكم»[2].

لكن الأحباش تمادوا في ضرب الكتاب بعضه ببعض خاصة فيما يتعلق بالقدر وقضية الإستواء، فإذا ذكر الرجل لهم آيات الإستواء أتوه بآيات المعية وقالوا له: ما رأيك في هذه؟... فأوضعوا الشك والريب في كتاب الله مع أن الله تعالى قال (ذلك الكتاب لا ريب فيه) [البقرة ٢]. فجعلوا الريب فيه، ثم أن الرسول ﷺ حذر من هذه الظاهرة فقال: «إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً، فلا تضربوا بعضه بعضاً، ما علمتم منه فقولوا، وما لا فكلوه إلى عالمه»[3].

علم بعد ذلك أن حالة الأحباش في هذا الأمر ليست كالحال التي كان الرسول ﷺ والصحابة عليها[4].

---

١ ـ الدليل القويم ٨٤ ـ ١٠٨

٢ ـ راجع تخريجه في فصل «ذم الكلام وأهله».

٣ ـ رواه البخاري في خلق أفعال العباد.

٤ ـ راجع «الصراط المستقيم» للشيخ ٥٤

خامساً: الغلو في التكفير واللعن، فأصبحوا متخصصين بذلك، وقد عرفهم العالم والجاهل والكبير والصغير بهذه الخصلة الذميمة، ولم يعد أمرهم هذا خافياً على أحد، ولقد رأيت استياء الناس من هذه الظاهرة فيهم، ونفورهم منهم، حتى من بعض من ينتسبون إليهم.

وغاية ما يبرع به الأحباش، التفتيش والتنقيب في بطون كتب العلماء لإستخراج ما يبيح ويرخص لهم تكفيرهم وشن الحملات عليهم، وهذا ما يكرسون له جهدهم، فتراهم لا يكاد يسلم أحد من حملاتهم هذه. ويطبعون بذلك المنشورات الكثيرة، ليكفروا بها العلماء بجملتهم.

ولو أنهم يكفرون من ينبغي تكفيره لكان ذلك حسناً منهم، لكنهم يحرفون كلام من يكرهونه تمهيداً لتكفيره بعد ذلك.

فقد كفروا الشيخ فيصل مولوي، وأخرجوه «على حسابهم الخاص» من ملة الإسلام لأنه قال: «لا يجوز التكلم مع البنات من أجل الدعوة إلى الإسلام، وباب الدعوة مفتوح لم ينغلق، وحجة تبليغ الدعوة للنساء مدخل من مداخل الشيطان، وقد يودي بصاحبه إلى الخروج من الدعوة ومن الاسلام»[1].

فبادره الأحباش بإطلاق صاروخ من صواريخ التكفير فقالوا: «وهذا كلام باطل قائله خرج من الإسلام». هكذا، وبكل بساطة «قالوها» فخرجت سهلة من ألسنتهم، مع كبرها وعظمها عند الله.

ولسنا بحاجة إلى التفصيل والشرح الذي يوضح أن قولاً كهذا لايخرج قائله من ملة الإسلام إلى ملة الطواغيت، إذ صاحب الفطرة

---

١ - مجلة الشهاب، العدد ٩

السليمة، والصدر السليم (غير المشحون بالحقد والكراهية) لا يستسيغ قبول هذه الكلمة العظيمة عند الله.

فإن الشيخ فيصل لم يكن مبالغاً حين حذر السائل من الاختلاط بالنساء بداعي دعوتهم إلى الاسلام لأنه قد يؤدي بالخروج من الإسلام، إذ قد علم لدينا أن فتنة بني إسرائيل كانت في النساء، وعلم كذلك أن الرسول ﷺ كان يخاف على أمته من فتنة النساء، فليس بغريب أن يحذره من أن يقع بما فتن بني إسرائيل عن دينهم[1] والاختلاط بحجة الدعوة الى الإسلام قد تؤدي الى الانشغال عن الدعوة وعن الإسلام الى أشياء لايحمد عقباها.

والأحباش لا يريدون بذلك أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر، وإنما يريدون بذلك أن يشفوا غليلهم، وينفسوا عما في صدورهم، ويعبّروا عما في نفوسهم تجاه بعض الفئات التي لا يروق لهم وجودها.

فما حذر الشيخ فيصل السائل بقوله (وقد يودي بصاحبه إلى الخروج من الدعوة ومن الاسلام) إلا مخافة أن يستزله الشيطان، فيدعوه إلى الاختلاط بالنساء والتكلم معهن بحجة «الدعوة» لينقله وإياهن بعد ذلك من الدعوة للاسلام «إلى دعوةٍ للخروج منه.

ومن ذلك نعلم أن القصد من إيراد الأحباش لهذه الفقرة، ليس تصحيحها، وإنما القصد منها تكفير صاحبها، فالتكفير كان هو الغاية، وكانت الفقرة هي الوسيلة إلى ذلك.

---

١ - ثم إن اختلاط الرجل بالمرأة بدعوى «الدعوة الى الاسلام» قد يشغله عن الدعوة وعن الاسلام فينسى الدعوة وينسى الاسلام بعد ان تشغله إغراءات الشيطان عنهما وهذا والله أعلم ما أراده الشيخ فيصل - لا كما يتصور بعض أصحاب المفاهيم السقيمة بأنه يكفر كل رجل يختلط بامرأة ويخرجه من ملة الاسلام !

وكفرّوا سيد قطب «صاحب الظلال» زاعمين أنه يكفّر البشرية كلها، مع أن الذي يمضي على طريق تكفير البشرية كلها «واحداً واحداً» هم الأحباش أنفسهم، وهذا أمر اشتهروا به حتى صار يعرفهم بذلك عوام الناس وجهالهم.

وحتى اضطرهم ذلك إلى «التكفير الاحتياطي» لنفاد «التكفير الأصلي» وذلك «كثرة الإنفاق». وامتنعوا عن الصلاة وراء العديد من الأئمة بأن أصبحوا عندهم كافرين، أو فساقاً أو غير ذلك، فكيف يكفّر الأحباش سيد قطب زاعمين بأنه يكفّر البشر مع أنهم هم أحرص الناس على تكفير الناس وإخراجهم لهم من ملة الاسلام؟

وقد أردنا أن نساومهم في أمر «الظلال» فقلنا لهم: إن كنتم ترون في كتابه بعض الأخطاء، فإنا نرجو أن تدونوها لنا، بحيث نعرضها على الناشر ليتفاداها في طبعته القادمة «إذ أن سيداً ليس من الأنبياء المعصومين» فقالوا: «إن ذلك يقتضي تصليح وتعديل كل كلمة فيه» لأنه عندهم كتاب مليء بالضلالات، ويجب تحذير الناس منه.

فهذا لا يدل إلا على «هوى» في النفوس، تريد إخضاع الحق له (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن).

[المؤمنون ٧١]

فهل هذه سبيل المؤمنين من الصحابة وغيرهم؟ هل هذه هي الطائفة الناجية التي أخبر عنها الرسول ﷺ؟

إن صاحب الفطرة السليمة والقلب الخالي من الشحناء يتقن معرفة الجواب على هذين السؤالين!.

ومن يفسّق صحابياً ويجرؤ على النيل منه، ليس عليه ببعيد أن يفسّق أو يكفّر من هو دونه.

والأمر الذي أود أن أشير إليه هو:

أن سيداً «رحمه الله» كان قد أمضى حياته كلها في السجون حتى انتهى به الأمر إلى المشنقة، لأنه لم يرضى أن تكون كلمة «لا إله إلا الله» كلمة لا مدلول لها ولا أثر لها بين من ينتسبون إليها. فآثر كلمة الحق وصبر على دفع ثمنها إلى أن أخفى صوته بالشنق بعد أن عاش حياته في السجن والتعذيب. لا كبعض علماء السوء الدجاجلة الذين يتصدرون المجالس ويمدون أياديهم وأرجلهم ليقبلها الناس لهم!.

بل إنهم يمتدحون من ينبغي تكفيرهم، فيؤولون كلامهم ويلتمسون لهم الاعذار والمبررات كمداومتهم على مدح ابن عربي والشعراني، مع أن الحبشي يعترف بأن في كتب ابن عربي من الكفر الصريح مالا يحتمل التأويل، لكنه يلتمس له الاعذار زاعما أن هذا الكلام مدسوس عليه، أما الشعراني فإننا سنخصص له فصلا تنقل فيه عنه كلاما ربما يزيد على ما قرأناه في كتب ابن عربي[1].

ولا عجب في هذا. فقد خصص الحبشي «للتكفير» أبوابا شتى[2]، واعتنى بهذا الأمر فشرحه وتوسع فيه، وفتح على تلاميذه ابواب التكفير على أوسعها، والواقع يشهد بذلك. وهذا الأمر لم يعد خافيا على أحد فالناس كلهم يشكون وفرة التكفير التي يمتاز بها الأحباش عن غيرهم.

وفصّل الالفاظ التي تؤدي الى الكفر تفصيلا، حتى أنه فصّل كلمة

---

١ ـ الدليل القويم ص ١٥٢

٢ ـ انظر كتابه الصراط المستقيم ص ٨ ـ ١٥، والدليل القويم ١٤٣ ـ ١٥٨، ومنتخبات من الصراط المستقيم ١٤ ـ ١٦

لا أقوى على ذكرها هنا، بل اكتفى بالاشارة الى مكانها في كتبه، ومن أراد الاطلاع عليها فلينظر كتابه «الدليل القويم» الصفحة (١٤٩) السطر رقم (٣) «الابتداء بالعد من اسفل» وكذلك كتابه «الصراط المستقيم» (ص ١٠) (السطر الاول) «العد من أعلى» وقد نقل الالفاظ الموجبة للتكفير «صريحة» وبطريقة مستقبحة.

الى أن يقول: «ويكفر من يقول: العرب جرب»[1] مع أنه يقول بعد ذلك: اما اذا خصص كلامه لفظاً أو بقرينة الحال كقوله: العرب اليوم فسدوا، ثم قال «العرب جرب فلا يكفر، ويكفر من يستحسن هذه الأقوال».

وما الداعي الى هذا التكلف والغلو في التفصيل وكثرة التنقيب عما يدعو ويؤدي الى الكفر، فقد كان مالك رحمه الله يُسأل المسألة فيقول: هل وقعت؟ فإن قيل لا، فانه لا يجيب عليها.

ولو أراد المرء تفصيل ما يدرج على ألسنة الناس من الالفاظ النابية لكلفه ذلك من المجلدات الضخمة مالا يعد ولا يحصى فلا يجوز ان يصل بالحبشي التفصيل في هذا الباب الى ان يوضح من يكفر ممن يقولون «العرب جرب» ومن لا يكفر منهم.

أو أن يذكر في كتابه ذاك اللفظ الذميم الذي لا يجروء قلمي على كتابته[2] ان هذا التكلف وهذا التفصيل لم يكونا من هدي الاوائل ولا من هدي الاواخر.

---

١ ـ منتخبات من الصراط المستقيم ص ١٦، وانظر الصراط ص ١١

٢ ـ مذكور هذا في كتابه الدليل القويم ص ١٤٩ السطر الثالث ما قبل الاخير، كما اشرنا الى ذلك.

وفي الحالة هذه نقول بأنه لايمكن للمطلع على احوالهم هذه أن يقر لهم ويسلم بأنهم هم أصحاب الفرقة الناجية التي استثناها الرسول ﷺ والتي وصفها بأنها التي هي على ماكان عليه هو ﷺ واصحابه.

والتكلف هذا والعداء هذا والتباغض هذا، ليسوا بالحال التي كان ﷺ واصحابه عليها أبدا.

ومما يدل على أنهم لم يتكلفوا ولم يتنطعوا في الدين، ولم يحملوا في قلوبهم الحقد والكراهية والمباغضة، مايقوله عبدالله بن مسعود في وصفهم بأعذب الوصف وأصدقه، يقول رضي الله تعالى عنه:

«من كان منكم متأسيا فليتأس بأصحاب محمد ﷺ فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، (وأقلها تكلفا) وأقومها هديا، وأحسنها حالا» ثم يتابع فيقول بأنهم «قوما» اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ واقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم»(١)

فليست حال الأحباش من آثار الرسول ﷺ ولا صحابته في شيء، ولا في هديهم.

تنفيرهم للناس من بيوت الله

ومن أسوأ أحوالهم أنهم جعلوا بيوت الله، مراكز لهم، يبثون منها دعوتهم، ويتهجمون منها على الناس وينالون من العلماء نيلا، فتجدهم إذا خطبوا الناس على المنابر، نالوا من فلان، وفلان وفلانه، واذا صلوا تخيروا الامام الذي يصلون وراءه فان لم يجدوا لهم إماما قفلوا عائدين، ولم يصلوا

---

١ - جامع بيان العلم وفضله (لابن عبدالبر) ٢/٩٧

صلاة الجماعة، بحجة أن الامام الفلاني غير ثقة وهذا فاسق وذاك مرتاب في أمره والآخر متوقف فيه!

مع أن إبن عمر رضي الله عنه وغيره من الصحابة والتابعين كانوا يصلون وراء الحجاج بن يوسف وغيره من الولاة[1]، فلم يتركوا صلاة المسجد، ويصلوا في بيوتهم مع أن الحجاج زائع الصيت لاتخفي قصصه.

وقد أحدثوا من الجدل والخصومات في بيوت الله مادعا الكثيرين من عوام الناس الى ترك الصلوات مع الجماعة والاكتفاء على اقامة الصلوات في البيوت.

وهذا ماسمعته من الكثير من الناس الذين قالوا: لقد أصبحت بيوت الله وكرا للتحزبات ومنازعة الناس، كلٌ الى طائفته وجماعته، فالاحباش يسبون الرجبيين، والرجبيون يفعلون نفس الشيء، وهؤلاء يشدون المصلين اليهم، وأولئك يشدونهم اليهم ولقد كان الافضل لنا ان نصلي في بيوتنا ونترك هذه المشاكل والصراخ والمخاصمة في بيوت الله.

قلت: «وهل هناك فتنة أشد من هذا الأمر؟ فإنه مع الفتن التي يتعرض لها المسلمون في لبنان، من فتنة الشهوات، وفتنة المال، وفتنة الدعوة الى المذاهب الهدامة كالاشتراكية والشيوعية والقومية الخ . . وما الى ذلك مما يصرفهم عن دينهم، ويشغلهم عن الالتزام والتمسك بهذا الدين ـ بعد هذا كله تزيد هذه الفتن، فتنة اشد منهم، وهي ان تصبح بيوت الله هي الفتنة عن الدين بافتعال ما يرغب الناس عن ارتياد بيوت الله واقتصارهم على الصلوات في البيوت!!

---

١ ـ ثم هذا خلاف ما كان عليه الأشعري إذ يقول: «ومن ديننا أن نصلي الجمعة والاعياد خلف كل بر وفاجر، وكذلك شروط الصلوات الجماعات. كما روي عن عبد الله بن عمر أنه كان يصلي خلف الحجاج». انظر التبيين لإبن عساكر ص ١٦١ والابانة للأشعري ص ٢٦ تحقيق الأرناؤوط والتعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي ص ٥٦

فليس هذا حال (اهل السنة والجماعة) وليست هذه الطائفة هي التي قال عنها رسول الله ﷺ انها هي الطائفة الناجية، بل انها هي البلاء وهي الفتنة التي ابتلى بها المسلمون الى جانب ما أبتلوا به في هذا البلد العجيب.

ضلالات الشعراني

هو عبدالوهاب الشعراني المعدود عند الأحباش من أولياء الله الصالحين. وقد جعلوه شاهداً ودليلاً على صلاح ابن عربي وعلى براءته مما في كتبه، فقد قال الحبشي في ذلك:

«ان الشعراني قال: إنه اطلع على النسخة الاصلية فوجدها خالية من الكفريات»[1] فإن شهادة الشعراني مردودة ولا تقبل، لانه مخرف قال بدوره من الكلام ما يعد كفرا».

وكم أجد نفسي كارها لنقل بعض كلامه لكثرة ما استقبحها، لكن ضرورة تعريف الناس بحقيقة هذا المخرف تدفعني لذلك، وسأنقل بعض حكاياته عن كرامات من يسميهم بالاولياء، يقول في كتابه «الطبقات الكبرى، المسمى بـ «لواقح الأنوار» مايلي:

١ - ومنهم الشيخ محمد الحضري رضي الله عنه.. أخبرني الشيخ أبوالفضل السرسي أنه جاءهم يوم الجمعة فسألوه الخطبة فقال: بسم الله، فطلع المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ومجده ثم قال: وأشهد أن لا إله لكم إلا ابليس عليه الصلاة والسلام. فقال الناس: كفر، فسل السيف ونزل، فهرب الناس كلهم من الجامع.. الى ان قال

---

١ - الدليل القويم ص١٥٢، أي نسخة الفتوحات المكية.

الشعراني: وكان يقول: لايكمل الرجل حتى يكون مقامه تحت العرش على الدوام، وكان يقول: الأرض بين يدي كالاناء الذي آكل منه، وأجساد الخلائق كالقوارير أرى ما في بواطنهم، توفي رضي الله عنه سنة سبع وتسعين وثمانمائة رضي الله عنه»[1] ١٠هـ
انظر كيف يترضى عنه في هذه الفقرة ثلاث مرات مع أنه نقل عنه من الكفر مالا يقبله الجاهل ولا العالم ولا الصغير ولا الكبير.

٢ ـ كرامات محمد الشويمي:

ومرض سيدي مدين رضي الله عنه مرة أشرف فيها على الموت، فوهبه (الشويمي) عشر سنين، ثم مات في غيبة الشويمي رضي الله عنه فجاء وهو على المغتسل فقال: كيف مت؟ وعزة ربي لو كنت حاضرك ما خليتك تموت.. وكان الشويمي رضي الله عنه يدخل بيت الشيخ «يحسس بيده على النساء، فكن يشكين لسيدي مدين رضي الله عنه فيقول: حصل لكم الخير فلا تشوشوا»[2]

٣ ـ كرامات الشيخ أبوخودة:

وكان رضي الله عنه اذا رأى امرأة أو أمرد، راوده عن نفسه وحسس على مقعدته سواء كان ابن أمير أو ابن وزير، ولو كان بحضرة والده أو غيره، ولا يلتفت الي الناس ولا عليه من أحد.. وكان يفعل في العبيد الفاحشة.. وبعد هذا كله قال الشعراني: «رضي الله عنه ورحمنا به والمسلمين»[3]

---

١ ـ طبقات الشعراني الكبرى ١٠٧/٢، إذا وجد القارىء عبارات «رضي الله عنه» فهي ليست مني وإنما أنقلها لأبين للذين يزعمون ان الشعراني إنما يبين أخطاء هؤلاء، ولاوضح لهم أنه لو كان ذلك صحيحا لما أكثر من الترضي عنهم، ولأفصح عن ذلك، بل إنه لايذكر هذه المصائب إلا وهو يعتبرها من كراماتهم وفضائلهم، لأن هذا هو الغرض من كتابه.

٢ ـ الطبقات الكبرى ١٠٣/٢ للشعراني

٣ ـ الطبقات الكبرى ١٣٥/٢

٤ ـ ومنهم سيدي ابراهيم بن عصيفير رضى الله تعالى عنه آمين:
. . وكان بوله كاللبن الحليب «ابيض». . وكان يتشوش من قول المؤذن «الله اكبر» فيرجمه ويقول: عليك ياكلب، نحن كفرنا يامسلمين حتى تكبروا علينا. . وكان يقول: انا ماعندي من يصوم حقيقة إلا من يأكل اللحم الضأني أيام الصوم «كالنصارى» وأما المسلمون الذين يأكلون اللحم الضأني والدجاج أيام الصوم فصومهم عندي باطل»[1].

٥ ـ ومنهم الشيخ ابراهيم العريان رضي الله عنه ورحمه:
وكان رضي الله عنه يطلع المنبر ويخطب عريانا. . فيحصل للناس بسط عظيم، وكان يخرج الريح بحضرة الأكابر، ثم يقول: هذه ضرطة فلان، ويحلف على ذلك فيخجل ذلك الكبير منه، مات رضي الله عنه سنة نيف وثلاثين وتسعمائة رضي الله عنه»[2]

٦ ـ ومنهم سيدي الشريف المجذوب رضي الله تعالى عنه ورحمه:
كان رضي الله عنه يأكل في نهار رمضان ويقول: أنا معتوق أعتقني ربي»[3]

٧ ـ ومنهم سيدي علي وحيش رضي الله عنه:
وكان رضي الله من أعيان المجاذيب. . وكان اذا رأى شيخ بلد أو غيره ينزله من على الحمارة ويقول له: امسك رأسها حتى «أفعل فيها» فإن أبى شيخ البلد تسمر في الأرض، ولا يستطيع يمشي خطوة، وأن سمع حصل له خجل عظيم»[4]

---

١ ـ الطبقات الكبرى ٢/١٤٠
٢ ـ الطبقات الكبرى ٢/١٤٢
٣ ـ الطبقات الكبرى ٢/١٥٠
٤ ـ الطبقات الكبرى ٢/١٥٠

٨ ـ ومنهم الشيخ شعبان المجذوب رضي الله عنه:

.. وكان يقرأ سورا غير السور التي في القرآن على كراسي المساجد يوم الجمعة وغيرها، فلا ينكر عليه أحد، وكان العامي يظن أنها من القرآن لشبهها بالآيات في الفواصل.. ثم يقول الشعراني: «وقد سمعته مرة يقرأ على باب دار على طريقة الفقهاء الذين يقرأون في البيوت، فصغيت الى ما يقول فسمعته يقول: «وما أنتم في تصديق هود بصادقين، ولقد ارسل الله لنا قوما بالمؤتفكات يضربوننا ويأخذون أموالنا، ومالنا من ناصرين، ثم قال: اللهم اجعل ثواب ما قرأناه من «الكلام العزيز» في صحائف فلان وفلان الى آخر ما قال، وكان رضي الله عنه عريانا لايلبس إلا قطعة جلد أو بساط أو حصير أو لباد يغطي قبله ودبره فقط»[٣] وكعادته ختم الشعراني كلامه بالترضي عنه[٤].

٩ ـ كرامات سيدي اسماعيل:

وكان يخبر أنه يرى اللوح المحفوظ، ويقول: يقع كذا وكذا لفلان، فيجيء الأمر كما قال» ١٠هـ[١] مع أن الرسول ﷺ قال (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء) (كما علمه رب العزة أن يقول) فما لهؤلاء القوم قد سبقوا الرسول بكثير من خوارق الأمور؟

---

١ ـ الطبقات الكبرى ٢/١٨٥ ـ ١٨٦

٢ ـ ولعل البعض يعللون ويبررون كفر أولئك، بأنه يبدو للناس كفراً في الظاهر، أو أنهم مجاذيب جذبهم الله، وهذا غير مقبول لأن الصحابة كانوا أشد حبا لله ورسوله ولم يكن أحد منهم مجذوبا كهؤلاء المعتوهين، بل إنه لم يثبت عن رسول الله ﷺ فعلا ظاهرة كفر وباطنه حكمة، فهل ان «الجذب» مرتبة في الحب لم يصلها الرسول واصحابه؟ أم انه الحب على طريقة «مزدك»!

٣ ـ طبقات الشعراني ١/١٨٥

٤ ـ الاعراف ١٨٨

١٠ - ومنهم سيدي ابراهيم المتبولي رضي الله تعالى عنه:
نام عنده جماعة من فقهاء الأزهر فوجدوا عند الشيخ مملوكين «أمردين» من أولاد الأمراء ينامان معه في الخلوة فأنكروا عليه، ثم رفعوا أمره الى الشرع بالصالحية فأرسل القاضي وراءه فحضر فدخل الصالحية فقال: مالكم؟ فقال القاضي: هؤلاء يدعون عليك انك تختلي بالشباب وهذا حرام في الشرع، فقال: ماهو إلا هكذا وقبض على لحيته بأسنانه وصاح فيهم، فخرجوا صائحين فلم يعرف لهم خبر بعد ذلك الوقت، ثم جاء الخبر أنهم أُسروا وتنصروا في بلاد الافرنج.. ورماه أهل بيت من متبول باللواط مع ولدهم فقال: هتك الله ذراريهم فمن ذلك اليوم صار أولادهم مخانيث وبناتهم زناة الى يومنا هذا»(١)

١١ - كرامات الشيخ مدين بن أحمد الأشموني رضي الله عنه:
وجاءته رضي الله عنه امرأة فقالت: هذه ثلاثون دينارا وتضمن لي على الله الجنة؟ فقال لها الشيخ رضي الله عنه مباسطا لها: مايكفي، فقالت: لا أملك غيرها، فضمن لها على الله دخول الجنة فماتت.. ثم جاءت أهلها في المنام وقالت لهم: اشكروا لي فضل الشيخ فإني دخلت الجنة»(٢)

١٢ - ومنهم الشيخ العبد الصالح عبد القادر السبكي رحمه الله تعالى:
أحد رجال الله تعالى.. خطب مرة عروسا فتعرى لها بحضرة أبيها وقال انظري أنت الأخرى حتى لا تقولي بعد ذلك بدنه خشن أو فيه برص..» أما الباقي فإني أخجل من كتابته على هذه السطور

---

١ - طبقات الشعراني ٢/٨٥
٢ - طبقات الشعراني ٢/١٠٢

ويكفي أن أشير الى موضعه في كتاب هذا المخرف[1]

١٣ ـ ويقول في كتابه: الانوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، تحت عنوان: «لا ذكر بعد المشاهدة» أي بعد مشاهدة الله:[2]
«ثم اذا دخل الحضرة وحضر قلبه مع الحق تعالى فليسكت حينئذ، لأنه لا معنى للذكر اللفظي مع شهود الحق تعالى» ثم قال:

ألا بذكر الله تزداد الذنوب وتنطمس البصائر والقلوب

فهذا الذي يستحق التكفير، هو عند الأحباش من الأولياء الصالحين، بل ويجعلون شهادته في صلاح ابن عربي حجة يحتجون بها، ثم يغضون الطرف عن ذكر ما في كتبه هذه من التخريفات. بل أنهم يغضبون له إن لمح لهم أحد بحقيقته.

فأي ولاية وأي تقوى ترجى منه، وهو الذي كتبه مملؤة بالترضي عن «اللواطيين» و «المتعرين» و «المتحللين» من كل حرمة و «المقتحمين» لكل حد؟

فإن زعمتم «كعادتكم» أن هذا الكلام مدسوس عليه، فإنا نقول لكم: ليست المشكلة في هذا ولكن المشكلة والمصيبة مازالت موجودة في كتابه، ويجب تحذير الناس منه، ومما فيه من الزيغ والضلال.

ولا حجة لكم في أن هذا الكلام ليس من قول الشعراني، فالدليل مانطلبه منكم وأنتم لا تملكون شيئا منه، إن تتبعون إلا الظن.

---

١ ـ طبقات الشعراني ٢/١٨٤
٢ ـ مع أن الرسول ﷺ قال: واعلموا أن احدكم لن يرى ربه حتى يموت.
٣ ـ أنظر كتابه الانوار القدسية الجزء الاول صفحة ٨٦ (باب لاذكر بعد المشاهدة) ط دار المعارف/ بيروت.

التوحيد عند الحبشي

ينقسم التوحيد عند الحبشي إلى ثلاثة أقسام:

أولاً: نفي الكثرة المصححة للقسمة عن ذات الله وهي «بزعمه» تفسير الاحد الصمد.

ثانياً: نفي النظير عنه في ذاته وصفاته.

ثالثا: انه منفرد في الخلق والايجاد والتدبير، فلا مساهم له في اختراع المصنوعات وتدبير المخترعات[1]

القسم الأول

أما القسم الأول وهو: نفي الكثرة المصححة للقسمة عن ذات الله فإنا نقول بأن مصدر هذا البند الأول هو من عند أفلوطين (رائد الافلاطونية الحديثة) إذ أنه يقول: «والكثرة لاتوجد فيه بأي اعتبار كما، أن التركيب لايتطرق إليه بأي وجه من الوجوه، وهو لهذا بسيط كل البساطة، كما هو واحد في الذات وحدة مطلقة»[2] ثم يقول: «.. ولأنه

١ ـ الدليل القويم ص ٣٣

٢ ـ الجانب الالهي د. محمد البهي ص ١٠٨ نقلا عن كتب عديدة منها Windelband - Messer - ueberweg كما ان لأفلوطين تفصيلات عن هذا المبدأ في كتابه «أثولوجيا» انظر الوجود الالهي «سانتلانا ص ١٢٧»

واحد من كل وجه، لايوصف بوصف يقتضي تكثراً فيه». إن مصدر الحبشي في هذا القسم الأول هو أفلوطيني محض، لكنه لم ينقله مباشرة عنه بل يحتمل أنه نقله عن كتب الفلاسفة والمتكلمين الذين أخذوا عن افلوطين وارسطو وغيرهما. كالفارابي وابن سينا وابن الرومي وابن رشد والجويني والغزالي وغيرهم.

ومثال ذلك على تأثر هؤلاء بفلاسفة اليونان، قول الفارابي: «واجب الوجود ولا ينقسم بأجزاء القوام مقدارياً كان أو معنويا، وإلا لكان كل جزء من أجزائه إما واجب الوجود، فيتكثر واجب الوجود[1]..»

ومن ذلك قول ابن سينا:
«واجب الوجود لاينقسم في المعنى ولا في الكم».[2]

وهذا يشير الى أن الحبشي يريد أن يجعل ذات الله مجردة من كل صفة تجعل له حقيقة وتزعج وحدانيته بوقوع التكثر فيه لكن الحبشي قد فاته أن صاحب هذا المبدأ وهو «أفلوطين» مع حرصه على عدم وصف الله بصفة تقتضي في الكثرة المصححة للقسمة، فإنه قد وصف الله بأنه «خير» محض مع أنه قد التزم الا يصفه بوصف يؤدي الى التكثر في ذاته ولو بالإعتبار فقال: «فإننا لا نصفه بأنه جوهر ولا عرض، لأن الجوهرية والعرضية من الأمور النسبية، فوصفه بأنه جوهر يستلزم تصور الذهن لعرض معه إذا ما تصوره جوهرا، لأن الذهن لا يقف عندئذٍ على تصور أنه جوهر فقط، بل يندفع لتصور مقابله معه وهو العرض، وذلك من غير شك يقتضي تكثراً في مرتبته»[3]

---

١ - فصوص الحكم للفارابي ص ١٣٢ ، ضمن مجموعة رسائل الفارابي .
٢ - الاشارات لابن سينا ٣/٤٤.
٣ - الجانب الالهي ص ١٠٩

واذا تأمل القارىء هذه الفقرة من كلام هذا الفيلسوف اليوناني، علم السبب الذي حدى بكثير من الفرق من الجهمية والمعتزلة والحرورية وغيرهم الى انكار صفات الله، لأن حجتهم هي ما قاله «افلوطين» وهي أن وصف الله بشيء يؤدي الى التكثر في ذاته مما ينافي وحدته.

وعلى كل حال، فان صاحب هذا المبدأ هو نفسه صاحب الصفة التي أطلقها على الله وهي وصفه إياه بأنه «خير»، وهذا تناقض وتردد، ولا ينبغي لمسلم عاقل يؤمن بالله أن يأخذ عن هؤلاء المتناقضين، فيتخذ من مبادئهم وآرائهم مذهبا له، إذ يكفينا ماجاء به محمد ﷺ، وفي آراء اولئك الفلاسفة اليونان من التناقض ما لا يعلمه إلا الله، وهذا طبيعي جدا، إذ أن كلامهم من عند غير الله.

والأسوأ من هذا كله أن الحبشي قد فسر معنى الواحد الذي لاصفة له ولا قسيم له في ذاته ولا جزء له، هو قوله تعالى: الاحد، الصمد.

إذ لا يوجد في كلام العرب أن الذات الموصوفة بالصفات لاتسمى أحدا، وقد ثبت وصف الأحد على المخلوقات في القرآن الكريم كقوله تعالى «وإن أحد من المشركين استجارك فأجره» [التوبة ٦] وقوله «ولا يشرك بعبادة ربه أحداً» [الكهف ١١٠] وقال «ذرني ومن خلقت وحيداً» [المدثر ١١].

ولفظ الأحد قد أطلق على المخلوقات في تلك الآيات، وهؤلاء المخلوقات يتصفون بصفات قائمة بهم، فكيف يجوز بعد ذلك ان يكون معنى «الأحد» هو مالا يوصف ولا ينقسم؟ ولو كان ذلك صحيحا لما وصف الله المخلوقين بصفة «الأحد» مع أن اولئك المخلوقين متصفون بالعرض والجوهر وبالصفات الكثيرة المؤدية للكثرة (حسب زعمكم).

ومعلوم أن «الأحد» الوارد في قوله تعالى (ولا أشرك بربي أحداً) [الكهف ٣٨] هو غير الله تعالى مما لابد له أن يتصف بصفات المخلوقين فكيف يصفه الله بـ «الأحد»؟ إذ كان ينبغي عندئذ ـ على حد زعمكم ـ أن يقول الله تعالى (ولا أشرك بعبادة ربي مالم يوجد)!!

فاذا كان لا يجوز أن يوصف بأنه «أحد» إلا الله، لأنه لا صفات له تنفي أحديته، فقد وصف الله بها مخلوقاته وفيهم من الصفات الوصف الكثير، وهذا راد ومبطل للاستدلال بـ «الأحد» كشاهد على عدم صحة القسم الاول من توحيد الحبشي.

والقرآن قد نزل بلسان العرب واستخدم وصف «الوحيد والأحد» على المحدثات الموصوفين بالجسم والعرض، وهذا دال على أن استخدام هذا الوصف معروف عند العرب وتحتمله اللغة، فيكون الحبشي قد خالف ثلاثة:

أولا: القرآن لأن صفة الأحد قد ثبتت من كتاب الله على المخلوق.

ثانيا: لغة العرب: لأن العرب لاتعرف أن «الأحد» لا يطلق إلا على مالا يوصف ولا ينقسم.

ثالثا: فلاسفة اليونان، وعلى وجه التحديد (أفلوطين) لأنه نهى عن اتصاف الله بموصوفات تكثر وحدته، ثم وصفه بعد ذلك بأنه «خير» فيكف يكون هذا القسم الأول عاملا من عوامل التوحيد؟

القسم الثاني من أقسام التوحيد

وأما القسم الثاني من أقسام التوحيد عند الحبشي فهو: نفي النظير عن الله في ذاته وفي صفاته.

إنه لاخلاف بيننا وبين الحبشي في أن ذات الله ليست كذوات المخلوقين، وأن له صفات ليست كصفات المخلوقين لكنه من الضروري أن نقف على قضية «صفاته» قليلاً، فالمشابهة بين حقائق صفات الله وبين حقائق صفات المخلوقين هو أمر لا يقول به عاقل، فكما أن ذات الله ليست مماثلة لذوات المخلوقين (ليس كمثله شيء) فكذلك صفاته ليست كصفات المخلوقين، لكن التشابه واقع في مسمى الصفات لا في حقائقها، وقد فصلنا هذا التشابه في الفاظ الصفات في (فصل: الفرق بين صفات الله وصفات المخلوقات) ما يغني عن اعادة ذكره هنا فليراجع.

والتشابه بين مسمى صفات الله وبين مسمى صفات المخلوقين لا يؤدي بحال من الأحوال الى التشابه في حقائق صفات كل منهما، لأن هنالك حاجزاً بين ذلك وهو قوله تعالى (ليس كمثله شيء) (ولم يكن له كفواً أحد) (هل تعلم له سمياً).

فقد وصف الله نفسه بأنه سميع بصير ووصف الإنسان بأنه سميع بصير، وليس سمع وبصر الانسان كسمع وبصر خالقه.

ووصف نفسه بأنه رؤوف رحيم ووصف نبيه ﷺ بأنه (بالمؤمنين رؤوف رحيم) ومع ذلك فليست رأفة ورحمة النبي ﷺ كرأفة ورحمة الله عز وجل الى غير ذلك مما ذكرناه آنفاً.

فنفي النظير عن الله في الصفات إنما يكون في حقائقها لا في مسماها، لأن اشتراك الخالق ومخلوقاته في مسمى الصفات أمر طبيعي وثابت أما اشتراك الطرفين في حقيقتها فهذا تدل على فساده وبطلانه آية (ليس كمثله شيء)، إذ ثبت تشابه مسمى الصفات في الكتاب ولم يثبت في موضع واحد منه تشابه حقائق الصفات الالهية بحقائق صفات المخلوقات.

بل إن في كتاب الله ماهو نقيض ذلك، فإنك تجد الآيات الكثيرة التي تثبت استحالة مماثلة الله لخلقه في شيء من صفاته.

فلو أننا أخذنا صفة القدير من كتاب الله كقوله عز وجل (إن الله على كل شيء قدير) (إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) [الاسراء ٣٠] وقارنتها بصفة القدرة القائمة بالمخلوق كقوله (إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم) (ويزدكم قوة الى قوتكم) ثم قرأت قوله تعالى (الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة) لعلمت أنه لا مجال للمقارنة بين صفة القدرة العائدة على الله، وبين صفة القدرة العائدة على المخلوقات. فلا يلزم من تواطؤ اللفظ تواطؤ المعنى والحقيقة، خاصة، مادام هناك آية من كتاب الله تمنع هذا التواطؤ في حقائق الصفات (ليس كمثله شيء).

فقول الحبشي بأن الله لانظير له في ذاته، فهذا حق، وقوله لا نظير له في صفاته فهذا حق أيضا، وهذا مانذهب نحن إليه، لكن لا ينبغي أن يؤدي ذلك به أن ينفي صفة من صفات الله اذا وجدها في كتاب الله قد أطلقت على أحد من خلقه كقوله تعالى (إن الله كان سميعا بصيراً) وقوله عن الانسان (فجعلناه سميعاً بصيراً) فلا يلزم من وصف الله لنفسه بالسميع والبصير، ووصف الانسان بالسميع والبصير أن تتساوى هاتان الصفتان في كل منهما بنفس المقدار، فنحن نرى الانسان ومن ثم نعلم

كيفية سمعه وبصره، لكن الله تعالى (ليس كمثله شيء) فلا يحملنا شيء على تشبيهه وتمثيله بذوات مخلوقاته إن تماثلت الفاظ الصفات بينهما، لأن تماثلها لفظاً لا حقيقة، ولو كان التماثل حقيقةً لما كان هناك أي لزوم لقوله تعالى (ليس كمثله شيء) ولكانت آية تتلى فقط، ولا فائدة منها في هذا الباب. لكن، يمتنع عقلا ان يكون لله تعالى مثيل في مخلوقاته وفي حقائق خصائصهم وما يتصفون به من الصفات المشتركة لفظا بينهم وبين الله.

فلا بد من اثبات خصائص الربوبية في كل ما يتصف بالله عز وجل، مما هو مشترك بينه وبين عباده، لأنه لولا هذا الاشتراك اللفظي في الصفات لما استطعنا فهم ما خوطبنا به من الصفات الالهية، فكما أنه لم يكن في اثبات ذات الله مماثلة بينها وبين الذوات، وكما أن اثبات وجود الله لا يقتضي مماثلته بوجود الموجودين، فكذلك اثبات صفاته لاتقتضي مماثلتها بصفات المخلوقين.

فالله موجود والعبد موجود، ولا تماثل في وجوديهما، إن اردنا اثبات وجود كل منهما.

فكذلك إذا اثبتنا استواء ونزولا ومجيئا لله، لايقتضي ذلك أن يكون نظير استواء ونزول ومجيء المخلوقين.

وكذلك لايقتضي اثبات اليد والوجه والعين، إن تكون نظير يد ووجه وعين المخلوقين فيلزم من توحيد الحبشي تعطيل صفات الله وتأويلها، لأن اثباتها عنده من التشبيه ولهذا فإنه أجمل الصفات في بعضها بعضا، فأجملها في عدة صفات هي: السمع البصر والقدرة والارادة والكلام والعلم والحياة والوجود والقدم والبقاء والواحدانية، ومنها عدة صفات مبتدعة كالمخالفة للحوادث، والقيام بالنفس والتكوين مع أن الله فصّل صفاته فصفة الاستواء عنده «توهم تشبيهاً» وصفة النزول عنده

«توهم تشبيها» وصفة المجيء عنده توهم تشبيها الى غير ذلك من الصفات الخبرية، مما يلزم تأويلها. أما صفة البصر فلا توهم عنده ذلك وهذا من تناقضه.

وباقي الصفات عنده مجملة في صفات أخرى كما قلنا آنفا، مع أن الله امتدح نفسه بتلك الصفات التي أتت بشكل تفصيلي في كتابه، فما الداعي الى اجمالها؟ وهذا ما يدعو الى القول بأن مذهب التوحيد عند الحبشي «تعطيل في تعطيل» والجواب على هذا كله (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) فإن القسم الأول من هذه الآية هو الشافي من لوثة ورجس التشبيه، والقسم الثاني منها هو الشافي من مرض التعطيل وحسبنا أن توحيد الله لا يتم إلا بهذه الطريقة.

القسم الثالث من توحيد الحبشي

أما القسم الثالث من أقسام التوحيد عند الحبشي فهو:

«ان الله منفرد في الخلق والايجاد والتدبير، فلا مساهم له في اختراع المصنوعات وتدبير المخترعات».

ما من أحد يخالف الحبشي في أنه لاشريك لله ولا مساهم في المصنوعات وتدبير المخترعات.

بل ولا حتى المشركون يخالفونه في ذلك، فإن المشركين يعلمون ويقرون أن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت، ولا يعتقدون أن هناك أحداً يشارك الله في مصنوعاته، وهذا معلوم من كتاب الله تعالى.

قال تعالى: (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله) [العنكبوت ٦١]

وقال سبحانه: (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله) [العنكبوت ٦٣]

وقال عز شأنه: (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم) [الزخرف ٩]

فلم يقولوا بأن أصنامهم تشارك الله في التدبير والخلق والرزق والاحياء والاماتة، بل كانت حجتهم في عبادتهم لهذه الاصنام أنهم قالوا: (ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى) [الزمر ٣] فما كانوا يعبدونها لأنها كانت عندهم خالقة ورازقة، والدليل على ذلك أنهم لو سئلوا من خلق السموات والأرض وأحيا الأرض من بعد موتها ليقولن الله، ولم يقولوا (الله وآلهتنا)!

ولا يكفي ذلك لصحة التوحيد، فلو كان ذلك كافيا لتركهم النبي ﷺ وما يعبدون والمشركون أنفسهم يعلمون أن آلهتهم لا تسمعهم ولا تنفعهم ولا تضرهم شيئا، وفي ذلك كانت حجة ابراهيم عليه السلام على قومه من المشركين إذ قال لهم: (هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعوكم أو يضرون) [الشعراء ٧٢] فسقط في أيديهم وعلموا أنهم لو أجابوه بـ «لا» لكان جوابهم شاهدا على ماهم فيه من الباطل، ولو قالوا «نعم» لشهدوا على انفسهم أنهم كانوا كاذبين وهذا ما دعاهم الى الفرار من اجابة السؤال بأن قالوا: (بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون).

وعلى كل حال فإن مشركي قريش - لم ينكروا على محمد ﷺ دعوته الى رب واحد يحيي ويميت ويخلق ويرزق، وإنما أنكروا عليه أن جعل الآلهة إلها واحداً فقالوا: (أجعل الآلهة إلهاً واحداً، إن هذا لشيء عجاب) [ص ٥]

ثم إن عامة المشركين الذين يشركون مع الله غيره في عبادته من الآلهة المزعومة، يعترفون أنها مملوكة لصانع هذا العالم وهو الله، فقد علم أنهم كانوا يقولون عند طوافهم حول الكعبة:

«لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك» وقد قال عبدالمطلب لأبرهة: «إن للبيت ربا سيمنعه»[1] حينما أراد أبرهة هدم بيت الله، وقال عبدالمطلب أيضا: «هذا بيت الله وبيت خليله ابراهيم عليه السلام، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمته»[2]

وهذا تحقيق قوله تعالى «وتنسون ما تشركون» حينما تواجههم المصائب والمضرات، إذ انهم ينسون تلك الآلهة التي يشركون بها مع الله، ثم إذا كشف الضر عنهم إذا هم نسوا ما كانوا يدعون اليه وجعلوا لله أنداداً.

فلما علم عبدالمطلب أن ابرهة يريد هدم البيت الحرام، نسي الأصنام التي يعبدها وقومه، لإقراره في نفسه أنها لن ترد ابرهة عن هذا البيت، فخضع للواقع وقال «إن للبيت ربا سيمنعه» ولم يجعل له نداً في ذلك، وأقر بأن الذي يملك حماية هذا البيت والدفع عنه هو الله وحده.

وهذا التوحيد يسمى «توحيد الربوبية» وهو توحيد الله بأن الرب هو الخالق الرازق المحيي المميت القادر، لكنه ليس كافياً، ولا بد أن يقترن «بتوحيد الألوهية» الذي يحرم على العبد اتخاذ إلها آخر مع الله.

فلا ينفع العبد ان يعتقد بأنه لاصانع ولا خالق ولا مدبر إلا الله، حتى يعبد هذا الصانع، ولا يعبد معه أحداً، حتى يعتقد أنه هو المعبود

---

١ ـ أي سيحميه ويدافع عنه

٢ ـ تهذيب السيرة النبوية «لابن هشام» ٢٧ ـ ٢٨

وحده بحق، لأن الآلهة المزعومة لاتملك ما يملكه الله، ولا تقدر على مايقدر عليه، فلا تستحق بذلك أن تكون شريكة لله في العبادة.

والمشركون لاينفعهم أن يعتقدوا أن الله هو المتفرد بالرزق والاحياء والاماتة، مع أن هذا يسمى (توحيد الربوبية) لأنهم لم يقرنوا معه (توحيد الألوهية) الذي يلزمهم أنه: إن كان الرب هو الخالق الرازق المحيي المميت، فهو المألوه الذي تألهه المخلوقات، ولا تأله شيئا معه.

والحبشي لم يفرق بين هذين النوعين من التوحيد، وظن أن توحيد الألوهية هو توحيد القدرة على الاختراع والتدبير، وخلط في ذلك بين توحيد الالوهية وتوحيد الربوبية وأن من أقر بأن القادر على الاختراع هو واحد، فقد اتى بالتوحيد الخالص، ثم استدل على هذا التوحيد «الناقص» بقوله تعالى (لو كان فيهما آلهةإلا الله لفسدتا) [الانبياء ٢٢] ثم زعم أن هذه الطريقة في التوحيد تسمى بدلالة التمانع، وهذا ليس بصحيح، لأن المشركين لم يكونوا يقولوا بأن هناك أكثر من قادر واحد وصانع واحد، بل كانوا يعتقدون بأن الصانع واحد، ومع ذلك اتخذوا آلهة كثيرة، وهذا ثابت بالدليل من كتاب الله كقوله تعالى: (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله) ولهذا قال الله لهم بعد ذلك (أفلا تعقلون) أي تقرون بأنه هو الخالق وتشركون به مالا ينفع ولا يضر؟ فعلم من ذلك أن استدلال الحبشي بتلك الآية (لو كان فيمها آلهةإلا الله لفسدتا) بانها دليل على أن توحيد الصانع في الاختراع هو استدلال خاطىء لأن الله قد ذكر لنا إقرارهم على ذلك. وإنما أراد بهذه الآية أن الأله الحق هو الذي ينبغي توحيده في الألوهية، فهو إله بمعنى مألوه وهذا هو السبب الذي ارسل الله من أجله الرسل لتوحيد هذا الاله الذي يقر بربويته المشركون، وينكرون ألوهيته.. (أجعل الآلهة الهاً واحداً)؟

فقد ابتدأت دعوة كل من الرسل بأن قالوا: (اعبدوا الله مالكم من إله غيره) وقال عز وجل: واسأل من أرسلنا قبلك من رسلنا اجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) [الزخرف ٤]

أما الاعتراف بصانع واحد ومدبر واحد، فقد أقر به المشركون، ولهذا فإن الحبشي لم يأت بالتوحيد الصرف والذي يبطل الشرك من أصله، بل أتى بما يوافقه المشركون انفسهم عليه، فلا حقت دلالته حقا، ولا أبطلت باطلاً .

الصِّفاتُ عِندَ الحَبشي

الصفات عند الحبشي مختصرة ومختزلة إلي إثنتي عشرة صفة فقط أو قل ثلاث عشرة صفة، منها بعض صفات لم تثبت لا في كتاب ولا في سنة كصفة المخالفة للحوادث، والقيام بالنفس. مع أنه ترك باقي الصفات التي ثبتت في كتاب الله تعالى وفي سنة نبيه ﷺ ونفاها ثم لجأ إلى وصفه بما لم يصف به نفسه.

وكذلك يقول الحبشي بأن «مخالفة الحوادث» صفة لله عز وجل، وهذه الصفة لم يأت بها من كتاب الله أو سنة رسوله وإنما التزم بها لأنها من نتاج عقائد الفلاسفة اليونانيين ومن أخذ عنهم كابن رشد والغزالي والجويني والجصاص. ومن نتاج قاعدتهم القائلة «بأن ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث» فليست هي مستخرجة من آية من آيات الله، ولا من حديث من سنن وهدي رسولهﷺ. وإنما هي قاعدة فلسفية المصدر أخذها المتكلمون وجعلوها أصلا في الدين. ولو أنهم رجعوا الى كتاب الله والى سنة رسوله لوجدوا فيهما من هذا الباب ما يغنيهم عن هذه القاعدة المستحدثة.

فقد قال تعالى (كما بدأنا أول خلق نعيده) [الأنبياء ١٠٤] دل على أن المخلوقات كلها محدثة مسبوقة بالعدم المحض.

وقال تعالى (أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً)

[مريم ٦٧]. وقال سبحانه (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) [الدهر ١].

وهناك المئات منْ الآيات الكريمة التي يبين الله لنا فيها ما خلقه من المخلوقات. فكلمة «الخلق» التي في اللغة هي استدلال بحد ذاته لا يحتاج معها إلى قواعد الفلاسفة. فمعلوم أن المخلوقات يسبقها عدم، وهذا معنى كلمة المخلوق «في اللغة»، فلا تقبل اللغة أن تطلق هذه الكلمة (مخلوق) عمن لا أول له.

ولا تقبل اللغة أن تطلق على الله سبحانه كلمة (مخلوق) لأنه علم أنه «الخالق» وأن من يكون في اللغة خالقاً، لا يمكن بحال من الأحوال أن يسمى أيضاً (مخلوقاً). والله سبحانه يبيّن عجز مخلوقاته عن أن يتصفوا بصفة «الخالق» فقال:

(أفمن يخلق كمن لا يخلق) [النحل ١٧].
(واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون) [الفرقان ٣].
(هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه) [لقمان].

فبين تعالى أنهم عاجزون عن خلق شيء ما، لانهم هم أنفسهم من ضمن المخلوقين المحدثين المسبوقين بالعدم.

فلا يحتاج مع هذا الى الأخذ بأقيسة المتكلمين الجدلية لإثبات قدم الخالق وحدوث من سواه لأن هذا ثابت بكثرة في كتاب الله، ومن ثم في سنة رسولهﷺ: ومن ذلك ما رواه عنه عمران بن حصين رضي الله عنه أنه قال: كان الله ولم يكن شيء قبله[1] دل هذا الحديث أن الله كان ولم يكن أي شيء من المخلوقات.

---

١ ـ رواه البخاري في باب بدىء الخلق والبيهقي في الأسماء والصفات.

فما الحاجة بعد الكتاب والسنة الى تلك الأقيسة وهذه القواعد.
فمن قبل أن تدخل هذه الفلسفات لم يكن أحد يقول بأزلية شيء من هذه المخلوقات، لكن، بعد أن دخلت علينا أخذها جماعة من المفتونين كابن سينا وغيره.

وأخذوا القول بأزلية هذه الموجودات عن بعض الفلاسفة وبالتحديد من أرسطو ومع أن الحبشي يخالف هذا القول، ويختلف مع الفلاسفة في هذا الباب، إلا أن ذلك لا يغير من هذه الحقيقة شيئاً، وهي أن مصدر الحبشي ومصدر ابن سينا واحد، وهو فلاسفة اليونان، وإن أخذ الحبشي عن متفلسف يوناني غير المتفلسف الآخر الذي أخذ عنه ابن سينا، والحكم فيهما واحد، وهو أن هذه القواعد مبتدعة لا فائدة منها، بل فيها من الجدل والخصام في الله ما يسبب الضرر والفتنة بين عوام الناس، وهذا ما جعل الجدال والقيل والقال مذموم في الدين، فهذه الفلسفة لا تغني دين الاسلام بدخولها فيه، كما لا تضره بخروجها عنه.. ما دام الله قد أكمل هذا الدين فقال: (اليوم أكملت لكم دينكم) وهذا ما جعلني أحمل على الحبشي. إذ أنني لا أسأله عن كون هذه القواعد مبتدعة في الدين أم ليست كذلك، لكنني ألومه وأسأله عن مصدر هذه البدعة، وهي أنها يونانية سبق وأن دمرت وأهلكت الديانة التي قبلنا، وهذا هو خطرها العظيم.

ولنترك الكلام لابن خلدون ليبين لنا كيف دخلت تلك الفلسفات الاسلام وكيف أخذها الفلاسفون والمتكلمون وقولبوا بها دين الله، فقال:

«وإمام هذه المذاهب الذي حصّل مسائلها ودوّن علمها وسطّر حججها فيما بلغنا في هذه الأحقاب هو «أرسطو» المقدوني من أهل مقدونية من بلاد الروم من تلاميذ أفلاطون وهو معلم الاسكندر ويسمونه المعلم الأول إلى أن قال: «ثم كان من بعده في الإسلام من أخذ بتلك المذاهب

واتبع فيها رأيه حذو النعل بالنعل إلا في القليل، وذلك أن كتب أوَلئك المتقدمين لما ترجمها الخلفاه من بني العباس من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي تصفّحها كثير من أهل الملة وأخذ من مذاهبهم من أضله الله من منتحلي العلوم، وجادلوا عنها، واختلفوا في مسائل من تفاريعها».[1]

ويقول سانتلانا في مقدمة كتابه «الوجود الإلهي بين انتصار العقل وتهافت المادة»[2]:

«باسم الله - أيها السادة إن المقصود من هذه المحاضرات هو النظر فيما كان بين الفلسفة اليونانية والمذاهب الإسلامية من التعلق، سيما مذاهب فرق المتكلمين، المعتزلة منهم، والأشاعرة، ثم حكماء الإسلام لكي يتحقق ما اكتسبته كل فرقة «من اليونان» وكيف أفرغته في قوالب الإسلام».

ثم ذكر بعد ذلك تأثر كل فرقة من هذه الفرق بفيلسوف من فلاسفة اليونان وذكر منهم «ديموقراطيس» صاحب القول «بالجزء الذي لا يتجزأ» والذي هو عند الأشاعرة من أمهات مذهبهم في الطبيعة.[3]

وكذلك فإن المشهور عن فلاسفة العرب أنهم اتبعوا بالجملة آراء أرسطو، حتى لقد قال «الشهرستاني في الملل والنحل»[4]: إن المتأخرين من فلاسفة الإسلام قد سلكوا طريقة أرسطاطاليس» في جميع ما ذهب إليه».[5]

---

١ - مقدمة ابن خلدون ص ٥١٥

٢ - صفحة ٢٧ - ٢٨، وانظر المذاهب اليونانية الفلسفية ص ٢١ تحقيق د. محمد جلال شرف

٣ - نفس المصدر ص ٢٩، والمذاهب اليونانية ص ٢٣

٤ - ينقل هذه الفقرة عن الشهرستاني، جميل صليبا في محاضراته التي أقامها في معهد الدراسات الأدبية، وفي كلية الآداب، والمجموعة ضمن كتاب «من افلاطونيات ابن سينا ص ٢٠ - ٢١.

٥ - الشهرستاني (الملل والنحل) ص ٥٠ مطبعة بولاق مصر، ولم أجد هذا النص بلفظه في النسخة التي عندي (طبع دار الفكر) لكني وجدت ما يشابه ٢/١٥٧ - ١٥٨.

وهذا ما يبين الفرق بين مصدري في التزام هذا الدين، ومصدر الحبشي في ذلك فإن مصدري هو ما قال الله عنه بأنه «هدىً للمتقين» أي كتاب الله.

أما مصدر الحبشي فإنه من عند فلاسفة لم يهتدوا إلى ما يليق بالله وما لا يليق به، بل حكموا عليه ووصفوه بما أنتجته أفكارهم الضالة، فلم يعرفوا إسلاماً ولم يسجدوا لله سجدةً واحدة على طريقة أهل الإسلام، فكيف تفضل طريقتهم على طريقة الكتاب والسنة، ويؤدي اتخاذ المفتونين بها إلى تعطيل الكثير مما أمرنا الله بإثباته.

تأويل صفة اليد

ومن الصفات التي يتصف بها الباريء سبحانه وتعالى هي صفة اليد، وقد وصف نفسه بذلك من هو أعلم وأحرص منا على التنزيه، ودلالة حرصه أن علمنا أنه لا مثيل له سبحانه، وأمرنا أن نؤمن بما وصف به نفسه، ونؤمن أيضاً بما نزه به نفسه فقال (ليس كمثله شيء)، فالإيمان بآيات الصفات مقترن بالإيمان بهذه الآية، والإيمان بهذه الآية يستلزم الإيمان بآيات الصفات وعدم جحودها وعدم تعطيلها على طريقة التأويل.

ولنترك بعض الكلام لابن الجوزي على وجوب إثبات صفة اليد وغيرها، قال:

«إعلم أن الحق تعالى يوصف باليدين والوجه والعين، على الوصف الذي يليق به، أما اليدين فقد قال (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ) وقال (بل يداه مبسوطتان) وقال النبيﷺ: «إن الله خلق آدم بيده» و«كتب التوراة بيده» «وغرس جنة عدن بيده».

فوجب القول بذلك والتسليم له ونفي التشبيه عنه... فالمعتزلة قالوا: المراد باليد القدرة أو النعمة، والمراد بالوجه الذات، وتأولوه تأويلاً باطلاً... والمشبهة قالوا: أراد باليد الجارحة، والوجه الصورة، وأهل السنة أثبتوا اليد ونفوا الجارحة.

ثم قال: «وقول المعتزلة: إن المراد باليد: القدرة، باطل لأنه يؤدي أن تكون لله قدرتين فإنه قال (لما خلقت بيديّ). وكذلك لا يجوز أن يقال: إن الله تعالى (خلق آدم) بنعمتين، والحق تعالى لا يخلق الخلق بمخلوق.

ولو كان الأمر كما زعموا لما كان لآدم فضيلة على إبليس، إذ يقول «وأنا بيدك خلقتني» التي هي قدرتك ونعمتك[1]، وفي العلم بأن الحق أخرج هذا القول «للتعظيم»، فخروج التعظيم لآدم دليل على فساد ما تأولوا». [2]

ثم روى سؤال عبدالله لأبيه أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى عن قول رسول الله ﷺ: «خمرت طينة آدم بيده أربعين صباحاً» فقال له: «يا بني، إذا سألت عن اليد في صفة الخالق، فينبغي أن تقطع يدك أو تخبئها في كمك ثم تسأل». وقال ابن الجوزي عقب هذه الرواية: «إشارة إلى أن يد الحق ليست كذلك جارحة كيدك». [3]

وكذلك فقد ورد عن البيهقي ما يؤيد قول ابن الجوزي.

قال البيهقي:

«قال الله عز وجل (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ) [ص ٧٥] بتشديد الياء من الاضافة وذلك تحقيق في التثنية، وفي ذلك منع من حملها على النعمة والقدرة، لأنه ليس بتخصيص لتثنية ولا في قدرته معنى يصح، لأن نِعَم الله أكثر من أن تحُصى». [4]

---

١ ـ ويبين ذلك حديث رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم بيده» فدل ذلك على أن هذه الخاصية يمتاز بها آدم على غيره من المخلوقات.

٢ ـ مجالس ابن الجوزي ص ٦ و٧

٣ ـ «مجالس ابن الجوزي» مخطوطة مصورة بالميكروفيلم في (معهد إحياء المخطوطات العربية) بمصر، والتابع لجامعة الدول العربية، تحقيق جهاد البنا.

٤ ـ الاعتقاد، ص ٢٩

وروى الحافظ ابن عساكر عن أبي الحسن الأشعري قوله عن المعتزلة: «وأنكروا أن يكون لله يدان، مع قوله (لما خلقت بيديّ)[1]» وقال «وأن له يداً كما قال (بل يداه مبسوطتان)[2] [المائدة ٦٤].

ولكي أكون منصفاً، فإني أقر بأن الحبشي قد أثبت صفة اليد لله عز وجل، على أنها ليست كأيدي المخلوقات، وهذا ما وجدته في كتابه «الدليل»[3] إذ أنه نقل عن البيهقي وابي حنيفة ما يفيد إثبات ذلك.

لكني وجدت نفي هذه الصفة عند تلاميذه، وإثباتها، فهم يقولون: يصح إثبات صفة اليد، ويصح تأويلها على أنها النعمة والقدرة، ولا ينكر على المتأولين.

أي أنهم تارة يثبتون الصفة وتارةً يعطلونها بالتأويل. ويريدون أن يكون ذلك حلاً وسطاً بينهم وبين من يثبت الصفة ويستقبح التأويل.

ففي قولهم: يجوز الإثبات ويجوز التأويل. هو باطل، لأنه لا يجوز تعدد الاحتمالات في صفات الرب جلا وعلا، فما أنزل الله هذه الصفات لنتذبذب فيها، فلا يجوز أن نقول: يجوز أن يكون الله كذا، ويجوز أن يكون كذا، وهذا من مخلفات مصيبة التأويل، إذ أن التأويل كله ظن في ظن، ولا يفيد القطع وهذا باعتراف المتأولة، وعلى رأسهم الحبشي كما قال ذلك في كتابه.[4] ولا يكون القطع واليقين إلا على وجه الإثبات مع إضافة (ليس كمثله شيء).

ولنعد إلى الحبشي فنقول له: إن كنت تثبت صفة اليد والوجه لا من

---

١ ـ تبيين كذب المفتري ص ١٥٧، وانظر الإبانة للإمام أبي الحسن الأشعري ص ١٤.
٢ ـ تبيين كذب المفتري ص ١٥٨
٣ ـ الدليل القويم ص ٤٧ و٥٣
٤ ـ الدليل القويم ص ٤٧

حيث الجارحة ولا من حيث الصورة، فما يمنعك بعد ذلك أن تثبت الاستواء والنزول وتنفي عنهما في المماثلة ما نفيته عن اليد والوجه؟

فإن كان الاستواء والنزول يوهمان عندك المماثلة فكذلك يقتضي نفس الأمر في اليد والوجه، فاثبت الكل مع التنزيه أو انف الكل فتقع في التعطيل. أما أن تؤول صفات الاستواء والعلو والنزول، وتصرفها عن مراد الله لها، بحجة صرف العوام عن الجسمية كما تزعم فإنه يقال لك: لم لا تتأول صفتي اليد والوجه أيضاً بصرف العوام عن الجسمية فتكون بذلك قد صرفتهم عن كل الصفات التي توقع العوام في الجسمية، أما تخشى حين تصرفهم عن بعضها أن يقعوا في الصفات التي لم تصرفهم عنها؟ أم أنك تخشى أن تسمى عند ذلك «معطلاً صرفاً»!. أو إثبت باقي الصفات كما أثبت صفتي اليد والوجه مع التنزيه (على طريقة القرآن).

أما حجتك التي تتمسك بها وهي «صرف العوام عن الجسمية فهذه حجة واهية، أهداك إياها شيخ المعطلة «إبليس» ليوقعك في التعطيل، إذ أن الله قد صرف عوام الناس وعلماءهم عن المماثلة حين قال (ليس كمثله شيء) (ولم يكن له كفواً أحد) (هل تعلم له سمياً).

فما أفادت طريقتك تنزيها، ولا أزاحت تشبيها، وما زادتك إلا نفياً وتعطيلا، فأعملت بها في آيات الله تأويلاً، وكان هذا التأويل تحريفاً وتبديلا.

واختر لنفسك طريقاً واحد:

إما إثبات باقي الصفات الزائدة على صفتي اليدين والوجه اللتين أثبتّهما في كتابك، وعلى وجه يليق بالله تعالى.

وإما تأويل صفتي اليد والوجه والسمع والبصر، لباقي الصفات التي تأولتها.

أما أن تثبت هذه الصفة وتتأول تلك فهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ترددك وعدم استقرارك على منهج واحد، وعلى كل حال، فإن هذا التردد كان ـ ولا يزال ـ ميزة أهل الكلام ولولا مخافة الإطالة لذكرنا الشاهد على ذلك.

فائدة مهمة

إن التشبيه والتمثيل هو أمر يزينه الشيطان للعبد ليوقعه في المحظور، والوسوسة هذه هي أمر طبيعي ينبغي على العبد الحذر منه من غير أن يؤدي به إلى التعطيل وإنكار صفات الله بهذه الحجة.

إذ أن الشيطان يوسوس له ويزين له أموراً كثيراً غير هذا، فلا يعقل إن زين الشيطان لأحدنا السرقة أو المطعم الحرام أن يؤدي بنا ذلك الى حرمان أنفسنا من الطعام بحجة أن السرقة تدور بخاطرنا!

وكذلك لا يجوز أن يؤدي بنا الأمر إلى تعطيل الصفات الإلهية إن وسوس لنا الشيطان أن نفهمها على أنها من جنس صفات المخلوقين فالحاصل أن هذا التشبيه هو دعوة من الشيطان كأي دعوةٍ أخرى منه، كالسرقة والزنا والقتل وغيره، فلا ينبغي أن نحرم أنفسنا من الزواج الحلال إن زين لنا الزنا، أو أن نقتل أنفسنا إن دعانا لقتل الغير، أو أن نعطل وننكر ما أثبته الله لنفسه إن دعانا الشيطان إلى تشبيهها بصفات المخلوقين.

الإتيان والمجيء

ومن جملة ما تأوله الحبشي، أنه تأول آيات المجيء والإتيان فالمجيء ورد في قوله تعالى:

(وجاء ربك والملك صفاً صفاً) [الفجر ٢٢]

والإتيان كقوله تعالى:

(هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر) [البقرة ٢١٠] فقال الحبشي: وجاء ربك أي وجاء أمره[1]، والآية الثانية معناها: يأتي أمره.

وهذا تصريف للآيات على غير مراد الله، وعبث وتلاعب بكتابه. والتأويل هذا لا يصح على أي وجه من الوجوه.

فمن جهة المجيء نقول: لا ريب أن كلام الله من أفصح الكلام وأبينه، فلو كان مجيء الأمر لله لقال مثلاً (وجاء أمر ربك)، ولو كان مراده مجيء الأمر وقال (وجاء ربك) لبقي الأمر مبهماً وملتبساً على الناس، ولأصبح كتاب الله سبباً في اختلاف الناس وتضارب أقوالهم، ويكون بذلك مخالفاً لما قال الله فيه: (هذا بيان للناس) (بلسان عربي مبين)

---

١ ـ الصراط المستقيم ص ٢٤ ـ ٢٥

(وفصلناه تفصيلاً)، وكيف يكون بعد ذلك مبيناً ومفصلاً ثم ينزل فيه آياتٍ مخالفة لمراده؟ لم يتبين أمرها للناس إلا عن طريق المتأولة بل قد ورد في كتابه ذكر مجيء الأمر وإتيانه، فأما مجيء الأمر كقوله تعالى:

١ - (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور).[١]

٢ - ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه). (ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً)، (ولما جاء أمرنا نجينا صالحاً).[٢]

٣ - (يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك).[٣]

٤ - (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها).[٤]

٥ - (فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله لما جاء أمرربك)[٥]

٦ - (فإذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنا لك المبطلون).[٦]

فلو كان قوله تعالى (وجاء ربك والملائكة صفاً صفاً) يعني به مجيء الأمر أي (وجاء أمر ربك) لبيّن ذلك وأوضحه، كما أوضح ذلك في باقي الآيات.

بل إن في السنة ما يبطل هذا التأويل الباطل، فقد ثبت في صحيح البخاري قوله ﷺ في الحديث المروي له عن أبي هريرة:

«. . . فيأتيهم الله فيقول لهم: أنا ربكم، فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاءنا ربنا عرفناه، فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا «فيتبعونه»[٧]. . . » وللحديث بقية طويلة.

---

١ - هود ٤٠
٢ - هود ٥٨ و٩٤ و٦٦.
٣ - هود ٧٦
٤ - هود ٨٢
٥ - هود ١٠١
٦ - غافر ٧٨
٧ - أخرجه البخاري ١٧٩/٨ باب (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة).

فإن أراد الحبشي تأويل الإتيان والمجيء الوارد في الحديث على أنه المراد به إتيان ومجيء أمر الله، قلنا له: فما معنى «فيتبعونه» التي في آخر الحديث هل معنى ذلك أنهم «يتبعون أمره»؟

وما معنى قول «المؤمنين» الذي في الحديث (هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا)؟

ولماذا لا تثبت هاتين الصفتين، كما نقلت ذلك عن البيهقي في كتابك[1] في إثباته لهما؟ وتنفي عنهما التمثيل بقولك: (ليس كمثله شيء).

قال حماد بن أبي حنيفة: قلنا لهؤلاء أرأيتم قول الله عز وجل (وجاء ربك والملك صفاً صفاً) قالوا: أما الملائكة فيجيئون صفاً صفاً، وأما الرب تعالى فإنا لا ندري ما عنى بذلك، ولا ندري كيفية مجيئه. فقلت لهم: إنا لم نكلفكم أن تعلموا كيف جيئته، ولكنا نكلفكم أن تؤمنوا بمجيئه... ثم قال: أرأيتم من أنكر أن الملك لا يجيء صفاً، ما هو عندكم؟ قالوا: كافر مكذب، قال: فكذلك إن أنكر أن الله سبحانه لا يجيء فهوكافر مكذب[2].

ثم أن تأويل (وجاء ربك والملك) على أنه جاء أمره، لا يصح، لأن ذلك يقتضي فصل الفاعل (الملائكة) عن الفاعل الأول (ربك) مع أن واو العطف تعطيهما حالة واحدة فتعطف الفاعل الثاني على الأول وتجمع بينهما في حالة واحدة. ثم لو كان المجيء هو مجيء الأمر لما قال الله تعالى صفاً صفاً فهل يعقل أن يكون معنى الآية (وجاء أمر ربك وأمر ملائكته صفاً صفاً)؟

ولو أن الله قال (وجاء ربك) فقط، ولم يتبع قوله هذا بـ (والملك

---

١ ـ الدليل القويم ص ٥٦

٢ ـ عقيدة أصحاب الحديث لشيخ الإسلام إسماعيل الصابوني ١/١١٨ ضمن مجموعة الرسائل المنيرية، ط دار إحياء التراث العربي.

صفاً صفاً) لكان في الأمر نظر، لكن الفعل الذي في الآية وهو (وجاء) ذو فاعلين الفاعل الأول وهو (ربك) والفاعل الثاني (والملك) ويقتضيان حالة واحدة، فإن قلت أن معنى (وجاء ربك) أي جاء أمر ربك، وجب إضافة ذلك إلى الملك أيضاً، لأن واو العطف تعطف الفاعل الثاني على الفاعل الأول، فيكون المعنى عندئذٍ (وجاء أمر ربك وأمر الملك) وهذا لا يصح، ولو افترضنا أنه صحيح فما معنى (صفاً صفاً)؟ فإنه لا يصبح لها أي معنى حينئذٍ ويكون وجودها غير لازم إذ قد علم أن قوله تعالى (صفاً صفاً) هو وصف للمجيء، وتأويل المجيء على أنه مجيء الأمر يعطل هذا الوصف.

قال ابن كثير في تفسيره: «فيجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء كما يشاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفاً صفوفاً».[1]

وروى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما حديثاً مطولاً يحكي فيه عن يوم القيامة، يقول في آخره:

فيجيء الله فيهم والأمم جثي (أي تجثو) صفوف وينادي مناد: ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم، ليقم الحمادون لله على كل حال، قال: فيقومون فيسرحون إلى الجنة».[2]

وروى كذلك عن وهب قال: ثني حرملة بن عمران أنه سمع عمر مولى غفرة يقول: «يقول تعالى وإذا جاء ربك يا محمد وأملاكه (أي وملائكته) صفوفاً صفاً بعد صف».[3]

وروى عن الضحاك قوله:

«. . . ونزل من فيها من الملائكة فصفوا صفاً دون صف، ثم ينزل

---

١ ـ تفسير ابن كثير ١/٥١٠

٢ ـ تفسير ابن جرير الطبري جـ ٣٠ ص ١١٨

٣ ـ نفس المصدر

الملك الأعلى على مجنبته اليسرى جهنم» وعن قتادة: «وجاء الله يومئذٍ بجهنم، وقال كذلك: «جنبتيه الجنة والنار حين ينزل من عرشه إلى كرسيه لحساب خلقه، وقرأ. . وجيء يومئذٍ بجهنم». ثم روى ابن جرير حديث الشفاعة في الموقف، وهو حديث طويل إلى أن يقول فيه: «حتى نزل الجبار في ظلل من الغمام والملائكة ولهم زجل من تسبيحهم».(1)

وفي ختام ذلك، نذكر عقيدة الإمام أبي الحسن الأشعري رحمه الله في هذه الآية، فيما يرويه عنه الحافظ ابن عساكر في «تبيين كذب المفتري»، والذي يزعم الحبشي على أنه بريء ممن لا يعتقد بعقيدته، يقول أبوالحسن:

«ولا نقول على الله ما لا نعلم، ونقول إن الله تعالى يجيء يوم القيامة كما قال (وجاء ربك والملك صفاً صفاً)».

فتأمل كثرة التناقض عند الحبشي.(2)

---

١ ـ نفس المصدر جـ ٣٠ ص ١١٩ ـ ١٢٠. وكذلك ١٩٢/٢

٢ ـ تبيين كذب المفتري ص ١٦١، والإبانة عن أصول الديانة للأشعري ص ٢٥ ـ ٢٦ تحقيق الأرناؤوط.

الإتيان

وأما الإتيان فلا يصح أن يكون إتيان الأمر، لأن الله قد ذكر إتيان الأمر حينما كان ذلك مراده، فقال:

(أتى أمر الله فلا تستعجلوه).

(أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً)

ثم ذكر آية فصل فيها بين مجيء الله وبين مجيء أمره، وذلك في آية واحدة فقال:

(هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك، أو يأتي بعض آيات ربك).

ولما كان مراده إتيانه هو، لا إتيان أمره قال:

(هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك).

(هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر).

فإن كان الحبشي ينكر على من يؤول قوله تعالى (أتى أمر الله) على أنه أتى الله، فنحن ننكر عليه العكس كذلك، لأن الأدلة التي يمتلكها الحبشي في تأويله يمتلكها خصمه المضاد له، إذ يقول: أنا أؤول (أتى أمر الله)

بقرينة وهي (يأتيهم الله). والحبشي يقول: أنا أؤول قوله تعالى (يأتيهم الله) على أنه إتيان الأمر لقوله (يأتي أمر ربك) والخصمان متلاعبان بآيات الله عابثان بها، يعملان بها تأويلاً وتبديلاً. والحق في ذلك أن نقف عندما وصف الله به نفسه ولا نقول برأينا[1] وهذا ما يقوله الحبشي لكنه يتناقض.

قال القاسمي[2] في محاسن التأويل:

وصفه تعالى نفسه بالإتيان في ظلل من الغمام كوصفه بالمجيء في آيات أخر ونحوهما مما وصف به نفسه في كتابه أو صح عن رسوله ﷺ. والقول في ذلك من جنس واحد. وهو مذهب سلف الأمة وأئمتها:

أنهم يصفونه سبحانه بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، والقول في صفاته كالقول في ذاته... إلى أن قال:

«فلو سأل سائل: كيف يجيء وكيف يأتي؟ فليقل له: كيف هو في نفسه؟ فإذا قال: لا أعلم كيفية ذاته! فليقل له: وكذلك لا تعلم كيفية صفاته. فإن العلم بكيفية الصفة يتبع العلم بكيفية الموصوف».[3]

وقد روى ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال:

«يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم أربعين سنة، شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء، وينزل الله في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي».[4]

---

١ ـ وهذا هو قول الحبشي لكنه يناقضه بكثرة خوضه فيها والقول فيها برأيه راجع كلامه في الدليل القويم ص ١٥١ وص ١٦١ تجد فيهما نهية عن التأويل وباقي كتابه مملوء بالتأويل.

٢ ـ محمد جمال الدين القاسمي «علامة الشام».

٣ ـ محاسن التأويل للقاسمي ١٧٨/٣ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار الفكر.

٤ ـ أخرجه عبدالله بن الإمام أحمد بسنده المتصل ألى ابن مسعود، انظر «السنة» ص ١٧٧. وانظر تفسير ابن كثير ٢٤٨/١ ـ ٢٤٩، والدر المنثور للسيوطي ٢٤١/١، والذهبي في العلو.

وقال ابن كثير:

«(هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة) يعني يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين فيجزي كل عامل بعمله إن كان خيراً فخير، وإن شراً فشر ولهذا قال تعالى (وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور) كما قال تعالى (وجاء ربك والملك صفاً صفاً)».[1]

وروى ابن جرير الطبري عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «إن من الغمام طاقات يأتي الله فيها محفوفاً وذلك قوله (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر)».

ثم قال ابن جرير: «ثم اختلف في صفة إتيان الرب تبارك وتعالى الذي ذكره في قوله (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله) فقال بعضهم: لا صفة لذلك غير الذي وصف به نفسه عز وجل من المجيء والإتيان والنزول. وغير جائز تكلّف القول في ذلك لأحدٍ إلا بخبر من الله جل جلاله أو من رسول مرسل، فأما القول في صفات الله وأسمائه فغير جائز لأحد من جهة الإستخراج إلا بما ذكرنا»[2]

ثم حكى ابن جرير قول ابي العالية والربيع في قوله تعالى: (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر): تأتي الملائكة في ظلل من الغمام ويأتي الله عز وجل فيما شاء». وقال أبوالعالية: هذا في قراءة أبي بن كعب.[3]

ثم روى ابن جرير قوله ﷺ في الحديث المروي له عن أبي هريرة رضي الله عنه:

---

١ ـ تفسير ابن كثير ٢٤٨/١

٢ ـ تفسير ابن جرير الطبري ١٩١/٢، والدر المنثور ٢٤١/١ ـ ٢٤٢

٣ ـ نفس المصدر ١٩٠/٢ و١٩٢.

«. . . حتى نزل الجبار في ظلل من الغمام والملائكة، ولهم زجل من تسبيحهم». [1]

وأخرج عبد بن حميد وأبويعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في هذه الآية قال: «يأتي الله يوم القيامة في ظلل من السحاب قد قطعت طاقات». [2]

وأخرج ابن جرير عن محمد بن عمر قال: ثنا أبوعاصم عن عيسى عن أبي نجيح عن مجاهد في هذه الآية: (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام) قال:

«هو السحاب لم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم حين تاهوا، وهو الذي يأتي فيه الله يوم القيامة». [3]

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة:

«يأتيهم الله في ظلل من الغمام، وتأتيهم الملائكة عند الموت». [4]

أما البيهقي رحمه الله: فبعد أن أثبت علو الله في سمائه، وفوق عرشه وذكر الآيات والأحاديث والآثار الدالةعلى ذلك، واستشهد بقصة مالك رضي الله عنه المشهورة ثم قال بعد ذلك:

«وعلى مثل هذا، درج أكثر علمائنا في مسألة الإستواء، وفي مسألة المجيء والإتيان والنزول، قال الله عز وجل (وجاء ربك والملك صفاً صفاً)

---

١ ـ نفس المصدر ١٩٢/٢، والبيهقي في الأسماء والصفات.
٢ ـ الدر المنثور ٢٤١/١
٣ ـ تفسير ابن جرير ١٩١/٢، والدر المنثور ٢٤١/١ وابن كثير ٢٤٩/١
٤ ـ تفسير ابن جرير ١٩١/٢، والدر المنثور ٢٤٢/١

وقال (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام)» ا . هـ [1]

فلا يعقل بعد هذا كله أن يكون كلام الحبشي أهدى من كلام الله ورسوله والصحابة والتابعين والأئمة سبيلاً!!.

ولا يعقل أن يكون كلام الله هو المبهم والمجمل، ويكون كلام الشيخ هو (المفصل تفصيلا)، وهو (اللسان العربي المبين) وهو (الأحسن تفسيراً) من كتاب الله إذ أن تأويل الحبشي لهذه الآيات يعطي صورة قبيحة، وهي أن الله أنزل آيات على خلاف ما أراد، فلم يبين حقيقة مراده مع أنه يقول عن كتابه:

(وأنزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء). وقال: (بلسان عربي مبين) وقال عن الذين يلحدون في آياته: (لسان الذين يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) [النحل ١٠٣]

وقال (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً) [الفرقان ٣٣]

وقال (وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً) [الأنعام ١١٤]

فأين هذا التفصيل، وهذا التفسير، وهذا البيان، وهذا الهدى، إن كان الله ينزل آيات مخالفة لمراده، ثم يكون المطلوب من العباد أن يعتقدوا بشيء لم يبينه الله ولم يفسره ولم يفصله لهم؟

وكيف يكون كتاب الله (هدىً للناس) وهو الذي تسبب لهم في الاختلاف والتردد والتذبذب بين تأويل آياته وبين إثباتها؟ أليست هذه النتيجة هي مقتضى تأويلات الحبشي لآيات الله؟

---

١ ـ الاعتقاد ص ٤٣

أفلا يكون كلام الحبشي بعد ذلك أبين وأفصح وأحسن تفسيراً من كتاب الله؟

وكيف لا يكون كذلك وهو الذي بيّن وأفصح وهدى الناس إلى شيء لم يكن مبيناً ولا مفسراً للناس من كتاب الله، بل ولا من سنة نبيه ﷺ!!.

فإما أن يكون الحبشي أفصح لساناً وأكثر بياناً وأحسن تفسيراً من كتاب الله (وهذا لا يقوله عاقل) وإما أن يكون عابثاً بآيات الله، محرفاً للكلم عن مواضعه، يعمل بكتاب الله تأويلاً وتبديلاً.

والذي اضطره لهذا التأويل التعطيلي هو حرصه على تطبيق قواعد فلاسفة اليونان الذين يحرمون أن ينسب التغيّر والتنقل إلى الله.

كقول أرسطو:

«إن كل حركة لا بد لها من علة محركة، وبالسير في سلسلة المحركات، يجب أن يكون في النهاية محرّك غير متحرك وهو علة كل حركة». (١)

ويقول كذلك:

«ولا يتغير، فالتغير فيه انتقال إلى الأنقص». (٢)

وهذا عين كلام الحبشي كقوله:

«والتغير لا يكون إلا بمغيِّر لا يتغير». (٣)

---

١ ـ كتاب تاريخ الفلسفة AUGUST MESSERجـ ١/٢٤٩

٢ ـ ترجمة آرسطو، (د. مصطفى غالب ص ٤٦).

٣ ـ الدليل القويم ص ٢٣.

فعلم عند ذلك أن حرص الحبشي هو حرص على مبادىء أرسطو وأفلاطون وغيرهما. لا حرص على كلام الله وآياته التي يجب احترامها، والوقوف عندما جاءت به، مع إقرانها بـ «ليس كمثله شيء».

ولا يعني ذلك بحال أنني أقصدعكس ما ينفيه الحبشي، وهو نسبة التغيّر والانتقال إلى الله، فأنا أعلم حقيقة هذا الرجل واتباعه، إذ سيفهمون من كلامي هذا أنني أنسب ذلك إلى الله، فأقول:

حاش لله أن أقول ما ليس لي به علم، وكيف أنسب له ما أنسبه للمخلوقين؟ وكيف أتكلف العلم بكيفية الصفة وأنا لا أعلم شيئاً عن الموصوف؟

إذ العلم بكيفية الصفة يقتضي العلم بالموصوف، وهذا لا يصح عند كل من يؤمن بأن الله (ليس كمثله شيء).

والله لم يقل لنا في كتابه أنه يتغير وينتقل، فمن أثبت ما لم يثبته الله لنفسه فهو مبتدع، مفتر على الله، وما دام هذا الوصف لم يأت ذكره في الكتاب ولا في السنة فلا يجوز القول بذلك لأن النفي والإثبات هو بحسب كلام الله رسوله.

وليس الذي يثبت التغيّر والإنتقال هو المبتدع فحسب ، بل الذي ينفيه هو مبتدع أيضاً لأن الأول أثبت شيئاً لم يثبت في كتاب الله . فيقتضي إثباته هذا إدعاءً بعلم الكيفية.

أما الثاني فقد نفى عن الله ما لم ينفه عن نفسه، فيقتضي نفيه هذا ادعاءً بعلم الكيفية، والنفي لا يقتضي أي إثبات لصفات التغير والانتقال وغيرهما من الأوصاف المبتدعة التي ما أنزل الله بها من سلطان. فيكون الثاني مبتدعاً من حيث انه تكلف النفي،فنحن ملزمين بإثبات ما ثبت ولا يلزمنا من ذلك ما أثبتوه من الالفاظ المبتدعة.

فالأول شبّه الصفة بصفات المخلوقين، أما الثاني فقد قاس صفات الله بصفات المخلوقين، والإثنان واقعان في التمثيل.

والحق في هذا، أننا نثبت لله ما أثبته لنفسه، وننفي عنه ما نفاه عن نفسه وبذلك نسلم من تكلف الإثبات من غير أصل له، والنفي من غير أصل له. فلا نتكلم في صفة خارجةعن صفات الله التي في كتابه «نفياً ولا إثباتاً». فلا المتكلف للإثبات امتثل قوله تعالى (ليس كمثله شيء) ولا المتكلف للنفي امتثل قوله تعالى (ليس كمثله شيء).

تعطيل الحبشي لصفتي الغضب والرضا لله عز وجل

ينفي الحبشي عن أن يغضب الله أو يرضى، لأن ذلك عند الحبشي من الانفعالات التي يتصف بها البشر، إذ يقول:

«فيحتم العقل تنزهه (أي الله) عن الانفعال بالغضب والرضا». [١]

أما عن صفة الغضب فقد أثبتها الله في كتابه في ثمانية عشر موضعاً منها:

١ - قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم. [٢]

٢ - وقوله: وغضب الله عليه ولعنه واعد له عذاباً عظيماً. [٣]

٣ - وقوله: ألم تر الى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم. [٤]

٤ - وقوله: وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم. [٥]

٥ - وقوله: وباءوا بغضب من الله. [٦]

٦ - وقوله: غير المغضوب عليهم[٧] (وهذه يتلوها الحبشي مراراً كل يوم ولا يتدبرها).

---

١ - الدليل القويم ص ٥٢

٢ - الممتحنة ١٣

٣ - النساء ٩٣

٤ - المجادلة ١٤

٥ - الفتح ٦

٦ - آل عمران ١١٢، والبقرة ٦١.

٧ - الفاتحة

٧ ـ وقوله: قال قد وقع عليكم رجس من ربكم وغضب.[١]
٨ ـ وقوله: ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله[٢]
٩ ـ وقوله: أم اردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم [٣]
١٠ ـ وقوله: والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين[٤]
١١ ـ وقوله: حجتهم داحضة عند ربهم وعليه غضب[٥]
١٢ ـ وقوله: ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى.[٦]

ألا يحقق ذلك قولنا في الحبشي وهو أنه ينفي من الصفات ما يثبته الله لنفسه؟

أما عن صفة الرضا التي ينفيها فقد أثبتها الله في كتابه في ثمانية وثلاثين آية منها:
١ ـ رضي الله عنهم ورضوا عنه.[٧]
٢ ـ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة.[٨]
٣ ـ ورضيت لكم الإسلام دينا.[٣]
٤ ـ فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين.[٩]
٥ ـ ولا يرضى لعباده الكفر، وإن تشكروا يرضه لكم.[١٠]

---

١ ـ الأعراف ٧١
٢ ـ النحل ١٠٦
٣ ـ طه ٨٦
٤ ـ النور ٩
٥ ـ الشورى ١٦
٦ ـ طه ٨١
٧ ـ المائدة ١١٩، والتوبة ١٠٠، والمجادلة ٢٢، والبينة ٨.
٨ ـ الفتح ١٨
٩ ـ المائدة ٣
١٠ ـ التوبة ٩٦
١١ ـ الزمر ٧

٦ ـ ولا يشفعون الا لمن ارتضى.[١]

٧ ـ أفمن إتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم.[٢]

٨ ـ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله.[٨]

٩ ـ إن كنتم خرجتم في سبيلي وابتغاء مرضاتي.[٤]

١٠ ـ ورضوان من الله أكبر.[٥]

١١ ـ يبتغون فضلاً من الله ورضوانا.[٦]

١٢ ـ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً.[٧]

أما إن كان يريد بذلك نفي «الإنفعال» فهذا ما لا يعذر فيه، لإن النفي والإثبات موقوف على الشارع الحكيم، فلا يجوز هذا النفي لأننا مأمورون وملتزمون بنفي ما نفاه الله عن نفسه، وكذلك لا يجوز القول بالإثبات لأن إثبات ما لم يثبته الله لنفسه بدعة، والنفي والإثبات بغير طريقة الكتاب والسنة هو تكلف غير مطالبون به. ولم يضطر الى نفي الغضب والرضاء بداعي نفي الإنفعال وهو لم يتأول السمع والبصر والكلام، مع أنها قد توهم ما أوهمت صفتي الرضاء والغضب فلماذا يتأول بعض الصفات ويثبت البعض الآخر؟.

---

١ ـ الأنبياء ٢٨

٢ ـ آل عمران ١٦٢

٣ ـ البقرة ٢٠٧

٤ ـ الممتحنة ١

٥ ـ التوبة ٧٢

٦ ـ الفتح ٢٩

٧ ـ طه ١٠٩

صفة الرضا من الأحاديث

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ:

«إن الله يقول لأهل الجنة، يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخيرُ في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضي يارب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: «ألا أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: يارب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً».[1]

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويكره لكم ثلاثاً»[2]

عن عائشة أن النبي ﷺ كان يقول: «اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك».[3]

---

١ ـ أخرجه البخاري (باب كلام الرب مع أهل الجنة)٨/٢٠٥في التوحيد، وفي الرقاق ٧/٢٠٠، وأخرجه مسلم ح (٢٨٢٩) والترمذي باب رقم (١٨).

٢ ـ أخرجه مسلم في كتاب الأقضية ح (١٧١٥).

٣ ـ أخرجه مسلم ح (٤٨٦) وابو داود في كتاب الصلاة باب رقم (١٤٨) والوتر (٥) والنسائي في الطهارة باب (١١٩)، وفي السهو باب (٧١) و(٧٩) ورواه أحمد في مسنده

صفة الغضب

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اشتد غضب الله على قوم فعلوا هذا برسول الله ﷺ» وهو حينئذ يشير إلى رباعيته. وقال: «اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله في سبيل الله عز وجل».(١)

وزاد البخاري: «اشتد غضب الله على قومٍ دمّوا وجه نبي الله ﷺ».(٢)

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ يحكي في الحديث الطويل والمسمى «بحديث الشفاعة» أن الناس تفزع الى الأنبياء في يوم الجمع يستشفعون بهم عند الله تعالى فقال: «فيقول آدم: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضلب قبله مثله ولن يغضب بعده» مثلة ثم يأتون إبراهيم عليه السلام فيقول مثل ذلك، ثم يأتون موسى فيقول مثل ذلك، ثم يأتون إلى عيسى فيقول مثل ذلك».(٣)

ولقد اعتادت الأمة بأجمعها إذا ذكر عندهم أحد من الصحابة أن يعقبوا ذلك بـ(رضي الله عنه) فما رأي الحبشي في ذلك؟ وهل يخالف الأمة

---

١ ـ أخرجه مسلم ح (١٧٩٣) والبخاري ٣٧/٥ (باب ما أصاب النبي ﷺ من الجراح يوم أحد). ورواه الطبراني في كتاب السفر، وأحمد.

٢ ـ البخاري ٣٧/٥ ـ ٣٨.

٣ ـ أخرجه مسلم ح (١٩٤)، والبخاري ١٠٥/٤ ـ ١٠٦ (باب ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه)، والترمذي في كتاب القيامة باب (١٠) ورواه أحمد ٤٣٥/٢ ـ ٤٣٦.

بأجمعها فلا يعقب ذكر أحدهم بـ (رضي الله عنه) لأن هذه الصفة عنده من الأعراض التي يتصف بها المخلوق؟

إن كانت حجتك بذلك أن صفتي الغضب والرضا هما اعراض تعترض المخلوقات ويجب تنزيه الله عنها، فإنا نقول لك: وجب عليك حينئذ أن تنفي عن الله الصفات التي أثبتّها له في كتابك[1] وهي: صفات السميع والبصير والإرادة والعلم والحياة والكلام والقدرة، لأن الله وصف بها المخلوقين، كما بينت لك ذلك[2]، وهذا ثابت في كتابه سبحانه وتعالى.

فإما أن تنفي كل صفات الله التي اتصف بها المخلوقات، وإما أن تثبتها لله عز وجل على أنها صفات تليق بجلاله وعظمته، وأن ما شابه منها (في اللفظ) صفات المخلوقات، يبقى مشابها في اللفظ لا في الحقيقة، وذلك غاية قوله تعالى (ليس كمثله شيء) فتثبت الصفات مقرونة بالتنزيه، كما علمنا الله ذلك بقوله:

(ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) فجعل التنزيه (ليس كمثله شيء) مقرون بإثبات الصفات (وهو السميع البصير) ممّا لا يبقى أثراً لحجة مشبه أو ممثل لله بخلقه، فمن أصر بعد تلك الآية على التشبيه فهو زائغ جاحد لقوله تعالى (ليس كمثله شيء) ومن أصر بعد تلك الآية على التعطيل فهو زائغ معطل لكثير من آيات الله، واحاديث نبيه ﷺ.

وها هي صفات «الغضب» و«الرضا» قد ثبتت في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وما علينا إلا اثباتها على ما جاءت مقرونة بالتنزيه، ومهما أتيتم من حجج وأستدلالات ورثتموها من عند فلاسفتكم، فإنا لا نترك ما أمرنا الله

---

١ - الدليل القويم ص ١٠ - ١١
٢ - راجع ذلك في فصل (الفرق بين صفات الله وصفات المخلوقين) في هذا الكتاب.

أن نؤمن به، من أجل هذه الاستدلالات الفاسدة «المبتدعة». ولسنا بتاركي كتاب الله وسنة رسوله لنتبع كتب وآراء أفراخ الفلاسفة والمتكلمين.

إذ أن ثقتنا بالله أعظم مما تتخيلون، وتصديقنا لله ورسوله أكبر من تصديقكم لفلاسفتكم.

«المعطلة هم مشبهة»

بل إن أولئك المتكلمين هم المشبهة، هم «المشبهة» هم «المشبهة» لأنهم لا يكادون يسمعون صفة من صفات الرب إلا ويتبادر إلى أذهانهم ما يماثلها من صفات المخلوقين، فيضطرهم هذا إلى تعطيل تلك الصفة.

ولو أنهم قابلوا صفة الله بـ (ليس كمثله شيء) فور سماعهم إياها لأغناهم ذلك عن النفي والتعطيل.

لكنهم مشهورون بأنهم يقيسون بالشاهد الغائب، كقولهم: «الاستواءيقتضي الحيز والمماسة والاحتواء». ولو أنهم تدبروا قوله تعالى (ليس كمثله شيء) لتيقنوا أن من ليس كمثله لا ينبغي أن يقاس به شيء، فقياسهم الله على ما يقاس به المخلوقون هو التشبيه بعينه.

وإذا كان لا يجوز قياس الله بما يقاس به البشر، علم من ذلك أن استواءه سبحانه وتعالى لا يقتضي مماثلته لاستواء البشر، فلا يقتضي الحيز ولا المماسة ولا الإحتواء، وليس من العقل والمنطق والفهم السليم والحكمة والكياسة والفطنة أن يقول رجل بأن الله ليس كمثله شيء، ثم يجعل كمثل استوائه شيء بأن يقيس استواء الله بحالة استواء المخلوقين.

وهذا يدل على أن المعطلة وقعوا في شرين:

١ ـ قياس الله بما يقاس على العباد مما يقتضي «حتماً التشبيه»

٢ ـ اضطرارهم تعطيل ما تماثل في عقولهم.

فالتعطيل بعد التشبيه هما جريمتان وقع فيهما المعطلة، وليس كما يظن البعض بأنهم معطلة فحسب.

إذ لو كانت ذات الله بمماثلة لذوات المخلوقين، لاضطررنا عند ذلك أن نقول بمماثلة قياس صفاته على صفاتهم.

لكن عدم مماثلة ذات الله لذوات المخلوقين، يقتضي عدم مماثلة قياس صفاته على صفاتهم، وهذا أكبر خطأ وقع به المعطلة، وبسببه اتصفوا بأسوأ صفة في هذا الدين «معطلة».

الفرق بين صفات الله وصفات المخلوقات.

قد تبين لنا طائفة المتأولين لكتاب الله وسنة رسوله، المعطلين لحقيقة ما أخبرنا به الله ورسوله، والذين تكلفوا النصوص للكتاب والسنة وجوه التأويلات المستكرهة والمجازات المستنكره، التي يرى العاقل أنها أبعد شيء عن احتمال النصوص لها وأنها لم تعد لذلك تأويلاً وتفسيراً وإنما تحريفاً للكلم عن مواضعه بحجة صرف العوام عن الآيات التي توهم التشبيه، فصرفوهم بذلك عن مراد الله لتلك الآيات، وكان ذلك اتهاماً صريحاً لكتاب الله أن فيه من الآيات ما أضل بعض الناس وأوقعهم في التشبيه، لأن الآيات تتضمن ذكر اليد والوجه والعلو والنزول والإتيان والمجيء وغير ذلك، فهذا عندهم مما يوهم التشبيه، لذا فقد صرفوا الناس عنها بتأويلها تأويلاً يؤدي إلى التعطيل، فالنزول عندهم نزول الملك بأمر الله، والعلو عندهم علو الرتبة والقهر والاستيلاء، والإتيان والمجيء هما

إتيان ومجيء الأمر، واليد هي النعمة والقدرة والوجه هو الذات. مع أن المطلوب من المؤمن الإيمان ب (ليس كمثله شيء) تماماً كما هو مطلوب منه أن يأخذ هذه الصفات على ظاهرها. وهذه الطائفة لا تكتفى بـ (ليس كمثله شيء) إذ إنها لا تشفى غليلهم، ولا تسد لهم باباً ولا تقضي عندهم حاجة، فكان طريق التأويل عندهم والتلاعب بنصوص الكتاب والسنة هو الطريق الشافي من داء التشبيه، ولم يأخذوا بالاعتبار تلك الآية المؤلفة من ثلاث كلمات والتي كانت كافية وكفيلة بسد كل باب للتمثيل أو التشبيه مع صغر حجمها وقلة كلماتها المكونة من ثلاث كلمات فقط.

فيقال لهؤلاء لِمَ أثبتم صفات السمع والبصر والحياة الكلام والعلم والقدرة مع أن هذه الصفات تتصف بها المخلوقات، ولم ثبتوا صفات العلو والنزول والإتيان والمجيء والاستواء؟

فإن كان العلو والنزول والإتيان والمجيء واليد والوجه توهم التشبيه لاتّصاف المخلوقات بها، فكذلك المخلوقات تتصف بالسمع والبصر والحياة والكلام والعلم والقدرة، ولا يقتضي الاشتراك والتواطؤ في اللفظ، أن يتساوى الموصوفات بحقيقة واحدة. كما لا يقتضي ذلك أن يكون علم المخلوقات كعلم الله إن كان الله قد وصف نفسه بالعلم (والله بما تعملون عليم) ووصف بها واحداً من مخلوقاته كقولة (وبشروه بغلام عليم) فيتضح عندئذ أن وصف الله لنفسه بأنه (عليم) ووصفه لعبده بأنه (عليم) لا يؤدي ذلك إلى التساوي في حقيقة العلم بل في ذلك من المباينة والمخالفة ما لا يعلمه إلا الله، وإنما كان الاشتراك في اللفظ لا في الحقيقة فكذلك يقاس على هذا باقي صفات الله[1].

---

١ - يراجع في ذلك كتاب: منهج ودراسات الآيات الأسماء والصفات للشيخ محمد أمين الشنقيطي رحمه الله تعالى.

فقد وصف الله نفسه بأنه سميع بصير فقال (إنه هو السميع البصير) ووصف عباده بصفتي السمع والبصر فقال (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً) ومع ذلك فإن سمع الله وبصره، ليس كأسماعنا وأبصارنا، وبين سمع وبصر الله، وبين سمع وبصر المخلوقات من المخالفة كما بين ذات الله وذوات المخلوقات. فان كان الله ليس كمثله شي. فكذلك فليس كمثل سمعه وبصره شيء، وقس على ذلك باقي صفات الله.

ووصف نفسه بالإرادة فقال (يريد الله ليخفف عنكم) وقال (فعّال لما يريد) ووصف عباده بالإرادة فقال (تريدون عرض الدنيا) وقال (يريدون ليطفئوا نور الله) ومع ذلك فان هذا الاشتراك في الصفة «لفظاً» لا يقتضي الاشتراك فيها «حقيقة» فالله ليس كمثل إرادته شيء، كما أنه ليس كمثله شيء، والفرق بين إرادة الله وإرادة العباد كالفرق بين ذات الله وذواتهم.

ووصف نفسه بأنه حفيظ وأنه عليم، ووصف بهاتين الصفتين عبداً من عباده وهو يوسف عليه السلام فقال (قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم) والفرق بين حفظ الله وعلمه وبين حفظ يوسف وعلمه كالفرق بين ذات الله وذات نبيه يوسف عليه السلام، فالله ليس كمثله شيء، وكذلك فإنه ليس كمثل حفظه وعلمه شيء.

ووصف نفسه بأنه حليم فقال (والله غني حليم) وقال (واعلموا أن الله غفور حليم) ووصف بعض عباده بذلك فقال (فبشرناه بغلام حليم) وقال (إن إبراهيم لحليم أواه منيب) والفرق بين حلم الله وحلم عباده كالفرق بين الله وبين عباده، فالله ليس كمثله شيء، وكذلك فإنه ليس كمثل حلمه شيء.

ووصف نفسه بإنه حي فقال (الحي القيوم) ووصف المخلوقات

بذلك فقال (وجعلنا من الماء كل شيء حي) فانظر كيف تقتضي حياة المخلوقات كلها حصولها على هذا الماء كشرط أساسي لحياتهم ولولاها لما اتصف أحد منهم بهذا الصفة (صفة الحي) تعلم بذلك مدى المباينة والمخالفة بين حياة الله وحياة مخلوقاته، كما أن حياة المخلوقات تقتضي تعلق الأرواح بأجسادها ولولا الروح لما اتصف أحد بصفة الحياة، وهنالك الآلاف من العوامل التي يحتاج إليها المخلوقات كشرط لبقائهم أحياء ويتخلل بقاء المخلوقات أحياء متطلبات كثيرة لولاها لفقدوا صفة الحياة، يعلم من ذلك أن صفات البشر وإن اشتركت لفظاً ببعض صفات الله فلا يقتضي ذلك الاشتراك بحقيقة الصفات أبداً، فصفات الله تليق بجلاله وكماله وعظمته وجلاله وصفات البشر تناسب ضعفهم وعجزهم.

ووصف نفسه بأنه (العزيز) قال (إن الله عزيز حكيم) ووصف بعض المخلوقات بذلك فقال (وقالت إمرأة العزيز) فقال (فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز) وكما أن الله ليس كمثله شيء، فإنه ليس كمثل عزته شيء.

ووصف نفسه بأنه هو الرؤوف الرحيم فقال (إن الله بالناس لرؤوف رحيم) ووصف نبيه محمداً ﷺ بذلك فقال (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) وليست رأفة محمد ﷺ ورحمته كرأفة ورحمة الله، فإن رحمة المخلوقات جميعهم (حتى الحيوانات) مستمدة من جزء واحد فقط من رحمة الله كما في الحديث الذي يقوله النبي ﷺ:

«جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً. فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق. حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه»[1].

١ ـ أخرجه مسلم ح (٢٧٥٢) كتاب التوبة ص ٢١٠٨/٤ ـ ٢١٠٩

وقال عليه الصلاة والسلام كذلك:

«إن الله خلق ـ يوم خلق السموات والأرض ـ مائة رحمة، كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض. فجعل منها في الأرض رحمة، فبها تعطف الوالدة على ولدها، والوحش والطير بعضها على بعض. فإذا كان يوم القيامة، أكملتها بهذا الرحمة»[1].

وقال ﷺ لأصحابه:[2]

«أترون هذه المرأة طارحةً ولدها في النار؟ قلنا: لا. والله! وهي تقدر على أن لا تطرحه. فقال رسول الله ﷺ: «لَلَّهُ أرحم بعباده من هذه بولدها»[3].

فعلم عندئذ أنه مع اشتراك المخلوقات والله في صفة «الرحمة» إلا أن هناك في حقيقة الصفة من المخالفة ما تبينه هذه الأحاديث، فصفة الرحمة عند الخلوقات بأجمعهم مستمدة من جزء واحد من رحمة الله منذ ان خلق الله هذا الكون ومن عليه إلى أن يرثة ومن عليه.

وكذلك فإن الله تعالى يقول في آية من كتابه تبين هذا الفرق الشاسع بين رحمة الله ورحمة مخلوقاته فيقول:

«قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكتم خشية الإنفاق».

فهذا يبين حدود الرحمة وضآلتها عند المخلوقات، وما تتميز صفة الرحمة عند الله على صفة الرحمة التي عند العباد، أنهم لو كانوا أمناء عل خزائن رحمة الله لأغلقوها ولمنعوها خشية أن ينفذ ما فيها.

---

١ ـ أخرجه مسلم ح (٢٧٥٣).

٢ ـ أخرجه مسلم كذلك (٢٧٥٤).

٣ ـ ما أجد بعد ذلك إلا أن أقول «الله أكبر».

ومن هذا كله يتبين الفرق بين الرحمة التي عند الله وبين الرحمة التي عند عباده وهذا الفرق والمخالفة بين صفات الله وصفات خلقه دال على الفرق والمخالفة بين ذات الله وذات المخلوقين، فكيف يليق للبعض الظن بأن يد الله كيدنا أو سمعه كسمعنا أو نزوله كنزولنا أو بصره كبصرنا أو علوه كعلونا، أو مجيئه كمجيئنا أو علمه كعلمنا، أو إستواءه كاستوائنا؟.. «تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً».

ووصف الله نفسه بأنه (الملك) ووصف بعض المخلوقين بهذه الصفة فقال (وكان وراءهم ملك) وقال (وآتيناهم ملكاً عظيماً) وليس ملك المخلوقات كملك الله عز وجل. فالله مالك الملك، ولله ملك لائق بكماله وجلاله وعظمته، كما أن للمخلوقين ملك مناسب لعجزهم وضعفهم.

ووصف الله نفسه بأنه الجبار المتكبر فقال (العزيز الجبار المتكبر) ووصف بعض المخلوقين بذلك فقال (كذلك يطبع الله على قلب كل متكبر جبار)[1] وقال (وإذا بطشتم بطشتم جبارين) والفرق بين جبروت الله وكبريائه، وبين تكبرالمخلوقين وتجبرهم كالفرق بين ذات الله وذوات المخلوقين.

ووصف الله نفسه بالمغفرة فقال (يغفر لمن يشاء) وقال (إن الله يغفر الذنوب جميعاً) ووصف بعض عباده بذلك فقال (قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله). وقال (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور)[2] وليست مغفرة العباد كمغفرة الله.

ووصف نفسه بأنه هو العفو فقال (ويعفوا عن السيئات) وقال (ويعف عن كثير) ونصح بعض عباده أن يتصفوا بتلك الصفة قائلاً

---

١ - غافر ٣٥

٢ - الشورى ٤٣

(وليعفوا وليصفحوا) وقال (فأعف عنهم واستغفر لهم)[1]

ووصف نفسه بأنه الرزاق فقال (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) وقال (كلوا من طيبات ما رزقناكم) ووصف بعض عباده بصفة الرزق فقال (وارزقوهم فيها واكسوهم). وقال (وإذا حضر القسمة أو أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه)[2]

وليس رزق العباد لبعضهم بعضاً كرزق الله لجميعهم، فرزق بعض العباد للبعض الآخر مستمد من الله، وهو محدود ومنقطع، أما رزق الله فهو من عند الله لا يستمده الله من شيء غيره سبحانه، ورزقه سبحانه غير محدود وغير منقطع لقوله (إن هذا لرزقنا ماله من نفاد)[3] وقوله عن عباده (ما عندكم ينفد وما عند الله باق)[4] فعلم أن صفة الرزق تطلق على الله وعلى العباد، لكن المخالفة في حقيقة تلك الصفة دون اللفظ، ولا يقتضي التساوي في الصفة «لفظاً» التساوي في حقيقتها.

ووصف نفسه بالقوة فقال (إن الله لقوي عزيز) وقال (إن القوة لله جميعاً) ووصف بعض عباده بذلك فقال (ويزدكم قوةً إلى قوتكم) وليست قوة الضعفاء كقوة القوي الجبار.. سبحانه.

ووصف نفسه بصفة الكلام فقال (وكلم الله موسى تكليماً) وقال (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه)[5] ووصف بها عباده فقال (فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين)[6] وبين كلام الله وكلام المخلوق كمثل ما

---

١ ـ آل عمران ١٥٩
٢ ـ النساء ٨
٣ ـ ص ٥٤
٤ ـ النحل ٩٦
٥ ـ الأعراف ١٤٣
٦ ـ يوسف ٥٤

بين ذات الله وذات المخلوقات، فكما أن الله ليس كمثله شيء، فكذلك ليس كمثل كلامه شيء.

ووصف نفسه بالقدرة فقال (إن الله على كل شيء قدير) ووصف عباده بتلك الصفة فقال (إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم) فقدرة العباد نهايتها ضعف كما كانت بدايتها من ضعف لقوله تعالى (الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوةٍ ضعفاً وشيبه)[1] ومع هذا الفرق وهذه المباينة بين قدرة الله وقدرة مخلوقاته فإن الله يعلم أن وصفه لعباده بصفة القدرة لا يقتضي تشبيهاً، لأن البون والفرق بين قدرة الله وقدرة المخلوقين كالبون والفرق بين ذات الله وذات المخلوقين. فإن كان الله ليس كمثله شيء، فكذلك ليس كمثل قدرته شيء.

وهذه الصفة يشترك الله وعباده فيها، يذكرها الله في آية واحدة وهي قول عيسى عليه السلام (تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك)[2] ومع ذلك فليست نفس عيسى عليه السلام ومن سواه من المخلوقات كنفس الله عز وجل.

ووصف نفسه سبحانه بأنه يقسط ولا يظلم الناس شيئاً فقال (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة)[3] وقال (وقضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون) ويقال (قائماً بالقسط) وأوصى عباده أن يتصفوا بالصفة التي وصف نفسه بها فقال (وأقسطوا إن الله يحب المقسطين)[4]، وقال (وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان)[5] وقال (وإن حكمت فاحكم بينهم

---

١ - الروم ٥٤

٢ - المائدة ١١٦

٣ - الأنبياء ٤٧

٤ - الحجرات ٩

٥ - الرحمن ٩

بالقسط) ومع اتصاف البشر (المقسطين منهم) بتلك الصفة، فلا يقول عاقل أن أحداً من البشر يساوي الله في قسطه وعدله أو يشبهه في هذه الصفة إذ لا يبلغ أحد أن يصل بقسطه وعدله بين الناس قسط الله وعدله، وهذا يوضح أن الله مع علمه أن أحداً من البشر لن يكون مقسطاً كقسطه وعدله سبحانه وتعالى، فإنه أمرهم أن يتصفوا بتلك الصفة لعلمه أن ذلك لا يقتضي تشبيهاً (ومن أصدق من الله قليلاً)؟... ومن ذا الذي هو أحرص على عباد الله بتوحيد الله من الله نفسه؟ أيكون أفلاطون وغيره أهدى من الله طريقاً؟ وأقوم حديثاً؟..

وإذا علم أن هذه الصفات التي ذكرناها، يمكن إثباتها لله مع تنزيهه عن الشبيه والمثيل بإن نقول (ليس كمثله شيء)، فليس كمثل سمعه وبصره وعلمه وقدرته وكلامه ورحمته وقوته ورزقه وغفرانه وجبروته وكبريائه وإرادته شيء. حتى وإن ثبت اتصاف المخلوقين بتلك الصفات، فإن ـ ليس كمثله شيء ـ تظهر لناعدم مساواة هذه الصفات في حقيقتها بين الله وخلقه، وإن تواطأت في اللفظ.

فها هو الله تعالى يقول بأنه (رب العرش العظيم) ويقول عن ملكة سبأ (ولها عرش عظيم)[1] والعاقل يتبادر إليه الفرق بين عرش ملكة سبأ وعرش الله سبحانه، وإذا كان الفرق معلوماً بين عرش مخلوق وعرش مخلوق، وإذا كانت المباينة واضحة وجلية بين حقيقة عرش الرحمن وعرش ملكة سبأ مع اشتراكهما في لفظ واحد ـ وهما عرشان مخلوقان ـ فمن باب أولى أن تكون المباينة والمخالفة بين حقيقة صفات الله وصفات المخلوقين، وإن كان اشتراك كل منهما في اللفظ واحد.

مثال آخر، وهو أن الله وصف الجنة في كتابه الكريم بكثير من الصفات فقال بأن فيها أنهار من لبن ومن خمرة، ومن عسل مصفى، وفيها

---

١ ـ النمل ٢٣

نخيل ورمان، وفيها فواكه كثيرة، وسرر مرفوعة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة، وفيها من الثمرات والاعناب وزرع، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

ومع هذا كله فإن إبن عباس رضي الله عنه يقول:
«ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء».

فإن كان ما في الجنة موافق لما في الدنيا في الأسماء، مخالف لما فيها في الحقيقة - والدنيا والجنة مخلوقتان - فما بالك بالمخالفة بين المخلوقات وخالقها تبارك وتعالى؟ لذا فإنه من باب أولى أن يكون الفرق والمخالفة بين الله وبين مخلوقاته في حقائق الصفات، وإن كان إطلاقها ثابتاً على الله وعلى مخلوقاته.

بعد ذلك نقول:

قد وصف الله نفسه بأنه استوى على عرشه فقال (ثم استوى على العرش) وقال (الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش) [السجدة ٤] وقال (الرحمن على العرش استوى) ووصف بعض عباده بذلك فقال (فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك) [المؤمنون ٢٨] وقال (لتستووا على ظهوره) وليس استواء المخلوقات كاستواء خالقهم جل وعلا، فلا يقتضي اشتراك الاستواء في اللفظ اشتراكه في الحقيقة بين الخالق سبحانه وبين المخلوقات.

وقد ثبتت صفة الإستواء في سبع آيات من كتاب الله، وفي مواضع عديدة في سنة رسوله ﷺ فيجب إثباتها مقرونة بالتنزيه كأن نقول استوى استواءً لا كاستواء المخلوقين، وهذا ما يقر به الحبشي لكنه يخالفه من مواضع أخرى من كتابه[1] فيفصل كيفية الاستواء على العرش أي كان

---

١ - أقر بذلك في كتابه «الدليل القويم» ص ٣٥ وص ٤٧ وناقض نفسه في ص ٣٨ - ٣٩ فقال أولاً: «بل نقول استوى استواءً يليق به هو أعلم بذلك الإستواء» ثم ناقض نفسه فقال:

ذلك حدوث العرش لا حدوث الاستواء وكانت حالته مشابهة لحال السائل الذي أتى مالكاً وطلب منه معرفة كيفية الاستواء.

فإن أراد الفرار من صفة الاستواء بحجة أن فيها ما يقتضي التشبيه والتمثيل، فقد ذكرنا العديد من صفات الله التي ثبت إطلاقها على مخلوقاته، ولم يقتض ذلك تشبيهاً، فما المانع بعد ذلك أن نثبت صفة الاستواء لله عز وجل لا على مشابهتها لاستواء المخلوقين ثم نقول: كما أنه ليس كمثله شيء، فكذلك ليس كمثل استوائه شيء، وشأننا في هذه الصفة كشأننا في غيرها من الصفات التي ذكرناها آنفاً.

كيف يعقل سمعاً لا كسمع المخلوقات، وبصراً لا كبصر المخلوقات، وقدرة لا كقدرة المخلوقات وعلماً لا كعلم المخلوقات، وكلاماً لا ككلام المخلوقات؟ ولا يعقل استواءً لا كاستواء المخلوقات ونزولاً لا كنزول المخلوقات ومجيئاً لا كمجيء المخلوقات؟

ومع أن صفات السمع والبصر والقدرة والكلام والعلم قد وصف الله بها نفسه ووصف بها عباده، فكذلك الاستواء والنزول والإتيان وغير ذلك من الصفات قد وصف الله بها نفسه ووصف بها مخلوقاته.

فإن قال الحبشي: سمعه وبصره وعلمه وقدرته وكلامه وحياته هي صفات كما تليق بالله تعالى من غير أن تكون من جنس صفات الحوادث فاقول: فقل كذلك يستوي وينزل ويأتي كما يليق بجلاله وعظمته، لا كاستواء ونزول وإتيان مخلوقاته، ثم احرص على هذا الاثبات، ولا

= استوى لحدوث العرش لا لحدوث الإستواء، وأول الإستواء بالإستيلاء، ثم ذكر ص ٣٩ قولي مجاهد وأبي العالية في تفسير الإستواء بأنه ارتفع وعلا المذكورين في صحيح البخاري، ورد قولهما بما نقله عن ابن بطال بأن كلامهما هذا فيه نظر. وقد صدق عمر بن عبد العزيز حين قال: «من جعل دينه عرضاً للخصومات أكثر التنقل» فالحبشي يكثر التنقل من رأي إلى إخر.

تتزحزح عنه. فإن قلت هذه توهم التشبيه قلنا لك: وهذه الصفات التي أقررت بها توهم العرض، والعرض ملازم للجوهر، فكأنك تقر بتوابع الجسم، ومن أقر بشيء من توابع الجسم لزمه ما يتهم به الناس ظلماً وعدواناً.

فإن قلت: ليست أعراضاً بل صفات لائقة به سبحانه، قلنا وهذه الصفات في الاستواء والنزول والإتيان كما تليق بجلاله وعظمته فإما أن تؤول جميع الصفات لكونها بزعمك إما أعراضاً أو جواهر فراراً من التشبيه وإما أن تقر بجميعها كما يليق بجلاله وعظمته فيثبتها الله على أنه (ليس كمثله شيء) فتفر من المماثلة بطريقة الكتاب والسنة لا بطريقة المتفلسفة المتكلمين الذين وقعوا بأشر وأقبح مما فروا منه، إذ ما فروا من صفة إلا كانت حصيلة قرارهم هذا التعطيل والنفي وسوء الظن بآيات الله واحاديث نبيه ﷺ.

فإما إن تنفي كل الصفات، وإما أن تثبتها كلها لا تنفي شيئاً منها.

فإن نفيتها جميعها وقعت بأقبح مما وقع به المعتزله، وإن أقررت ببعض منها ونفيت الباقي كنت من الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، ولا حجة لك في النفي بأن تقول بأن ما نفيته من الصفات يوهم التشبيه، لأن في كتاب الله قاعدة جليلة يجب إقرانها مع كل صفة ثابتة من كتاب الله وسنة رسوله وهي (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير).

فقولك: «بأن كل آية أوهمت تشبيهاً أو جسمية يجب تأويلها»[1]، باطل بل كل آية أوهمت عند «مرضاء القلوب» تشبيهها وجب على قارئها الاستعاذة بالله من شيطانه ويتذكر قوله تعالى (ليس كمثله شيء) فتزول أوهام التشبيه كليةً.

---

١ ـ الدليل القويم ص ٤٩ .

وأما قولك: «وما ثبت إسناده بطريق الآحاد فأوهم التجسيم والمكان فإنه يؤول[1]» هو قول باطل، لأنه يلزمك عندئذ إلغاء أن «الله استوى استواءً يليق به» كما قلت في موضع آخر من كتابك، لأن الاستواء «عندك» يوهم التجسيم والمكان، لذا يلزمك إزالة هذه الفقرة، وإبقاؤك على ما نقلته عن السبكي في جواز تأويل الاستواء بالاستيلاء وأن من قال بذلك لا يكون ارتكب محذوراً[2]، أما أن تأخذ بالقولين معاً فهذا من التردد والتذبذب والحيرة، فإما رأي السلف كمجاهد وأبي العالية[3] وإما رأي السبكي. ثم أن آيات الصفات أقوى ثبوتاً من أحاديث الآحاد فلماذا تأولتها، وكذلك فان الآحاد أقوى ثبوتا ويقينا من التأويل، علماً بأن التأويل أمر ظني كما تعترف انت، فلماذا قدّمت الظن على ما هو أكثر يقيناً منه؟.

ويلزمك مع ذلك أيضاً أن تلغي ما نقلته عن البيهقي في إثبات اليدين لا من حيث الجارحة والوجه لا من حيث الصورة[4]، لأن تلك الصفات توهم «عندك» التمثيل، ولأن منها ما هو ثابت بطريق الآحاد.

بل يلزمك مع ذلك أن لا تؤول حديث النزول وحديث الجارية لأنهما ثابتان بطريق التواتر، فلماذا تجاوزت التأويل إلى المتواتر في الأحاديث مع أن كلامك يوحي إلى جواز توقفك التأويل اذا كان الحديث متواترا، وإن كان يوهم «عندك» تجسيما أو مكاناً، فلم تفعل ذلك، وخالف فعلك قولك، فتأولت الكثير من الاحاديث (المتواتر منها والآحاد) بل إن كتاب الله وآياته أعظم وأدق مصدرا من الاحاد والمتواتر من الاحاديث، فلماذا تأولت آياته؟

---

١ ـ نفس المصدر والصفحة.
٢ ـ نفس المصدر ص ٣٨ .
٣ ـ نفس المصدر ص ٣٩ .
٤ ـ نفس المصدر ص ٤٧ .

ملاحظة مهمة

ثم إنك تجاوزت ذلك حينما تأولت كتاب الله ونفيت مراده من الآيات التي أنزلها، وقلت بأن ظاهرها يوقع ضلالة التجسيم والتشبيه فجعلت من كتاب الله مايضل به البشر، مع أن الله سمى كتابه «هدى للناس».

وقال بأنه «بينات» و«فرقان» يهتدي الناس به، ويتبين به الحق من الباطل، ويفرق بين الخير والشر.

وبين الله بأنه «لاريب فيه هدى للمتقين» فجعلت فيه الريب والشكوقلتقال كذا ويعني كذا بما يخالف ماتدل عليه الآية فجعلته الغازاً ورموزاً لايفهمها إلا من أوتي علماً كعلمك مع أن الذين تشهد لهم الأمة بالعلم كمالك واحمد والشافعي وابي حنيفة وسفيان والاوزاعي والليث وسعيد بن جبير لايوافقونك على هذا التلاعب بكتاب الله وسنة رسوله وعندهم من العلم مالايمكنك الوصول إليه.

وقال الله بأنه أنزل كتابه «بلسان عربي مبين» فقمت أنت وبيّنت معانٍ مخالفة لما تدل عليه هذه الآيات المبينات، والله تعالى يقول (ولا يأتونك بمثل إلاجئناك بالحق وأحسن تفسيراً)[1] فالبيان في كتاب الله، وبيان مافي الكتاب من سنة رسوله تغني عنك وعن طريقتك التي أجمع السلف على ذمها، والتي شاققت بها سبيل المؤمنين الذين تزعم بأنك على مذهبهم

---

١ ـ الفرقان ٣٣

وأنت مخالف لهم كما أثبتنا ذلك بالدليل في الابواب الأخرى من هذا الكتاب.

قال تعالى (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيرا»[1].

فلم تكن من الذين قالوا (آمنا به كلٌ من عند ربنا)[2] بل كنت من الذين (يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله).

والأسوأ من هذا كله أننا لو صدقنا قولك بأن هنالك آيات يراد بها غير ما يدل عليه ظاهرها، وأن الله لم يبينها لنا، ولم يبلغها الرسول ﷺ لأمته مع أن الله أمره بالبلاغ - وليس فحسب - بل بالبلاغ المبين فقال: (وما على الرسول إلا البلاغ المبين)، كانت النتيجة عندئذ أن قول الله تعالى (اليوم اكملت لكم دينكم) مردود، لأنه ترك توضيح معاني الصفات التي أنزلها، ويكون الرسول ﷺ قد خان الرسالة لأنه لم يبلغ لأمته المعاني المرجوحة لظاهر هذه الآيات فترك أصلاً من أصول الدين موضع الشك والالتباس والريبة، ومن هنا يظهر خطر الفلاسفة والمتكلمة المتأولين لكتاب الله.

ثم ينتج عن ذلك أن يكون الفلاسفة هم الذين سدوا هذا الفراغ وأكملوا هذا النقص، ويكون قوله تعالى «اليوم» لايعني أن الدين قد كمل في اليوم الذي نزل فيه قوله (اليوم أكملت لكم دينكم) بل يصبح الدين عندئذ كاملاً من اليوم الذي أوضح المتكلمون والفلاسفة هذه المعاني الباطنة التي استخرجوها أو جزموا بأنها هي المعاني المرادة، وإن خالفت المعاني الظاهرة.

---

١ - النساء ١١٥

٢ - آل عمران ٧

وينتج عن ذلك ايضاً أن يكونوا هم أصحاب البلاغ المبين والهدى المستبين فيكون الله قد هدى بهم مالم يهد بنبيه ﷺ، ويكون الاولى القول بأنه «ما على الفلاسفة ـ وأفراخ اليونان ـ إلا البلاغ المبين»، لأن الله قد أمر نبيه بالبلاغ المبين فما بلغ وما بيّن بل ترك ذلك للفلاسفة ليبينوه على طريقة وثنييّ الرومان! ، فكانوا هم اولى بالبلاغ المبين منه!

إما ان يكون الامر كما أسلفنا وإما يكون الامر عكس ذلك وهم أنهم طائفة من المفترين على الله وآياته ورسوله، تأولوا كتاب الله وأحاديث رسوله ﷺ، وكان نتاج زعمهم هذا أن رفعوا حرص الله ورسوله على البلاغ المبين، ونسبوا ذلك لأنفسهم.

تفسير الحبشي لآية
«ءأمنتم من في السماء»

لايستقر الاحباش على رأي في تأويل هذه الآية، فآراؤهم متضاربة تتبدل يوماً بعد يوم، فمنهم من يقول بأن المعنى في هذه الآية هو جبريل، ومنهم من يقول بأنهم الملائكة وهذا قول شيخهم الحبشي، مع أن الآية أتت بصيغة المفرد ولم تأت بصيغة الجمع، فلم يقل تعالى أأمنتم في السماء أن يخسفوا بكم الارض

وحين يقال ذلك لحبشي فإنه يقول بأنه قد ثبت إطلاق الجمع على المفرد كقوله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) [الحجر ٩].

وهذا صحيح لكن لايصح إطلاق المفرد على الجمع، أي لا يصح أن تقول: «جاءني رجل» وفي الحقيقة أن الذين أتوا رجال عديدون.

ولو اننا القينا نظرة في كتب التفسير لما وجدنا في تفسيْر هذه الآية مايؤدي قوله .

ثم أن تأويله (أأمنتم من في السماء) بأن المقصود بذلك جبريل أو بعض الملائة الذين في السماء، فان هذا باطل لوجوه عديدة:

١ ـ أن الله لم يقل في كتابه «أأمنتم» إلا كان المقصود بذلك هو الله لا أحد غيره من المخلوقات.

قال تعالى: (أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الارض) [النمل٤٥].

وقال تعالى: (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون) [الاعراف ٩٧]

وقال تعالى : (أفأمنوا مكر الله) [الاعراف ٩٩]

وقال تعالى: (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله) [يوسف ١٠٧]

وقال تعالى: (أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا) [الاسراء ٦٨].

فهذه الآيات دالة على ان المقصود بالتخويف هو الله، إذ يقول : كيف تأمنون من عذابي وتطمئنون من عقابي (أفأمنوا مكر الله)!

٢ ـ ان قوله تعالى (أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً) هو مشابه لقوله في سورة الإسراء:

(واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه) [الاسراء ٦٧] أي الله (فلما نجاكم الى البر أعرضتم وكان الانسان كفوراً) والذي ينجي ايضاً هو الله ، واذا كان الامر كذلك، فانتبه الى بقية هذه الآية (أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً) أليست هذه مشابهة لقوله تعالى (أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً)؟وهذا يبطل تأويل أولئك الجماعة لأنه لا فرق تقريبا بين قوله تعالى.

أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً) وقوله :

(أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً)

ومن زعم أن الآية تعني جبريل فكأنما جعل الآية التي قبلها (واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه) عائدة الى جبريل أيضاً، وهذا موقــع في الشرك لامحالة.

٣ ـإن قوله تعالى(أن يرسل عليكم حاصباً) دال على أن الله هو الذي يرسل الحاصب، سواء كان إرساله عن طريق جبريل أو أي ملك آخر.

فلا يصح أن يكون جبريل هو المرسل (بكسر السين) لأنه رسول مرسل من ربه. فليس هو (مرسِل) بكسر السين، وإنما هو (مرسَل) بفتحها.

ولقد وجدنا في كتاب الله ما يقارب المائة وثمانياً وعشرين (١٢٨) آية يذكر الله تعالى فيها أنه هو المرسل، كقوله سبحانه وتعالى أنه ارسل الريح والحاصب والعذاب والطير الابابيل والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، والرجز من السماء، ويرسل السماء مدراراً ، ويرسل بالآيات تخويفاً، ويرسل رجالاً يوحي اليهم، ويرسل قاصفاً من الريح، ويرسل الريح صرصرا ويرسل جنوداً لم يراها المؤمنون، ويرسل حجارةً من طين، و يرسل الطواعى ، ويرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته، ويرسل حسباناً من السماء، الى غير ذلك.

ولم نجد آية واحدة يذكر الله تعالى فيها أن جبريل أو أن الملائكة يرسلون العذاب الى الناس.

والله تعالى لديه رسل يرسل بهم عذابه أورحمته أو أمره، فهل يعقل أن يكون للمرسلين ايضاً رسل يرسلون بهم عذابهم؟

٤ ـإن في كتاب الله تعالى الآيات الكثيرة المتضمنة للترهيب من عذاب الله والترغيب فيها عنده من الثواب، بها يخوف الله عباده من عذابه وناره، وبها يدعوهم الى العمل للفوز بجنته ورضوانه، وهذه الآيات لاتدعوهم الى الخوف من غير الله، ولا لرجاء من سواه من المخلوقات.

ويحذرهم من أن يخافوا أحداً غيره فيقول (فلا تخشوهم واخشون)[1] ويقول في مدحه للمؤمنين (ولايخشون أحداً إلا الله)[2] فكيف يقول ذلك ثم يخالفة بأن يقول لهم (أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الارض) ويعني بذلك تخويف عباده من ملائكته أو من جبريل؟

يعلم عند ذلك أن المخالفة والتناقض ليس من آيات الله وكلامه، وانما هو ممن يفروّن بالتأويل من آيات الله التي تخالف مذهبهم، فيقعون بأشر مما ظنوا أن شر، وما يكاد الواحد منهم يظن بأنه قد فر من محظور إلا وقد وقع بمحظور أشد منه.

وهذا كله من عواقب التأويل السيئة.

«ءَأمِنتم مَن في السَّمَاء» مِن كُتب التّفسير

روى ابن الجوزى عن إبن عباس تفسيره لآية (أأمنتم من في السماء) بقوله) «أمنتم عذاب من في السماء وهو الله عز وجل».[3]

وقال ابن جرير الطبري رحمه الله:

«أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً» قال: .. وهو الله، أن يرسل عليكم حاصباً وهو التراب فيه الحصباء الصغار».[4]

---

١ - البقرة ١٥٠

٢ - الأحزاب ٣٩

٣ - زاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج ابن الجوزي رحمه الله ٣٢٢/٨، وانظر حاشية الدر المنثور ١٠٩/٦

٤ - تفسير ابن جرير الطبري المجلد الثاني عشر جـ ٢٩، ص ٦، ط دار المعرفة.

أما ابن كثير فقد قرن قوله تعالى (أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً) بقوله (أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا)[1]. وهذا يؤيد قولنا بأن بين هاتين الآيتين تشابهاً كبيراً، يبطل تأويل الآية الأولى على أن الذي يخسف ويرسل حاصباً هو جبريل أو الملائكة.

اما السيوطي فقال: «أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله (أأمنتم من في السماء) قال: الله تعالى»[2]

وقد قرن ابن قتيبة (أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً) بالآية (أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً) ثم قال: «هكذا قال المفسرون »وهي كذلك عند «أهل اللغة» في المعنى، وإن كانوا قد يفرقون بينهما في الأماكن»[3] ١٠هـ أي أن الآيتين على معنى واحد، وإن كان موضعهما في الكتاب متفرقاً.

وقال القرطبي في تفسيره:

«قال ابن عباس (أأمنتم من في السماء) أأمنتم عذاب من في السماء إن عصيتموه».

ثم ذكر القرطبي تأويل المتأولين لتلك الآية، فمنهم من قال: في السماء قدرته وسلطانه، ومنهم من قال: إشارة إلى الملائكة، أو جبريل، ثم قال:

---

١ ـ تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ٣٩٨/٤ ط دار المعرفة.
٢ ـ أي أنه الله الذي يخسف بهم الأرض، انظر الدر المنثور في التفسير المأثور ٢٤٩/٦ ط دار المعرفة.
٣ ـ تأويل مشكل القرآن ص٥٤٦ ط المكتبة العلمية

(من في السماء) أي خالق من في السماء .. فتأوّل الآية بما يخالف قول ابن عباس الذي رواه عنه، وقال بأن هذا التأويل محتمل، ولم يقطع بصحته. فلو انه زعم أن تأويله هذا صحيح فإنه يرد عليه لأنه مخالف لقول الصحابة كابن عباس وغيره، فكيف وأن تأويله يتطرق إليه الاحتمال؟ أيجوز عندئذ إدخال احتمالات في التفسير مخالفة لقول أهل التأويل المشهود لهم كابن عباس؟..

ثم قال: وقال المحققون : «أي من فوق السماء» كقوله : فسيحوا في الأرض.. وهذا أيضاً يرد إحتماله الذي اورده.

وقال: «ولم ينكر أحد من السلف أن اسواءه على عرشه حقيقة وخص بذلك عرشه لأنه أعظم مخلوقاته، وإنما جهلوا كيفية الاستواء، فانه لايعلم حقيقة كيفيته»[٢].

وقال المراغي في تفسيره:

«(أأمنتم من في السماء) أي أمنتم أن يخسف ربكم بكم الارض كما خسفها بقارون»[٢].

وقال البيهقي رحمه الله : قال الله تعالى:

«(أأمنتم من في السماء) وأراد من فوق السماء، كما قال (ولأصلبنكم في جذوع النخل)[٣] يعني على جذوع النخل، وقال (فسيحوا في الأرض) [٤] يعني على الارض، وكل ما علا فهو سماء، والعرش أعلى

---

١ ـ تفسير القرطبي جزء ١٧ ـ ١٨ صفحة ٢١٥ ـ ٢١٦

٢ ـ تفسير المراغي ، المجلد الرابع ، الجزء ٢٩ .

٣ ـ طه ٧١

٤ ـ التوبة ٢

السموات، فمعنى الآية - والله أعلم - أأمنتم من على العرش، كما صرح به في سائر الآيات»[1].

تكفير الحبشي لمن يقول بأن الله في السماء

وفي رأي الحبشي أنه لايجوز القول بأن الله في السماء لأن ذلك يعني أن الله محصور فيها، وأنه محدود فيها، وأنه في حيزّ وفي جهة، فيقتضي ذلك أن السماء أكبر منه، وهذا كفر عنده.

فإننا نقول: بأن الذي يصف الله بأنه في السماء هو الله نفسه لانحن، بدليل قوله (أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض) وكقول رسوله ﷺ للجارية: أين الله؟ قالت: في السماء، فشهد لها بالايمان وقال لوليها : اعتقها فإنها مؤمنة، فلو أننا أتينا بالصفة من عندنا لحق لك أن تنكر علينا، لكنها ثابتة من كلام الله فلا يحق لك أن تقول بأنه لايجوز القول بأن الله في السماء.

وحجة الحبشي في نهية عن القول بأن الله في السماء هي حجة المشبهة، الذين يقيسون الله بما يقاس على المخلوقين، إذ أن وجود أحدنا في المنزل، يقتضي أن المنزل يحيط به ويكبره، ويجعله في ظرف وفي حيّز وفي جهة، ومثل هذا لايجوز أن يقاس على من (ليس كمثله شيء)، والحبشي يريد تنزيه الله عن التشبيه، فوقع التشبيه نفسه حين أجاز على الله مايجوز على المخلوقات. وعطل ما ثبت في كتاب الله بعد ذلك.

---

١ - الأسماء والصفات ٤١١ - ٤٢٠ ، والاعتقاد للبيهقي ص٤٢ ، وفي نسخة أخرى بتحقيق أحمد عصام الكاتب ص١١٣ ط دار الآفاق الجديدة.

وسؤالي له هو: ألا تقر بأنه ليس كمثله شيء؟ فإن قال نعم قلت له: فلماذا تجعل ما يقاس على المخلوقات «مثل» مايقاس على الله، ولماذا لاتثبت الصفة، مع إقرانها بـ (ليس كمثله شيء) وهذا كافٍ لك؟

ولماذا تقر أن (ليس كمثله شيء) وتجعل قياسات البشر من «مثل» قياسات الله؟

فإن كنا نثبت ما جاء عن الله أنه في السماء، فإنه من مقتضى إمتثالنا لذلك أن نثبت أيضا ما جاء عن الله، وهو أنه (ليس كمثله شيء)، وهذا يحتم علينا أن نقطع بأن إثبات ما قاله الله (أأنتم من في السماء) لايمكن أن يلزم منه أنه في حيزّ وأنه أصغر من السماء وأن العرش أكبر منه الى غير ذلك من آراء الحبشي، بل نقول: هو في السماء كما أخبر، لأنه الصادق المصدوق، وأنه ما من أحد أعلم بالله من الله، ولا أحد أعلم منه بما يجوز عليه، ومالايجوز عليه، وبما يليق به، ومالا يليق به وهو مع ذلك قد وصف نفسه بذلك.

فإنكار ماوصف الله به نفسه هو تكذيب له أولاً، وادعاء للمنكر على أنه أعلم من الله، وأعلم بما يليق به من الصفات التي وصف بها نفسها وبما لايليق به.

ونفي أن الله في السماء تكذيب لمن قال: (أأمنتم من في السماء) وتكذيب لمن سأل الجارية: «أين الله، قالت في السماء، قال: إعتقها فإنها مؤمنة» وادعاء منه أنه أعلم من الله ورسوله بهذا الباب.

فإن قال قائل: فهل يعني ذلك أن السماء تحيط بالله وتحويه؟ قلنا: إن الغرفة تحيط بالمخلوق وتحويه لأنه مخلوق ذو حجم محدود ومعلوم لنا، وعلمنا بحجمه يقتضي علمنا بأن الغرفة أكبر من بكذا. . طولاً، وعرضاً ومساحة، لكن جهلنا بذات الله، وعلمنا بأنه (ليس كمثله شيء) ينفي عنه

هذه المقاييس التي عرفنا بها حجم الغرفة من المخلوق وحجم المخلوق من الغرفة.

وكيف نقيس الله بتلك المقاييس (مقاييس الجهة والحيز والإحاطة) ونحن لا علم لنا إلا ماعلمنا، فقد أعلمنا أنه في السماء، ولم يعلمنا كيف ذلك، فنقف عند حدود الله، ونؤمن بما جاء من الآيات في ذلك، ونؤمن أيضاً بهذه الآية (ليس كمثله شيء).

أما الذين جحدوا أن الله في السماء، فقد جحدوا أنه (ليس كمثله شيء) لأن قياسهم لله بمقاييس البشر ينافي إيمانهم بأنه (ليس كمثله شيء) وأنه لايجوز عليه ما قد يجوز على خلقه، فأوصلهم ذلك إلى تعطيل بقصد الفرار من التشبيه وهم إنما وقعوا قبل التعطيل بقليل «بالتشبيه».

فهم شبهوا أولاً ... وعطلوا ثانياً.

والجواب: نعم ... هو في السماء، وليس كمثله شيء.

ومن لايعرف لهذه الآية حقها (ليس كمثله شيء) فإنه واقع في أحد المصيبتين لا محالة: إما أن يقع في التمثيل، وإما أن يقع في التعطيل، ومهمة هذه الآية أن ترشد الى أمرين: أولهما الإثبات، وثانيهما: التنزيه.

فيكون موقفنا من الآيات المتضمنة للصفات هو:

١ - إثبات بلا تمثيل

٢ - وتنزيه بلا تعطيل، وهذا هو المطلوب.

تناقض الحبشي في كلامه عن معنى الاستواء

يكثر التناقض عند الحبشي في هذا الباب، فلايكاد يقر بمسألة في موضع إلا وينكرها ويتناقض في موضع آخر.

فقد قال في أول كلامه عن الإستواء :«قد ورد قرآنا وصف الله بأنه مستوٍ على العرش، فيجب الايمان بذلك بلا كيف». وقال: «بل نقول استوى على العرش إستواءً يليق به هو أعلم الإستواء« . وذكر كلام مالك في الإستواء[1].

وهو:

عن ابي وهب قال : كنت عند مالك فدخل رجل فقال: يا أبا عبدالله «الرحمن على العرش استوى» كيف استوى؟ فأطرق مالك وأخذته الرحضاء، ثم رفع رأسه فقال: الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه، ولايقال كيف، وكيف عنه مرفوع، وأنت صاحب بدعة، أخرجوه»

وما أجمل كلام الحبشي لو أنه توقف عند هذا ولم يتجاوزه إلى التأويلات التي تأولها بعد ذلك وناقض بها قصة مالك التي شهد له علماء المسلمين حتى اليوم بأنها كلمة الإجماع.

---

١ ـ الدليل القويم ص ٣٥ و ٣٦

لكنه خالف قولة مالك، وشابه السائل عن الكيف، فقد خاض الحبشي في الكيف، فأوّل الإستواء بالاستيلاء والقهر، مع أن مالكاً قد وقف عند حد في الكلام على الاستواء لم يتجاوزه الى أي شيء آخر، ولو كان هذا التأويل الذي ذكره الحبشي جائزا» لأجاب مالك به ذاك السائل.

والتناقض عند الحبشي أنه ذكر في أول كلامه أنه يقول بأن الله استوى استواء يليق به وهو أعلم بذلك الاستواء، لكنه خالف هذا الكلام حين بدأ يفصل الإستواء بالاستيلاء والقهر ، والمعلوم أن عبارة «إستوى استواء» يليق به هي عبارة أهل السنة، لكن أحداً منهم لم يقل كذلك بالاستيلاء، لأن تأويل الاستواء بالاستيلاء هو من كلام المعتزلة كما أشار الى ذلك الحافظ ابن عساكر في تبيين كذب المفتري[1] فكيف يمكن الجمع بين النقيضين؟

وما توقف الحبشي عند هذا بل قال: «ثم استوى، لحدوث العرش لالحدوث الاستواء»[2].

وهذا قول منكر. إذ قد علم أن العرش مخلوق محدث، لكن حدوثه كان قبل خلق السموات والارض بدليل قوله عليه الصلاة والسلام:
«كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والارض[3]. فتبين فساد القول بأن (ثم استوى على العرش) هو حدوث العرش، لأن العرش مخلوق قبل خلق السموات والأرض.

١ ـ تبيين كذب المفتري ص ١٥٠ ، وأنظر الفصل في الملل والنحل لابن حزم ١٢٣/٢
٢ ـ الدليل القويم ص ٣٧
٣ ـ أخرجه البخاري في كتاب التوحيد (باب وكان عرشه على الماء) ١٧٥/٨ بهذا اللفظ لا باللفظ الذي عند الحبشي فالنص عند البخاري هو (كان الله ولم يكن شيء قبله) وعند الحبشي (كان الله ولم يكن شيء غيره).

ولمزيد من التوضيح حول حيرة وتذبذب الحبشي فيما يستقر عليه من الرأي، فإنه يجمع بين النقيضين بين سطرين متتالين:

فقد ذكر تفسير مجاهد لمعنى استوى بأنه علا، وتفسير ابي العالية بأنه ارتفع - وهذا موقف أهل السنة والجماعة من هذه الآية.

لكنه ذكر في السطر التالي مايخالف قولهم فقال: فتبين أن تفسير إستوى باستولى ليس فيه تجسيم لله ولانسبة نقص لأن الاستيلاء بمعنى القهر»[1]

ثم حكى عن السبكي أنه قال :«المقدم على تفسير الإستواء بالاستيلاء لم يرتكب محذوراً، ولا وصف الله بما لا يجوز عليه»[2]

وما هذا إلا التخبط والتذبذب والمخالفة لقول مالك ومجاهد وأبي العالية وما نصيب محاولة الجمع بين النقيضين إلا الفشل.

وماذا على الحبشي لو أنه اكتفى بعبارته الأولى: أستوى إستواءً يليق به، اذ لو أنه وقف عند ذلك لكان خيراً له، وقد أراد الحبشي ان يحتج بقول مالك هذا لكن قول مالك كان حجة عليه، لأنه خالف الإجماع، وخالف مالكاً ووافق المعتزلة في تأويل الإستواء بالاستيلاء كما قال الحافظ ابن عساكر، وكل ذلك بسبب كثرة التأويل والفرار مما أنزله الله من آيات الفات بحجة أنها توهم التشبيه وهذا هو غاية سوء الظن بآيات الله.

والذي يلاحظ على الحبشي في كتابه أنه يتقنع بقناع السلف ويدعي أنه على مذهبهم، فليأتني بواحد من أولئك السلف ممن يوافقه على هذا التأويل الباطل.

---

١ - الدليل القويم ص ٣٩

٢ - نفس المصدر ص ٣٨

بل إن هذا التأويل مخالف لعقيدة الأشعري أيضاً، فحين ينقل الحبشي أبياتاً من الشعر يبني فيها اعتقاده مذهب الأشعري، لا ينبغي له عند ذلك مخالفته في مذهبه، لأن الأشعري قد حمل على المعتزلة تأويلهم الاستواء على انه استولى فقال:

«وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية: إن معنى (استوى): استولى وملك وقهر، وأنه تعالى في كل مكان، وجحدوا أن يكون على عرشه.... وذهبوا في الإستواء الى القدرة، فلو كانْ كما قالوا، كان لافرق بين العرش وبين الأرض السابعة لأنه قادر على كل شيء» ثم قال: وكذا لو كان مستويا بمعنى الإستيلاء لجاز أن يقال: هو مستوٍ على الاشياء - لا على العرش فقط - فبطل أن يكون الإستواء بمعنى الاستيلاء»[1] وأي دلالة أوضح من ذلك على أن تأويل الإستواء بالإستيلاء والنزول بنزول الملك بأمر الله هو من شيم المعتزلة ومبادئهم؟

وما نفع تحامل الحبشي على المعتزلة إذا كان الكثير من آرائه موافقة لآرائهم، فهو يوافقهم في نفي علو الله فوق سمواته، واستوائه، ونزوله وإتيانه ومجيئه، ويوافقهم كذلك في سبّ معاوية ونفي ثبوت فضائله، بل يوافقهم قبل ذلك كله في المصدر، فإن مصدره ومصدرهم الفلاسفة «أنبياء المتكلمين».

---

١ - الإبانة عن أصول الديانة ٨٦ - ٨٧ بتحقيق الأرناؤوط

استوى استواءً لا استيلاءً

١ ـ عن نفطويه: حدثنا داود بن علي قال:

«كنا عن إبن الأعرابي[١]، فأتاه رجل فقال: يا أبا عبدالله ما معنى قوله: (الرحمن على العرش استوى)؟، قال: هو على عرشه كما أخبر، فقال الرجل: ليس كذلك إنما معناه : «استولى» فقال ابن الاعرابي: أسكت، ومايدريك ما هذا؟ العرب لاتقول للرجل استولى على الشيء حتى يكون له فيه مضادا، فأيهما غلب قيل استولى، والله تعالى لامضاد له، وهو على عرشه كما أخبر»[٢].

قلت: ولو كان الاستواء على العرش بمعنى الإستيلاء والقهر، لجاز أن نقول بأنه استوى على الارض، واستوى على الجبال واستوى على الوديان، واستوى على الأنهار بل واستوى على مخلوقاته، لأنه قاهر لكل هؤلاء المخلوقات مستولٍ عليهم. لكن علم أن تخصيص العرش

---

١ ـ قال عنه الذهبي «إمام اللغة»، سير أعلام النبلاء ١٥ /٤٠٧

٢ ـ رواه الذهبي بإسناده عن الخطيب في التاريخ ٥/ ٣ ٢٨ ـ ٢٨٤ ، والبيهقي في الأسماء والصفات ٤١٥ واللالكائي في شرح أصول السنن ٨٩٩/٣ ، الأزهري في تهذيب اللغة ١٢٣/١٣ ـ ١٢٥ ، ولسان العرب ط دار المعارف (القاهرة) ١٢٦٤/٣ (مادة سوّى) ، ومفردات غريب القرآن ٢٥١ ط الحلبي وتفسير الطبري ١٢٨/١ ـ ٤٣٢ ط دار المعارف ، وصحيح البخاري ١٢/٩ ، وانظر كذلك زاد المسير في علم التفسير لإبن الجوزي ٢١٣/٣ ط المكتب الإسلامي .

بالإستواء، يبطل هذا التأويل الباطل. إذ أن العرش مخلوق كغيرة من المخلوقات فكما أن الله مستولٍ على العرش قاهر له ـ كما يقول بعضهم ـ فكذلك جاز عندئذٍ أن نقول بأنه مستولٍ على السموات والارض ومن فيهن، فهل يجوز القول بأن الله استوى على كل ماخلقه، ونعني بذلك استيلاؤه عليه وقهره له؟ هذا ضرب من العبث بالدين واللغة والإجماع.

وتأويل الإستواء بالإستيلاء يقتضي أن يكون الله غير قاهر للعرش، وانه لم يكن قادراً عليه قبل خلق السموات والأرض ولم يكن مستولياً عليه، إذن فيقتضي ذلك أحد الأمرين:

١ ـ إما أن يكون العرش إنما كان غير مقدور عليه وغير مقهور له، وغير مستولٍ عليه، وهذا باطل، إذ يستحيل أن يكون العرش قاهر لنفسه بنفسه.

٢ ـ وإما أن يكون آخر غير الله مستولٍ عليه وقاهر له قبل أن يخلق الله السموات والأرض، لأن القول بأن الله (خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش) أي ثم استولى، يقتضي أن يكون الله قد استولى عليه بعد أن لم يكن كذلك، فَتحْتَ أية قوة وأي قدرة كان هذا العرش؟ ومن نازع الله في قدرته فأخذ منه العرش حتى يستولي الله عليه بعد ذلك؟

وقد علم أن العرب لاتقول استولى على الشيء إلا أن يكون له منازع[1]، والله لا منازع له في ملكه، والله قاهر لعرشه قادر عليه منذ أن خلقه، وليس بعد خلق السموات والأرض.

---

١ ـ وهذا كلام إمام اللغة إبن الأعرابي.

٢ ـ قال ابن حزم في كتابه «الفصل في الملل والنحل» فيما بين من تأويلات اصحاب الطوائف للإستواء، فذكر أولا قول المشبهة بأنه أستوى كاستواء البشر، ثم قال:

«والآخر قالته المعتزلة وهو أن معناه : استولى، وأنشدوا:

قد استوى بشر على العراق   من غير سيف ودم مهراق

وقال: وهذا فاسد لأنه لو كان ذلك لما كان العرش أولى بالاستيلاء عليه من سائر المخلوقات، ولجاز لنا أن نقول: «الرحمن على الأرض استوى» لأنه تعالى مستول عليها وعلى كل من خلق، وهذا لايقوله أحد، فصار هذا القول دعوى مجردة بلا دليل»[1].

ـ لايحُتج بهذا الشعر ـ

وهذا البيت الذي يستدل به المعتزلة وغيرهم ليس بحجة، ولايصح الاستدلال به لأن بشراً لم يستول على العراق، بل استولى عليها أخوه عبدالملك.

وفي هذا دلالة صريحة على ان هذا البيت من الشعر، مصنوع خصيصاً ليطابق مذهب أولئك النفاة المتأولين.

ولو صح هذا البيت لكان حجة عليهم، فلو أننا سلمنا جدلاً أن بشراً قد استوى على العراق (بمعنى استولى عليها) فهذا دال على أنها لم تكن في ملكه قبل أن يستولى عليها. ولما استوى عليها (بمعنى استولى) أصبحت خاضعةً لملكه.

١ ـ الفصل في الملل والنحل لإبن حزم ٢ /١٢٣ ط دار الفكر.

وهذا لايقال عن الله، ولايقاس عليه، لأن هذا يعني حينئذٍ أن الله (استوى على العرش) أي استولى عليه فأصبح مالكاً للعرش، قاهراً له، قادراً عليه بعد أن لم يكن كذلك.

فإن مجرد استيلاء بشر على العراق يجعله مالكاً لها قادراً على أهلها، بعد أن لم يكن كذلك، وإذا قيل هذا عن الله كان افتراء عظيما عليه، لأن هذا يقتضي أن الله لم يكن قادراً ومستوليا على عرشه إلا بعد أن خلق السموات والارض، كما اقتضى أن بشراً لم يصبح قادراً ومستولياً على العراق إلا بعد دخول جيشه إليها وإخضاع أهلها له.

ولئن كان هنا لك ما يمنع بشراً من قهر أهل العراق، واستيلائه على مدينتهم، ولئن كانت في ملك أحد غيره، ففي ملك من كان العرش وتحت استيلاء من قبل خلق الله السموات والأرض في ستة أيام؟ وما كان المانع له أن يكون مستوليا على عرشه قبل خلقه لسمواته وأرضه، قادراً عليه، قاهراً له؟..

فدل هذا كله على أن هذا البيت لايصح وجهاً للاستدلال، ولا تقوم به أية حجة. والبيت هذا لايعرف له أصل في التاريخ ولاتعرف هوية قائله، مما يدل على انه مصنوع للإحتجاج به ليس أكثر، وقد قال الامام ابوالفرج إبن الجوزي:

«وبعضهم يقول: استوى بمعنى استولى، ويحتج بقول الشاعر:

حتى استوى بشر على العراق   من غير سيف ودم مهراق[1]

فقال: "وهذا منكر عند اللغويين"

---

١ ـ زاد المسير٣ /٢١٣.

٣ ـ ثم يذكر ابن الجوزي بأن هذا البيت لايعرف له قائل، فقال: «والبيتان لايعرف قائلهما، كذا قال ابن الفارس اللغوي، ولو صح فلاحجة فيه لما بيّنا من استيلاء من لم يكن مستولياً، نعوذ بالله من تعطيل الملحدة، وتشبيه المجسمة»[١] وقد روي قبل هذا الكلام ما نقلناه قبل ذلك من إنكار إبن الاعرابي على من أوّل الاستواء بالاستيلاء وإن العرب إنما تقول: أستوى فلان على كذا اذا كان بعيداً عنه غير متمكن منه ثم تمكن منه.

٤ ـ ويقول الإمام عثمان بن سعيد الدارمي (صاحب السنن):

«قالوا:[٢] تفسيره عندنا أنه استولى عليه وعلاه، قلنا: فهل من مكان لم يستول عليه ولم يعله، حتى خص العرش من بين الأمكنة بالإستواء عليه وكرر ذكره في مواضع كثيرة من كتابه؟ فأي معنى لخصوص العرش إذا كان عندكم مستوياً على جميع الأشياء»[٣].

٥ ـ وقال الشوكاني:

«قال تعالى: (الرحمن على العرش استوى) قال: قد اختلف العلماء في معنى هذا على أربعة عشر قولا، وأحقها وأولاها بالصواب مذهب السلف الصالح أنه استوى سبحانه عليه بلا كيف، بل على الوجه الذي يليق به سبحانه، مع تنزهه عما لا يجوز عليه»[٤]

٦ ـ وقال ابن جرير الطبري رحمه الله:

«وأما قوله تعالى (ثم استوى على العرش) أي ثم علا عليه»[٥].

---

١ ـ نفس المصدر.

٢ ـ أي الجهمية.

٣ ـ الرد على الجهمية ص ١٨.

٤ ـ فتح القدير ٢ /٢١١ ط دار الفكر

٥ ـ تفسير إبن جرير الطبري ١٣ /٦٢.

٧ ـ وقد ثبت عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ في قوله تعالى (هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعاً ثم استوى الى السماء) قال: إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء، ولم يخلق شيئاً غير ماخلق قبل الماء، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً فارتفع فوق الماء فسما عليه فسماه ماءً»[١].

٨ ـ وقال ابن عباس (استوى الى السماء) صعد»[٢].

٩ ـ وذكر ابن الأعرابي أن ابن أبي دؤاد[٣] سأله يوماً:
«أتعرف في اللغة استوى بمعنى استولى؟ فقال: لا أعرفه»[٤].

١٠ ـ وقال الشيخ عبدالقادر الجيلاني في «الغنية»
«وينبغي إطلاق صفة الإستواء من غير تأويل، وأنه استواء الذات على العرش لاعلى معنى القعود والمماسة كما تقول الكرامية والمجسمة، وعلى معنى الاستيلاء والغلبة كما تقول المعتزلة، لأن الشرع لم يرد بذلك»[٥] ١ ٠هـ.

قلت: وهذا دليل آخر يصحح مانقوله، وهو أن تأويل (استوى) بأنه استولى هو من شيم المعتزلة والجهمية، فمن وافقهم في هذا القول فهو معتزلي في هذا الباب، وإن خالف المعتزلة في غيره من الابواب.

---

١ ـ تفسير إبن جرير الطبري ١٥٢/١ ، وفتح القدير للشوكاني ٦١/١ ، والدر المنثور للسيوطي ٤٣/١ وإبن كثير ٦٨/١ ، وكذا البيهقي بلفظ آخر في (الأسماء والصفات) ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠ ، وإبن خزيمة ٢٤٣ .

٢ ـ الأسماء والصفات للبيهقي ص ٤١٢ ـ ٤١٣ .

٣ ـ هو أحمد بن أبي دؤاد القاضي، وهو جهمي، وكان سبباً في وقوع الامام أحمد في البلاء.

٤ ـ تاريخ بغداد ٢٨٣/٥ ، واللالكائي في شرح اصول السنين ٩٢/١ ، والبيهقي في الأسماء والصفات ص ٤١٥ .

٥ ـ الغنية ص ٥٧ .

١١ ـ وقد جرت مناظرة بين بشر المريسي وعبدالعزيز المكي في قضية الإستواء، فقال عبدالعزيز المكي في إثبات بطلان الإستيلاء:
«أيكون خلقٌ من خلْق الله أتت عليه مدة ليس الله بمستولٍ عليه؟

فيلزمك أن تقول: المدة التي كان العرش فيها قبل خلق السموات والأرض ليس الله بمستولٍ عليه»[1].

فصل

وحجة الحبشي في تأويله لصفة الإستواء على أنها استيلاء، هي أنه لم يذهب بعيداً عن اللغة ولم يخالفها، لأن معنى الاستواء في اللغة هو الاستيلاء، وهو معنى من عدة معان تصح لكلمة (استوى) في اللغة.

وهذا في اللغة لايصح كما ذكر ابن الأعرابي، ولو افترضنا أنه يصح فما رأي الحبشي لو أتاه باطني من الباطنين الذي استباحوا الشرائع وتحللوا من الأوامر والنواهي الواردة في كتاب الله، ما رأيه لو أتاه واحد منهم وقال له: إن الصلاة في اللغة بمعنى الدعاء، وأنا أدعو الله دائما ولا أصلي الصلاة الموقوتة، لأنني تأولت معنى الصلاة في اللغة على أنه الدعاء فتركت صلاتكم ولجأت الى الدعاء ولا أكون قد خالفت بذلك اللغة.

فان كان هذا كافراً عند الحبشي فلاحجة له بتكفيره إياه، لأن الحبشي يستعمل نفس الطريقة في تعطيل صفة الاستواء، وذاك يستعملها لتعطيل الصلاة وغيرها، فما يكون للحبشي من حجةٍ على الباطني، بما حاجّه الباطني بنظيرها.

---

١ ـ منهج أهل الحديث والسنة من أصول الدين «علم الكلام» للدكتور مصطفى حلمي ص ١٣٩.

وأما ما نقله عن علي رضي الله عنه، فهذا لا يصح عنه بوجه من الوجوه، بل هو موضوع، ومنسوب إليه، وهو قوله:
«إن الله تعالى خلق العرش إظهاراً لقدرته ولم يتخذه مكاناً لذاته»[1]

إذ أن الامام علياً رضي الله عنه يعلم أن العرش غير ظاهر لنا، فلايراه البشر ولايظهر لهم منه شيىء، فكيف يصح القول بأن الله خلقه إظهاراً لقدرته؟ إذ يجب إظهاره حينئذٍ حتى يرى الناس منه قدرة الله، وآثار صنعه !

اما أن يقال بأنه اتخذ العرش إظهاراً لقدرته، وهو غير ظاهر لأحد من البشر فهذا تناقض ينبغي تنزيه الامام علي عنه.

بل إن الله خلق المخلوقات الكثيرة وأظهرها لنا، وأمرنا أن ننظر اليها لنتدبر آثار قدرته وعجائب صنعه.

فقال: (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الارض كيف سطحت) [الغاشية ١٧].

وقال (قل انظروا ماذا في السموات والارض) [يونس ١٠١].

وقال (ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين) [الحجر ١٦].

وقال (الم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً) [الفرقان ٤٥].

---

١ ـ الدليل القويم ص ٥٥.

وقال (الم تر ان الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله، وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء) [النور٤٣].

وقال (أولم يروا أنا نأتي الارض ننقصها من أطرافها) [الرعد٤١]

وقال (أولم يروا انا خلقنا لهم مما عملت ايدينا انعاماً فهم لها مالكون) [يس٧١]

كل ذلك ليبين لنا الله عظيم قدرته، وبديع صنعه ، فهذه الآيات والمعجزات الدالات على قدرته، المظهرة لكمال قوته، قد أمرنا أن ننظر اليها لنتدبرها، ويظهر لنا منها أنه الله القادر على كل شيء، ومن ذلك أنه تحدى المشركين الذين اتخذوا آلهة وانداداً مع الله، تحداهم أن يأتي أحد من تلك الأصنام بمعجزة واحدة، أو بآية واحدة من هذه التي خلقها الله وجعلها علامةً مميزةً على ألوهيته عن سائر الآلهة المزعومة. فقال للمشركين:
(هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه) .[لقمان١١)
وقال: (الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم، هل من شركائكم من يفعل ذلكم من شيء([الروم ٤٠].

إذن فالله خلق لنا من الآيات الظاهرة لنا، الدالة لنا على عظيم صنعه وقدرته، فهذه الآيات إظهار لقدرة الله.

فماذا أظهر الله من العرش حتى نرى منه أثر قدرته سبحانه وتعالى؟ بل على العكس فان الجبال والسموات والارض والانهار والينابيع والزرع والانعام «وانفسنا» كل ذلك إظهار لقدرته، ولم يظهر لنا من العرش شيء من ذلك.

إثبات أن الله في السماء من الأحاديث

١ ـ حديث معاوية بن الحكم السلمي:

«كانت لي غنم بين أحد والجوانية فيها جارية، فأطلعتها ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب منها بشاة، وأنا رجل من بني آدم، فأسفت فصككتها، فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له، فعظم ذلك عليّ، فقلت: يارسول الله: أفلا أعتقها؟ قال: أدْعها، فدعوتها فقال لها: أين الله؟ قالت: في السماء، قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله ﷺ قال: أعتقها فإنها مؤمنة»(١)

وقد تأول الحبشي سؤال الرسول ﷺ للجارية بأنه سؤال عن المكانة، وأن قولها (في السماء) بمعنى أنه أعلى من كل شيء قدراً، وهذا تأويل غير محتمل، إذ لا يقال (أين) في السؤال عن المكانة، وهذا لم يقل به جهلاء العربية، فكيف بأفصح الناس لغةً، وأوسعهم بيانا؟ بل ثبت أنه كان يرفع أصبعه الى السماء ويناجي ربه، وكذلك يرفع رأسه كما سيأتي ذلك. ثم إن هناك روايات أخرى تبين عكس ما ذهب اليه الحبشي، فقد روى ابن خزيمة هذا الحديث من عدة طرق منها قوله

---

١ ـ رواه أحمد في مسنده ٢ /٢٩١ وكذلك من طريق عفان ٥ /٤٤٨، ومسلم ح (٥٣٧)، والبيهقي في سننه ٧ /٣٨٨، وفي الأسماء والصفات ٤٢٢، وأخرجه أبو داود، والنسائي في باب السهو، وأخرجه الطيالسي ح (١١٠٥)، وأبن أبي عاصم في السنة ١ /٢١٥.

ﷺ للجارية: «من ربك؟ فرفعت برأسها الى السماء فقال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله، فقال: إعتقها فإنها مؤمنة»

وفي رواية «أين الله؟ فأشارت الى السماء، قال رسول الله: من أنا؟ فأشارت الى رسول الله والى السماء أي أنت رسول الله[1] فقال: اعتقها فإنها مؤمنة»[2]. فمنهم من قال بأنها جارية بسيطة لا يحتج بكلامها وهذا لايصح لأن الحجة في إقرار الرسول لها على ذلك مهما كانت بسيطة وجاهلة.

لقد قام الحبشي بتأويل بعض آيات الله بحجة أنها من المتشابه، ولست أدري ما الذي أدى به الى تأويل أحاديث الرسول ﷺ هل هي عنده أيضا من المتشابه الذي يحتمل التأويل؟

ثم هناك الكثير من الاحاديث التي يذكر الرسول ﷺ علو الله سبحانه وتعالى على عرشه فوق سبع سمواته، كلها تبطل تأويلات الحبشي، وما على القارىء إلا أن يقارن بين ما سنذكره من الاحاديث الكثيرة وبين تأويل الحبشي.

٢ ـ عن عبدالله بن عمرو بن العاص: أن رسول الله ﷺ قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، إرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[3]

---

١ ـ التوحيد وإثبات صفات الرب جل وعلا (لإبن خزيمة) ص ١٢٢ ـ ١٢٣.

٢ ـ وهذا هو رسول الله ﷺ يشهد لها بالإيمان لقولها هذا، والأحباش يشهدون لمن شهد بمثل الجارية بأنه كافر لأنه «جعل الله في حيّز» كما يقولون، ولعمري لقد كانت جارية راعية للغنم أعلم بما يليق بالله من كل المتكلمين، وإقرار الرسول لها وعدم إنكاره عليها يؤيد ما نقول وحجتنا إقراره لها ذلك.

٣ ـ رواه أبو داود ح (٤٩٤١) والترمذي ح (١٩٨٩) ص ١ / ٣٥٠، وقال حديث حسن صحيح، والبيهقي في الأسماء. والصفات ص ٣٠٠، وأحمد ٢ / ١٦٠، والحاكم ٤ / ١٥٩، والطبراني في معجمه الكبير ٢ / ١١٨ / ٢ بلفظ يختلف، وذكره الخطيب في التاريخ ٣ / ٢٦٠، والذهبي في العلو.

وكذلك ضرب الحبشي هذا الحديث بحديث آخر وهو قوله ﷺ «الراحمون يرحمهم الرحيم إرحموا اهل الارض يرحمكم أهل السماء» وأراد بذلك اثبات مذهبه في نفي ان يكون الله في السماء وأراد أن أهل السماء هم الملائكة.

أقول: ومن عارضك القول بأن الملائكة في السماء وغيرهم؟ هذا مما لانكره، بل هذا معروف عند الجميع أن أهل السماء هم الملائكة، ولكن فسر لي بالله عليك معنى قوله تعالى: (إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون)[1].

وكذلك معنى قول رسول الله ﷺ للمصلين: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم؟ قالوا: يارسول الله وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال: يتمون الصف المقدم ويتراصون في الصف»[2] وكذلك معنى قوله تعالى: (والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض)[3] وهذا دال على أن الملائكة في السماء وهم عند ربهم سبحانه وتعالى كما قال ذلك.

٣ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن لله تبارك وتعالى ملائكة سيارة[4] فضلا، يتتبعون مجالس الذكر، فاذا وجدوا مجلسا فيه ذكر قعدوا معهم، وحفّ بعضهم بعضا بأجنحتهم، حتى يملؤا مابينهم وبين السماء الدنيا، فاذا تفرقوا عرجوا وصعدوا الى السماء، قال: فيسألهم الله عز وجل ـ وهو أعلم بهم ـ من أين جئتم؟

---

١ ـ الأعراف ٢٠٦.

٢ ـ أخرجه مسلم ح (٤٣٠) وأبو داود في كتاب الصلاة باب رقم (٩٢) و (٩٦) وإبن ماجه في الإقامة باب (٥٠) ورواه أحمد في مسنده ٩٨/٢ و ١٠١/٥ .

٣ ـ الشورى ٥.

٤ ـ سيارة: أي سياحون في الأرض.

فيقولون: جئنا من عباد لك في الأرض، يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك»[1] وللحديث بقية.

٤ ـ وعن جابر بن عبدالله ان رسول الله ﷺ قال في خطبته يوم عرفة: ألا هل بلغت، فقالوا: نعم، فجعل يرفع إصبعه الى السماء وينكتها اليهم ويقول: «اللهم اشهد».
وفي رواية لمسلم: «فقال باصبعه «السبابة» يرفعها الى السماء وينكتها الى الناس اللهم اشهد اللهم اشهد ثلاث مرات[2]

قلت: وفي هذا ما يقوي رواية ابن خزيمة في اشارة الجارية بيدها ورفع رأسها الى السماء حين سألها رسول الله ﷺ «أين الله» فلا يكفي أن أقر لها على ذلك بل ثبت عنه أنه رفع رأسه واصبعه الى السماء وأشهد ربه قائلا: «اللهم اشهد» وهذا أيضا يرد تأويل الحبشي في قوله بأن سؤال الرسول ﷺ للجارية كان عن تعظيم الله ومكانته في نفسها.

وفي رواية البخاري عن ابن عباس أن النبي ﷺ جعل يرفع رأسه الى السماء ويقول: «اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت»[3].

٥ ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً»[4]

---

١ ـ أخرجه مسلم ح (٢٦٨٩) باب فضل مجالس الذكر ص ٤ /٢٠٦٩.
٢ ـ أخرجه مسلم ح (١٢١٨) باب حجة النبي ﷺ ص ٢ /٨٩٠.
٣ ـ رواه البخاري في خلق أفعال العباد ص ٧٦ ، ٨٩ وكذلك رواه في صحيحة في كتاب الحج باب رقم (١٣٢) ص ٢ /١٩١.
٤ ـ رواه مسلم ح (١٤٤) ص ١ /٢٩٢، والبخاري ح (٤٣٥١) كتاب المغازي، ورواه الامام أحمد ٣ /٤، وإبن خزيمة في التوحيد ١١٨.

٦ ـ وعن أنس أن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: «زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سموات» وفي لفظها للنبيّ ﷺ «زوجنيك الرحمن من فوق عرشه»[١]

٧ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«والذي نفسي بيده، ما من رجل يدعو امرأته الى فراشه فتأبي عليه، إلا كان الذي في السماء ساخطا عليها حتى يرضى عنها زوجها»[٢]

٨ ـ وعن عمران بن حصين عن أبيه ان النبي ﷺ قال له: «ياحصين كم إلها تعبد اليوم؟ قال سبعة في الأرض وإله في السماء، قال: فاذا أصابك الضر من تدعو؟ قال: الذي في السماء. قال: فاذا هلك المال من تدعو؟ قال الذي في السماء. قال: فيستجيب لك وحده! وتشركهم معه؟[٣]

وفي رواية للبخاري انه قال للحصين: «كم تعبد اليوم إلها»؟ قال: سبعة، ستة في الأرض وواحد في السماء، قال: فأيهم تعد لرغبتك ورهبتك..؟ قال: الذي في السماء»[٤]

٩ ـ حديث معراج النبي ﷺ أنه لما أسري به الى السماء السابعة فرض الله عليه حينئذ خمسين صلاة كل يوم، ثم قال عليه الصلاة والسلام:

---

١ ـ رواه الترمذي ٢ /٢١٠ وقال حديث حسن صحيح، والنسائي ٢ /٧٦، وأحمد ٣ /٢٢٦ بلفظ « من السماء » والبخاري ح (٧٤٢٠) والبيهقي في الأسماء والصفات ٢٩٦، وذكره الحافظ في الفتح ١٣ /٣٤٨ والقرطبي في تفسيره ٢٢ /١١ بلفظ آخر نحوه، وفي لفظ البخاري «أنكحني الله في السماء» ٨ /١٧٦.

٢ ـ أخرجه مسلم ح (١٤٣٦) في كتاب الطلاق: باب تحريم المرأة عن الامتناع عن فراش زوجها ولم يرد في حديث مسلم كلمة زوجها، وإنما وجدتها في العلو للعلي الغفار (للحافظ الذهبي).

٣ ـ رواه إبن خزيمة في التوحيد ١٢١، وفي صحيحة في كتاب الدعاء.

٤ ـ رواه البخاري في خلق أفعال العباد ص ٤٣ والبيهقي في الأسماء والصفات ص ٣٠٠.

فرجعت فمررت على موسى، فقال: بم أُمرت؟ قلت: بخمسين صلاة كل يوم قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني اسرائيل أشد المعالجة، فارجع الى ربك فسئله التخفيف لأمتك قال عليه الصلاة والسلام: فرجعت فوضع عني عشراً» وهكذا كان يرجع إلى موسى فيقول له موسى: إرجع الى ربك» حتى قال له موسى «بم أُمرت؟ قال رسول الله ﷺ: بخمس صلوات كل يوم حتى انه كان يقول ﷺ «فلم أزل أرجع بين ربي وبين وموسى»[1].

ليت شعري: ما معنى «إرجع الى ربك» التي كان يقولها موسى لمحمد ﷺ؟ وماهو تأويل «فرجعت الى ربي» عند الحبشي، هل يسومها تأويلا وتحريفاً؟[2].

لقد تبين من الحديث أن الرسول ﷺ قد أسري به أخيراً الى السماء السابعة حيث فرض الله عليه خمسين صلاة، ويتضح كوضوح الشمس أن النبي ﷺ كان يرجع الى ربه في السماء ويسأله التخفيف لأمته، من حيث فرض الله عليه تلك الصلوات.

فهل كان الرسول ﷺ يرجع الى عظمة الله وعلو شأنه ومكانته (وهذا مقتضى تأويل الحبشي) أم أنه كان يأتي الى السماء السابعة حيث فرض الله عليه تلك الصلوات؟ وإن يك الحبشي صادقا بأن الله ليس في السماء، فإننا سنجد انفسنا مضطرين إن قبلنا كلامه لأن نرمي رسول الله ﷺ وموسى عليه الصلاة والسلام بالتشبيه والحيّز، لأن موسى عليه الصلاة والسلام قال لمحمد ﷺ : «ارجع الى ربك»

---

١ ـ حديث مشهور رواه أصحاب السنن مسلم والبخاري والنسائي والبيهقي وإبو داود وغيرهم.

٢ ـ مع أن الحبشي ذكر هذا الحديث في «دليله» ص ١٨٨ ـ ١٨٩، والحديث هذا حجة عليه إذ ما معنى قوله ﷺ: فلم أزل أرجع بين ربي وموسى، إذا لم يكن في السماء شيء؟.

فقال محمد ﷺ «فرجعت الى ربي» وعند الحبشي أنه من قال بأن الله في السماء فقد جعله في حيّز وجهة، وهذا عنده من الكفر، مع أن أحداً من البشر لم ينف عنه هذه الصفة الا الجهمية لأن أول من قال بأنه في السماء هو الله سبحانه لا نحن. إذ قال: «أمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور» فلا يجوز للحبشي أن ينكر على القائلين قولهم بأن الله في السماء، لأن أول من قالها هو الخالق، وأما المخلوقين فقد وصفوه بما وصف به نفسه ولم يتكلفوا معرفة ذات الله، ولم يكذبوا ما جاء به الله لينزهوه بعد ذلك عن الجسمية وغير ذلك من الفاظ المتكلمين القبيحة، لأن هذا تنزيه في تكذيب «ومن أصدق من الله قيلا»؟ . . فلن يكون الحبشي أصدق قيلا من الله، ولن يكون أكثر تنزيها لله من الله نفسه، ولسنا بتاركي ما وصف به نفسه في كتابه، لنقبل على مقاييس الحبشي التي لم تخدم الدين بل عطلت مافيه.

١٠ - عن أبي هريرة رضي الله عنه:
عن النبي ﷺ قال: ثم يعرج بها (أي الروح) الى السماء، فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: مرحبا بالنفس الطيبة، فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهي بها الى السماء التي فيها الله تعالى[١]» (وللحديث بقية).

وفي رواية لابن خزيمة: «حتى ينتهي بها الى السماء التي فيها الرب تبارك وتعالى»[٢] وهذا معنى قوله تعالى (تعرج الملائكة «والروح» إليه).

---

١ - رواه أحمد في مسنده ٢ /٢٦٤ و ٦ /١٤٠ وإبن ماجة في الزهد باب رقم (٢١)، والحاكم في مستدركه وقال: هو على شرط الشيخين.
٢ - التوحيد لابن خزيمة ص ١٢٠ وكذلك رواه في صحيحة في أبواب عذاب القبر.

١١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : «إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان»(١).

١٢ ـ عن أبي هريرة، أن رسول ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل. وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر. ثم يعرج الذين باتوا فيكم. فيسألهم ربهم ـ وهو أعلم بهم ـ كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون»(٢)

١٣ ـ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ينزل ربنا عز وجل كل ليلة إذا مضى ثلث الليل الأول فيقول: أنا الملك، من ذا الذي يسألني فأعطيه، من ذا الذي يدعوني فأستجيب له؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له، فلا يزال كذلك(٣)

ولقد أبطل الحبشي هذه الصفة بأن النزول هو نزول الملك بأمر الله، وهذا باطل لأنه لايجوز للملك أن يقول: من يستغفرني، ومن يسألني، ومن يدعوني، وهذا غير جائز لوجوه سنبينها لاحقا.

١٤ ـ عن أبي سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «ولا يصعد الى الله إلا الطيب(٤)» «هذه الفقرة مأخوذة من جملة الحديث».

---

١ ـ رواه البخاري ٥ /٢٠٦ تفسير سورة الحجر، ورواه كذلك في خلق أفعال العباد ص ٤٠ وصححه الترمذي.

٢ ـ أخرجه مسلم (٦٣٢) ص ١ /٤٣٩ ،والبخاري ٨ /١٧٧ كتاب التوحيد.

٣ ـ أخرجه مسلم ح (٧٥٨) بروايات عديدة ص ١ /٥٢١ ـ ٥٢٢، والبخاري ٢ /٤٧ باب التهجد وأبو داود في كتاب السنة وأحمد ٢ /٤٣٣، وعون معبود ١٣ /٤٢ وإبن خزيمة في التوحيد من طرق كثيرة ١٢٦ ـ ١٣٦ ورواه البيهقي في الاعتقاد ص ٤٣، وإبن أبي عاصم ١ /٢١٦ ـ ٢١٧.

٤ ـ رواه أحمد في مسنده ٢ /٢٦٨ وهو في الصحيحين عن طريق أبي هريرة مرفوع، وفي البخاري ٨ /١٧٨ باب قوله تعالى تعرج الملائكة والروح إليه.

١٥ - عن جبير ابن مطعم عن النبي ﷺ: «إن الله على عرشه فوق سمواته، وسمواته فوق أراضيه مثل القبة»(١)

١٦ - عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس اعلاها درجة، ومن فوقها العرش»(٢)

١٧ - عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لما خلق الله الخلق كتب في كتاب، كتبه على نفسه فهو مرفوع عنده «فوق العرش» : إن رحمتي تغلب غضبي»(٣)

١٨ - عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لاينام، ولا ينبغي أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل»(٤)

١٩ - عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «ربنا الذي في السماء تقدس اسمك»(٥)

٢٠ - عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «إتقوا دعوة المظلوم فإنها تصعد الى الله كأنها شرار»(٦)

---

١ - رواه البخاري في خلق أفعال العباد ٤٢-٤٣.

٢ - أخرجه الترمذي ٣ /٣٢٦، والحاكم ١ /٨٠ وأحمد ٥ /٣١٦-٣٢١ وإبن ماجة ٢ /٥٩٠، وقال الحاكم «إسناده صحيح» ووافقه الذهبي، ورواه البيهقي في الاعتقاد ص ٤٢، والبخاري في باب درجات المجاهدين في سبيل الله وكذلك رواه البخاري في باب «وكان عرشه على الماء» ٨ /١٧٨.

٣ - أخرجه البخاري ح (٧٥٥٤) ومسلم ح (٢٧٥١) ص ٤ /٢١٠٧ كتاب التوبة، والبيهقي في الاعتقاد ٤٢ .

٤ - أخرجه مسلم ح (١٧٩) ص ١ /١٦٢.

٥ - رواه أبو داوود ح (٣٨٩٢) والنسائي وأحمد ٦ /١٢ من حديث فضالة بن عبيد والبيهقي في الأسماء والصفات ص ٣٠٠ من حديث أبي الدرداء.

٦ - أخرجه الحاكم ١ /٢٩ عن أبي كريب ثناحسين بن علي، عن زائدة، عن عاصم بن كليب عن.

٢١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «فأكون أول من بُعث، فإذا موسى آخذ بالعرش» وفي رواية: «فإذا أنا بموسى، آخذ بقائمة من قوائم العرش»(١)

وهذا الحديث يرد على زعم من قال بأن العرش معناه الملك، لأنه معلوم من الحديث أن العرش له قوائم، فبطل عندئذٍ قول من جعل العرش من جملة صفات الله إذ أن الاستواء هو الصفة التي اتصف الله بها، والعرش مخلوق. وبطل ايضاً هذاالقول من وجه آخر: وهو قوله عز وجل: (وكان عرشه على الماء) فلا يصح القول بأن مُلك الله على الماء.

إثبات أن الله في السماء من كلام الصحابة والتابعين والأئمة

١ ـ قال ابن عباس في تفسير قوله تعالى:
(ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم)
قال: لم يستطع أن يقول من فوقهم، علم أن الله فوقهم»(٢)

٢ ـ قول عمر رضي الله عنه في خولة بنت ثعلبة: «هذه أمرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات»(٣) وقصتها أنها جاءت الى النبي ﷺ

= محارب بن دثار عن إبن عمر قال قال رسول الله: فذكر الحاكم الحديث وقال: «احتج مسلم بعاصم بن كليب، والباقون متفق على الاحتجاج بهم» ووافقه الذهبي وقال: غريب وإسناده جيد، وكذلك أخرجه الديلمي ١ /١ /٣٢ ـ ٤٣.

١ ـ أخرج البخاري الروايتين في كتاب التوحيد (باب وكان عرشه على الماء) ٨ /١٧٧.

٢ ـ أخرجه السيوطي عن عبد بن حميد بن حميد وإبن جرير، والدر المنثور ٣ /٧٣ وإبن كثير ٢ /٢٠٤ وإبن جرير الطري ٨ /١٠١، واللالكائي في شرح أصول السنن ٣ /٣٩٧.

٣ ـ الدر المنثور للسيوطي ٦ /١٧٩ وإبن كثير ٤ /٣١٨، وأحمد وأبو داود وإبن جرير الطبري ٢٨ /٤ ـ ٥، وإبن القيم في جيوشه ص ٣٩، والبيهقي في الأسماء والصفات ص ٢٩٦.

تجادله في زوجها وتشكوه فأنزل تعالى (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير) وهذا ما دعا عائشة الى التعجب بقولها: الحمد لله الذي وسع سمعه الاصوات لقد جاءت المجادلة الى رسول الله ﷺ وأنا في ناحية البيت تشكو زوجها ما أسمع ما تقول»[1] ولو لم تعلم عائشة أن الله تعالى فوق سمواته لما تعجبت، بل هي تعلم هذا، فانها هي القائلة (برأني ربي من فوق سبع سموات) وذلك حين رماها بعضهم بالزنا.

٣ ـ ولذلك فقد امتدحها ابن عباس حين دخل عليها وهي تموت بقوله لها: «كنت أحب نساء رسول الله ﷺ الى الرسول ﷺ ولم يكن رسول الله يحب إلا طيباً، وأنزل الله براءتك من فوق سبع سموات»[2]

٤ ـ روى البخاري عن ابن عباس قوله: «لما كلم الله موسى كان النداء في السماء، وكان الله في السماء»[3]

٥ ـ وروى عن مجاهد في تفسير قوله تعالى: (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) قال: «العمل الصالح يرفع الكلم الطيب» وفي قوله تعالى (تعرج الملائكة والروح اليه) قال: يقال ذي المعارج، الملائكة تعرج الى الله»[4]

وكذلك روى عن عبدالله بن مسعود قوله: «العرش على الماء، والله

---

١ ـ رواه الواحدي في أسباب النزول ص ٣٠٤، والطبري ٢٨ /٦٠٥، والحاكم في المستدرك ٢ /٤٨١ وصححه ووافقه الذهبي، ورواه إبن ماجة في سننه رقم (٢٠٦٣)، والبيهقي في سننه ٧ /٣٨٢.

٢ ـ رواه الامام أحمد في مسنده ١ /٢٧٦، والدارمي في الرد على الجهمية.

٣ ـ رواه البخاري في خلق أفعال العباد ص ٤٠.

٤ ـ أخرجه البخاري في باب قول الله تعالى (تعرج الملائكة والروح إليه) ٨ /١٧٧.

فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه» وفي لفظ آخر «لايخفى عليه شيء من أعمالكم»[1]

٦ ـ وعن الامام مالك رضي الله عنه قال: «الله في السماء، وعلمه في كل مكان، لايخلو منه شيء»[2]

٧ ـ عن صدقة قال: سمعت سليمان التيمي يقول: «لو سئلت أين الله، لقلت في السماء»[3]

٨ ـ وقال عباد بن العوام (محدث واسط) كلمت بشر المريسي واصحابه فرأيت آخر كلامهم ينتهي ان يقولوا: ليس في السماء شيء، أرى «وفي لفظ أرى والله» ان لا يناكحوا ولا يوارثوا»[4]

٩ ـ وقال ابوالعالية: (استوى الى السماء) ارتفع وقال مجاهد: استوى أي علا «وفي شرح السنة للبغوي عن ابن عباس انه ارتفع»[5]

---

١ ـ رواه السيوطي في الدر المنثور ١ /٤٤، وإبن خزيمة في التوحيد ١٠٦، ورواه البخاري في خلق أفعال العباد ٤٣، ورواه البيهقي في الأسماء والصفات ٤٠١ ورواه عبد الله بن الإمام أحمد في السنة، وإبن المنذر والطبراني، وإبن خزيمة في صحيحة ص ٧٠ والدارمي ١٠٥ في الرد على الجهمية، وأبو الشيخ في العظمة (ق ٣٤ /٢) واللالكائي في شرح أصول السنن ١ /٩١ /٢ وإبن القيم في جيوشه ص ١٠٠ وسنده صحيح.

٢ ـ أخرجه أبو داود في مسائله ١٠٥، ٢٦٣ والآجري في الشريعة ٢٨٩، وعبد الله بن الإمام أحمد في السنة ص ٥ والبيهقي في الأسماء والصفات، مروياً عن عبد الله بن نافع وقد وصفه الكوثري بأنه (صاحب المناكير) وهذا تدليس منه وتزوير، لأن صاحب التهذيب امتدحه ونقل عنه بإنه أعلم الناس برأي مالك وهذا قول أحمد فيه والآجري وأبو داود، انظر التهذيب ٦ /٥٢، ورواه إبن عبد البر في الإنتقاء ص ٣٥ وإبن بطة في الإبانه (ق ١ /١٩٤) (نقلاً عن تخريج مختصر العلو والذي قبله).

٣ ـ أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد ص ٣٧، واللالكائي في شرح أصول السنن ٩٢ /٢.

٤ ـ أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في السنة ١٣ و ٦٣. والذهبي في العلو ص ١١٢.

٥ ـ أخرجه البخاري في صحيحة باب (وكان عرشه على الماء) ٨ /١٧٥، وانظر فتح الباري ١٣ /٤٠٣ ـ ٤٠٦، وقد نقل الحبشي هذا الأثر في كتابه «الدليل القويم» ص ٣٩ لكنه ناقض هذا الكلام وخالفه أشد المخالفة وفسر الإستواء بالإستيلاء ص ٣٨.

١٠ ـ وسئل ابن المبارك: كيف نعرف ربنا؟ قال: «في السماء السابعة، على عرشه، ولا نقول كما تقول الجهمية: إنه هاهنا في الأرض»[1].

١١ ـ وقال الشافعي رحمه الله: «السنة التي أنا عليها ورأيت اصحابنا أهل الحديث الذين رأيتهم علينا فأحلف عنهم مثل سفيان ومالك وغيرهما: الاقرار بشهادة أن لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله، وأن الله على عرشه في سمائه، يقرب من خلقه كيف يشاء، وان الله ينزل الى سماء الدنيا كيف يشاء»[2]

١٢ ـ عن مجاهد في قوله تعالى (وقربناه نجيا) قال: «بين السماء السابعة وبين العرش سبعون ألف حجاب، فمازال يقرب موسى حتى كان بينه وبنيه (أي وبين الله) حجاب، فلما رأى مكانه وسمع صريف القلم قال: رب أرني أنظر اليك»[3]

١٣ ـ وعن أبي مطيع، الحكم بن عبدالله البلخي قال: «سألت أبا صنيفة عمن يقول: لا أعرف ربي في السماء أو في الأرض فقال: فقد كفر،

---

١ ـ رواه البخاري في خلق أفعال العباد ص ٣١ (باب يريدون أن يبدلوا كلام الله) وعبد الله بن الإمام أحمد في السنة ص٧، ٢٥، ٣٥ و ٧٢ من طرق عن إبن شقيق، وقال الذهبي في مختصره: «هذا صحيح ثابت عن إبن المبارك وأحمد رضي الله عنه». وأخرجه الدارمي في الرد على بشر المريسي ص ٢٤ و ١٠٣، وإبن القيم في جيوشه ص ٤٤ و ٨٤، ومجموعة الرسائل المنيرية ١/١١١، والعلو للذهبي ص ١١٠.

٢ ـ رواه إبن قدامة المقدسي في لمعة الاعتقاد ص ٤ ـ ٥ وعون المعبود ١٣ /٤١ و ٤٧ وساقه إبن أبي يعلى في طبقات الحنابلة بإسناده المتصل إلى الشافعي١ /٢٨٣.

٣ ـ أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات ص٤٠٢ عن روح بن عبادة وأبو الشيخ في العظمة ٢ /٤٩ و ١ /٥٥، وإبن كثير ٣ /١٢٤ وإبن جرير الطبري ١٦ /٧١، والدر المنثور للسيوطي ٤ /٢٧٣ من طريق روح بن عبادة، وكذلك المح الكوثري إلى الطعن بروح بن عباده. مع أنه ثقة كما قال عنه أحمد، ونقل عنه أئمة كثيرون ذلك فقد قال فيه الإمام أحمد: لم يكن به بأس ولم يكن متهماً بشيء، وقال يعقوب بن شيبة: صدوقاً، وقال عنه إبن معين: «ليس به بأس، صدوق، حديثه يدل على صدقه»، انظر تهذيب التهذيب لإبن حجر ٣ /٢٩٣ (نقلاً عن تخريج مختصر العلو).

لأن الله تعالى يقول: (الرحمن على العرش استوى) وعرشه فوق سمواته، فقلت: انه يقول: اقول على العرش استوى، ولكن قال لا يدري العرش في السماء أو العرض، قال: إذا أنكر أنه في السماء فقد كفر»(١)

١٤ ـ وروى البيهقي في الاسماء والصفات عن الاوزاعي أنه قال: «كنا، والتابعون متوافرون، نقول: إن الله عز وجل فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته»(٢)

١٥ ـ وقال ابوالحسن محمد بن العطار: سمعت محمد بن مصعب العابد يقول: «أشهد انك فوق العرش، فوق سبع سموات ليس كما يقول اعداء الله الزنادقة»(٣)

١٦ ـ وعن عبدالله بن الامام أحمد عن أبيه عن نوح بن ميمون عن بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان في قوله تعالى (مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو معهم) قال: هو على عرشه وعلمه معهم.. وهذا مأثور أيضا عن الضحاك وسفيان الثوري.(٤)

١٧ ـ ويقول الامام ابن قتيبة: «والامم كلها عربيها وعجميها تقول إن

---

١ ـ رواه البيهقي في الأسماء والصفات ص ٢٩١، والفقه الأكبر ٣٦ ـ ٣٧، ورواه الذهبي في العلو ص ١٠١.

٢ ـ رواه البيهقي في الأسماء والصفات ص ٤٠٨، وإبن حجر في فتح الباري ١٣ /٤٠٦ وصححه الذهبي في تذكرة الحفاظ ١٨١.

٣ ـ أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في السنة ص ٣٤ وكذلك أخرجه الخطيب البغدادي في الكامل في التاريخ ٣ /٢٨٠ من طريق الدار قطني، وقد وثقه إبن سعد في طبقاته فقال: كان قارئاً لكتاب الله وقد سمع الحديث وجالس الناس، وكان ثقة إن شاء الله.

٤ ـ أخرجه اللالكائي ١ /٩٢ /٢، والسنة لإبن الإمام أحمد ص ٧١ واخرجه ابو داود ص٢٦٣ عن الامام احمد والبيهقي في الاسماء والصفات ص٤٣٠ ـ ٤٣١، وفي رواية له عن مقاتل بن حيان عن الضحاك به، وهي رواية الآجري ص ٢٨٩ (نقلا عن تخريج مختصر العلوّ).

الله في السماء، ما تركت على فطرها ولم تنقل عن ذلك بالتعليم» ثم ذكر حديث الجارية واستدل به[1]

١٨ ـ وقال البيهقي فيما نقله عن شيخه أبي بكر بن فورك أنه قال: «استوى بمعنى علا وقال في قوله (ءأمنتم من في السماء) أي من فوق السماء.

ثم احتج البيهقي لذلك بقول النبي ﷺ لسعد: «لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سموات»[2]

كلام البيهقي في العلو

١٩ ـ وكذلك ننقل بعض ما قاله البيهقي في كتابه: الاعتقاد عل مذهب أهل السنة قال البيهقي رحمه الله تعالى: «قال الله تبارك وتعالى: (الرحمن على العرش استوى) وقال (وهو رب العرش العظيم) وقال (ذو العرش المجيد) وقال (وترى الملائكة حافّين من حول العرش) وقال (الذين يحملون العرش ومن حوله) وقال (وهو القاهر فوق عباده) وقال (يخافون ربهم من فوقهم) وقال (إليه يصعد الكلم الطيب) وقال (ءأمنتم من في السماء) قال البيهقي: واراد من فوق السماء كما قال (ولأصلبنكم في جذوع النخل) أي على جذوع النخل وقال (فسيحوا في الأرض) يعني على الأرض، وكل ماعلا فهو سماء، والعرش أعلى على السموات فمعنى الآية والله اعلم ـ «أمنتم من على العرش ـ كما صرح به في سائر الآيات»[3]

---

١ ـ تأويل مختلف الحديث للامام إبن قتيبة ص١٨٣.
٢ ـ الأسماء والصفات للبيهقي ص ٤١١ ـ ٤٢٠.
٣ ـ الاعتقاد على مذهب السلف للبيهقي ص ٤٢، ط حديث أكاديمي (باكستان) ومحقق ص ١١٢ ـ ١١٣.

وقال البيهقي رحمه الله: «وفيما كتبنا من الآيات دلالة على ابطال قول من زعم من الجهمية ان الله سبحانه وتعالى بذاته في كل مكان وقوله عز وجل (وهو معكم أينما كنتم) أنما اراد بعلمه لا بذاته.

وروى البيهقي عمن ذهب من المتقدمين ومن تبعهم من المتأخرين أن الاستواء على العرش قد نطق به الكتاب في غير آية، ووردت به الاخبار الصحيحة وقبوله من جهة التوقيف واجب، والبحث عنه وطلب الكيفية له غير جائز»[1]

٢٠ ـ وقال الامام الحافظ ابو القاسم اللالكائي في كتابه «شرح أصول اعتقاد اهل السنة والجماعة سياق ماروي في قوله: (الرحمن على العرش) وان الله على عرشه، قال الله عز وجل (إليه يصعد الكلم الطيب) وقال (ءأمنتم من في السماء) وقال (وهو القاهر فوق عباده) ثم قال اللالكائي: «فدلت هذه الآيات أنه في السماء وعلمه بكل مكان»[2]

٢١ ـ وقال الحافظ ابن عساكر:

«وقد الفنا كتابا كبيراً في الصفات تكلمنا فيه على أصناف المعتزلة والجهمية، فيه فنون كثيرة من الصفات في اثبات الوجه واليدين، وفي استوائه على العرش»[3]

٢٢ ـ وقال ابن رشد في كتابه «مناهج الأدلة»:

«وشريعة الاسلام كلها مبنية على أن الله في السماء، ومنه تنزل الملائكة بالوحي الى النبيين، ومن السماء أنزلت الكتب»[4]

---

١ ـ الاعتقاد ص ٤٢ ـ ٤٣، ومحقق ص ١١٤ ـ ١١٥ ط دار الآفاق الجديدة.

٢ ـ شرح اعتقاد أهل السنة ٣ /٣٨٨ بتحقيق أحمد سعد حمدان ط دار طيبة.

٣ ـ تبيين كذب المفترى للحافظ إبن عساكر ص ١٢٩.

٤ ـ مناهج الادلة ص ١٧٦ ط الإنجلو المصرية.

كلام الامام احمد في العلو

٢٣ ـ قال الامام احمد في كتابه «الرد على الزنادقة والجهمية»[١]:
«وقد أخبرنا أنه في السماء فقال: (ءأمنتم من في السماء) وقال تعالى (يخافون ربهم من فوقهم) فهذا خبر من الله انه في السماء

ووجدنا كل شيء اسفل منه مذموما، يقول الله جل ثناؤه (إن المنافقين في الدّرْك الأسفل من النار) وقال تعالى (وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذيْن أضلانا من الجن والانس نجعلهْما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين)

وقد عرف أهل العلم أن فوق السموات السبع، والعرش واللوح المحفوظ، وقد أنكرتم أن الله على العرش، وقد قال تعالى (الرحمن على العرش استوى)[٢]

---

١ ـ كتاب الرد على الزنادقة الجهمية ص ٤١ و ٤٨ و ٤٩.

٢ ـ لقد أراد البعض القدح في صحة نسبة هذا الكتاب إلى الإمام أحمد بن حنبل، بعد أن رأوا فيه ما يناقض آراءهم وبعد أن ضاقت صدورهم من ذلك. أو أن يفتحوا هذا الباب ليفروا منه. ولن يستطيعوا فتح هذا الباب ولن يتسنى لهم الهرب منه، لأن صحة نسبة هذا الكتاب إلى الإمام أحمد ثابتة بالأدلة التالية:

(١) فقد روى الخلال هذا الكتاب عن طريق إبن الإمام أحمد واسمه عبد الله، وقال: كتبت هذا الكتاب من خط عبد الله بن أحمد وكتبه عبد الله من خط أبيه أحمد بن حنبل (كتاب السنة للخلال) وكذلك رواه الخلال عن طريق الخضر بن مثنى لأنه أحب أن يكون متصل السند على طريقة أهل النقل.

(٢) وذكره القاضي أبو الحسن بن القاضي أبي يعلى في كتابه المشهور المسمى ب «إبطال التأويل» فقال: قرأت في كتاب أبي جعفر محمد بن أحمد بن صالح بن أحمد إبن حنبل قال: قرأت على أبي صالح بن أحمد هذا الكتاب فقال) «هذا كتاب عمله أبي في مجلسه رداً على من احتج بظاهر

٢٤ ـ وقال يوسف بن موسى القطان شيخ أبي بكر الخلال: «قيل لأبي عبدالله (احمد بن حنبل) : الله فوق السماء السابعة على عرشه بائن من خلقه، وقدرته وعلمه بكل مكان؟ قال: نعم، هو على عرشه ولا يخلو شيء من علمه»(١)

٢٥ ـ وقال حنبل بن اسحق: قيل لأبي عبدالله (أحمد بن حنبل): ما معنى «وهو معكم» قال: علمه محيط بالكل، وربنا على العرش بلا حد

= القرآن وترك ما فسره رسول الله ﷺ.

(٣) وذكر هذا الكتاب أبو اليمن مجير الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العليمي (٨٦٠ هـ ـ ٩٢٨ هـ) في كتابه المسمى ب «المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد (ص ١٩) وذكره الإمام حافظ إبن منده في كتابه «الرد على الجهمية» تحقيق الفقيهي ص ٢٢، وقد أثبته البيهقي في كتابه «جامع النصوص» وكذلك إبن القيم في اجتماع الجيوش الاسلامية ص ٧٨ و ٨٢.

(٤) وذكره العلامة السفاريني في كتابه «لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية» (ص ٦٦ ـ ٦٧) وأثبت أن الكتاب من مؤلفات الإمام أحمد.

(٥) وذكره أيضاً إبن حجر العسقلاني في شرح صحيح البخاري (فتح الباري ١٣ /٤٢٢).

(٦) وكذلك ذكره إبن النديم وأثبته من بين ما أثبته من كتب الإمام أحمد فقال: وله كتاب العلل، وكتاب التفسير، كتاب الزهد، كتاب الإيمان، كتاب المناسك. . . كتاب الرد على الجهمية، كتاب المسند ويحتوي على نيف وأربعين ألف حديثاً ا. هـ (الفهرست لإبن النديم ص ٢٢٩ طبع فلوجل).

(٧) وهذا الكتاب موجود في مكتبة روان كشك سنة ١٠٨٤ (مخطوطة رقمها ١٥٠ / ٥) وكذلك في المكتبة الظاهرية ضمن مجموعة (رقم ١١٦) (ص ١ ـ ٢٣) مكتوب عليها: «الرد على الزنادقة والجهمية» للامام أحمد بن حنبل الشيباني ونسخة أخرى منه في مكتبة روان كشك تحت رقم ١٥٠ / ٤ وبها ٨٥ ورقة مقاسها ١٧ /٢٩ سم.

(٨) وكذلك فان هناك مخطوطة من هذا الكتاب في «فهرس المخطوطات المصورة ١ /١٢٥ في القاهرة ١٩٥٤. وهذا مايثبت صحة نسبة الكتاب إلى الإمام أحمد، والأدل من هذا كله قول الإمام الخلال في كتابه (السنة) بأنه كتب هذا الكتاب من خط عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل وكذلك إحتج به إبن عقيل ونقله من كتاب «إبطال التأويل» للقاضي أبي يعلى.

١ ـ يوسف بن موسى القطان هو من شيوخ البخاري وهو ثقة (سنة ٢٥٣ هـ) وسمع الخلال هذا الأثر منه.

ولا صفة» روى هذا عنه الامام اللالكائي في شرح أصول السنن (٣/٤٠٢)

٢٦ ـ قال حرب بن اسماعيل الكرماني: قلت لاسحق بن راهوية: قوله تعالى (مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) كيف نقول فيه؟ قال: حيث ماكنت فهو أقرب اليك من حبل الوريد، وهو بائن من خلقه، ثم ذكر قولا لابن المبارك يقول فيه: هو على عرشه، بائن من خلقه»[1]

٢٧ ـ عن أبي سعيد الدنيوري قال: قال محمد ابن جرير الطبري: «وحسب امرىء ان يعلم أن ربه هو الذي على العرش استوى، فمن تجاوز ذلك خاب وخسر»[2]

٢٨ ـ ويقول الامام محمد بن اسحاق «ابن خزيمة» في كتابه التوحيد[3]: «فنحن نؤمن بخبر الله جل وعلا أن خالقنا مستوٍ على عرشه، لانبدل كلام الله، ولا نقول قولا غير الذي قيل لنا كما قالت المعطلة الجهمية أنه استولى على عرشه لا استوى فبدلوا قولا غير الذي قيل لهم».

وقال: «وفي الاخبار (اخبار معراج النبي ﷺ) دلالة واضحة ان النبي ﷺ عرج به من الدنيا الى السماء السابعة، وأن الله تعالى فرض عليه الصلوات على ماجاء في الاخبار فتلك الاخبار كلها دالة على أن الخالق الباري فوق سبع سموات» وقال «ألم تسمعوا

١ ـ رواه أبو بكر الخلال في «كتاب السنة»، والهروي في «ذم الكلام» ٦ /١٢٠ /١ عن حرب به والذهبي في العلو (كما في تخريج مختصره).

٢ ـ رواه اللالكائي في شرح أصول السنن ١ /٤٩ /١ وإبن القيم في جيوشه ص ٧٥ (عن مختصر العلو).

٣ ـ قال عنه الذهبي: «الشيخ المحدث الثقة». انظر سير أعلام النبلاء ١٥ /٥١٥.

ياطلاب العلم قوله تبارك وتعالى لعيسى بن مريم: (ياعيسى إني متوفيك ورافعك اليّ).

أليس إنما يرفع الشيء من أسفل أعلا، لا من أعلى الى أسفل.. فيقال رفعه الله اليه لأن الرفعة في لغة العرب لا تكون إلا من اسفل الى أعلا وفوق، ألم تسمعوا قول خالقنا جل وعلا يصف نفسه (وهو القاهر فوق عباده) أو ليس العلم يحيط أن الله فوق جميع عباده من الجن والانس والملائكة الذين هم سكان السموات جميعا؟ أو لم تسمعوا قول الخالق الباري (ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون، يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) فأعلمنا الجليل جلا وعلا في هذه الآية إيضا أن ربنا فوق ملائكته وفوق ما في السموات وما في الأرض من دابة، وأعلمنا ان ملائكته يخافون ربهم الذي فوقهم.

أو لم تسمعوا قول خالقنا (يدبر الأمر من السماء الى الأرض ثم يعرج اليه)؟ أليس معلوما في اللغة السائرة بين العرب التي خوطبنا «بها» وبلسانهم نزل الكتاب أن تدبير أمر السماء الى الأرض انما يدبره المدبر وهو في السماء

وقال جل وعلا: (سبح اسم ربك الأعلى) فالأعلى في اللغة أنه أعلا كل شيء وفوق كل شيء»١. هـ[1]

٢٩ ـ وقال عثمان بن سعيد الدارمي (صاحب السنن) في كتابه النقض على بشر المريسي: «قد اتفقت الكلمة من المسلمين أن الله فوق

١ ـ كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب جل وعلا ص ١٠١ و ١١١ ـ ١١٢ و ١١٩، للامام محمد بن اسحق إبن خزيمة (٢٢٣ ـ ٣١١) هـ.

عرشه، فوق سمواته.. إن الله تعالى فوق عرشه، ويسمع من فوق العرش، لاتخفى عليه خافية، ولا يحجبهم عنه شيء»[1]

٣٠ ـ وقال في كتابه الردعلى الجهمية:

«.. ويلكم.. إجماع من الصحابة والتابعين وجميع الأمة من تفسير القرآن والفرائض والحدود والاحكام: نزلت آية كذا في كذا، ونزلت سورةكذا في كذا، لانسمع أحداً يقول: طلعت من تحت الأرض، ولا جاءت من امام، ولا من خلف، ولكن كله: نزلت من فوق. فمن لم يقصد بإيمانه وعبادته الى الله الذي استوى على العرش فوق سمواته، وبان من خلقه فإنما يعبد غير الله، ولا يدري أين الله»[2]

٣١ ـ وقال كذلك: «ففي حديث الجارية[3] هذا دليل على أن الرجل لم يعلم أن الله عز وجل في السماء دون الأرض فليس بمؤمن، ولو كان عبداً فأعتق لم يجز في رقبة مؤمنة، إذ لايعلم ان الله في السماء ألا ترى أن رسول الله ﷺ جعل امارة ايمانها، معرفتها أن الله في السماء!

وفي قول رسول الله ﷺ «أين الله؟» تكذيب لقول من يقول: هو في كل مكان لايوصف بأين، لأن شيئا لايخلو منه مكان، يستحيل أن يقال: أين هو؟

فالله تبارك وتعالى، فوق عرشه، فوق سمواته، بائن من خلقه، فمن لم يعرفه بذلك، لم يعرف إلهه الذي يعبد»[4]

١ ـ النقض على بشر المريسي ص ٢٥ و ٧٩ و٨٢ ـ ٧٣.
٢ ـ الرد على الجهمية للدارمي ص ٣٣.
٣ ـ هي التي سألها الرسول ﷺ: أين الله؟ قالت: في السماء، فقال لوليها: أعتقها فإنها مؤمنه.
٤ ـ الرد على الجهمية للدارمي (ص ٢٢).

٣٢ ـ وقال الامام موفق الدين ابن قدامة المقدسي في لمعة الاعتقاد: «فماجاء من آيات الصفات (ويبقى وجه ربك) وقوله سبحانه (بل يداه مبسوطتان)ـ وذكر آيات كثيرة الى أن قال ـ فهذا وما أشبهه مما صح سنده وعُدلت رواته نؤمن به، ولا نرده ولانجحده، ولا نتأوله بتأويل يخالف ظاهره، ولا نشبهه بصفات المخلوقين، ونعلم ان الله سبحانه وتعالى لاشبيه له ولا نظير (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)» ثم قال: ومن ذلك قوله تعالى (ءأمنتم من في السماء) وقول النبي للجارية أين الله؟

قالت: في السماء قال: «اعتقها فإنها مؤمنة»

وقال النبي ﷺ لحصين: «كم إلهاً تعبد؟ قال سبعة ستة في الأرض وواحد في السماء قال: من لرغبتك ورهبتك؟ قال: الذي في السماء، قال: فاترك الستة واعبد الذي في السماء فهذا وما أشبهه مما أجمع السلف رحمهم الله على نقله وقبوله، ولم يتعرضوا لرده ولا تأويله ولا تمثيله»[١]

٣٣ ـ وقال الامام المحدث أبوعثمان الصابوني في عقيدة أصحاب الحديث:

«ويعتقد أهل الحديث أن الله سبحانه وتعالى فوق سبع سموات على عرشه كما نطق به كتابه في قوله عز وجل (ثم استوى على العرش)

يثبتون له من ذلك ما أثبته الله تعالى ويؤمنون به، ويصدقون الرب جل جلاله في خبره ويطلقون ما أطلقه سبحانه وتعالى من استوائه على العرش» وقال: «ويثبت أصحاب الحديث نزول الرب سبحانه وتعالى كل ليلة الى السماء الدنيا من غير تشبيه له بنزول

١ ـ لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد ص ٨ ـ ١٠ ط دار مصر للطباعة.

المخلوقين ولا تمثيل ولا تكييف. . وكذلك يثبتون ما أنزله الله عز اسمه في كتابه من ذكر المجيء والاتيان المذكورين في قوله عز وجل (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر) وقوله عز اسمه (وجاء ربك والملك صفا صفا). . ونؤمن بذلك كله على ما جاء بلا كيف، فلو شاء سبحانه أن يبين لنا كيفية ذلك فعل، فانتهينا الى ما أحكمه وكففنا عن الذي يتشابه إذ كنا قد أمرنا به في قوله عز وجل (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا)»[1]

٣٤ ـ وقال العلامة الشيخ احمد بن ابراهيم الواسطي في كتابه «النصيحة في صفات الرب جل وعلا: «وكنت متحيراً في الأقوال المختلفة الموجودة في كتب أهل العصر في جميع ذلك، من تأويل الصفات وتحريفها، أو امرارها، أو الوقوف فيها، أو إثباتها بلا تأويل، ولا تعطيل، ولا تشبيه ولا تمثيل.

ثم أجد المتأخرين من المتكلمين في كتبهم، منهم من تأول الاستواء: بالقهر والاستيلاء، وتأول النزول بنزول الأمر، وتأول اليدين: بالنعمتين والقدرتين، وتأول القدم: بقدم صدق عند ربهم، وأمثال ذلك. .

وكنت أخاف من اطلاق القول بإثبات العلو، والاستواء، والنزول،

---

١ ـ عقيدة السلف وأصحاب الحديث ١ /١٠٩ ـ ١١٢ ضمن مجموعة الرسائل المنيرية ط دار إحياء التراث العربي وكذلك له كلام مماثل في كتاب «الرسالة» يقول فيه: «ويعتقد أهل الحديث أن الله سبحانه وتعالى فوق سبع سموات على عرشه كما نطق به كتابه . أنظر كتابه «الرسالة» ص ١٠٩ ـ ١١٠.

مخافة الحصر والتشبيه. ومع ذلك فاذا طالعت النصوص الواردة في كتاب الله وسنة رسوله، أجدها نصوصاً تشير الى حقائق هذه المعاني، وأجد الرسول ﷺ قد صرح بها، مخبراً عن ربه واصفاً له بها، وأعلم بالاضطرار أنه كان يحضر في مجلسه الشريف، العالم، والجاهل، والذكي، والبليد، والاعرابي الجافي. ثم لا أجد شيئا يعقب تلك النصوص، التي كان ﷺ يصف بها ربه، لا نصا ولا ظاهراً، ممايصرفها عن حقائقها، ويؤولها كما تأولها هؤلاء ـ مشايخي الفقهاء المتكلمون ـ مثل تأويلهم الاستواء بالاستيلاء والنزول بنزول الأمر وغير ذلك.

ولم أجد عنه ﷺ انه كان يحذر الناس من الايمان بما يظهر من كلامه في وصفه[1] لربه من الفوقية واليدين وغيرها، مثل أن ينقل عنه مقالة تدل على أن لهذه الصفات معاني أخر باطنة غير ما يظهر من مدلولها، مثل :فوقية المرتبة، ويد النعمة، وغير ذلك.

وأجد الله عز وجل يقول: (الرحمن على العرش استوى)
وقال الله تعالى: (يخافون ربهم من فوقهم)
وقال الله تعالى: (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه)
وقال الله تعالى: بل رفعه الله إليه
وقال الله تعالى: (أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فاذا هي تمور)
وقال الله تعالى: (قل نزله روح القدس من ربك)
وقال الله تعالى: (من الله ذي المعارج، تعرج الملائكة والروح اليه)

ثم ذكر حديث الجارية وحديث «الراحمون يرحمهم الرحمن» وحديث

---

١ ـ في الأصل: في صفة لربه.

عروج الروح الى ربها وحديث «ربنا الذي في السماء» وحديث سخط الله على التي تأبى على زوجها في فراشه، وحديث عروجه ﷺ الى ربه، وغير ذلك من الاحاديث الدالة على علوه سبحانه وتعالى على عرشه فوق سمواته، ثم قال:

«والذي شرح الله به صدري في حال هؤلاء الشيوخ، الذين أولوا الاستواء بالاستيلاء، والنزول: بنزول الأمر، واليدين: بالنعمتين القدرتين. . . «هو علمي بأنهم ما فهموا في صفات الرب إلا ما يليق بالمخلوقين، فما فهموا عن الله استواءً يليق به، ولا نزولاً يليق به، ولا يدين تليقان بعظمته بلا تكييف ولا تشبيه، فلذلك حرفوا الكلم عن مواضعه، وعطلوا ما وصف الله به نفسه.

وإذا علمنا ذلك واعتقدناه، تخلصنا من شبه التأويل، وعمادة التعطيل، وحماقة التشبيه والتمثيل، وأثبتنا علو ربنا وفوقيته، واستواءه على عرشه، كما يليق بجلاله وعظمته، والحق واضح في ذلك، وينشرح له الصدر»[١].

٣٥ ـ وقال العلامة أبو محمد عبد الله بن يوسف الجويني[٢] (والد إمام الحرمين) في رسالته المسماة ب: «رسالة في إثبات الإستواء والفوقية» قال:

«العبد إذا أيقن أن الله تعالى فوق السماء، عالٍ على عرشه بلا حصر ولا كيفية وإنه الآن في صفاته كما كان في قدمه. صار لقلبه قبلةً في صلاته وتوجهه ودعائه، ومن لا يعرف ربه بأنه فوق سماواته على عرشه، فإنه يبقى ضائعاً لا يعرف وجهة معبوده، لكن لو عرفه

١ ـ النصيحة في صفات الرب جل وعلا ص ٩ و ١٠ و ١١ و ٢١ و ٢٢.
٢ ـ والد إمام الحرمين توفي سنة (٤٣٨) هـ.

بسمعه وبصره وقدمه وتلك بلا هذا معرفة ناقصة بخلاف من عرف أن إلٰه الذي يعبده فوق الأشياء فإذا دخل في الصلاة وكبّر توجه قلبه إلى جهة العرش منزهاً ربه تعالى عن الحصر مفرداً له كما أفرده في قدمه وأزليته»[1].

٣٦ ـ وقال الإمام أبو بكر محمد بن اسحق إبن خزيمة في «التوحيد»: «فكذلك أخبر (الله) المؤمنين أنه قد سمع قول المجادلة[2] وتحاور النبي ﷺ والمجادلة وخبرت الصديقة بنت الصديق (أي عائشة) رضي الله عنهما أنه يخفى عليها بعض كلام المجادلة مع قربها منها فسبحت خالقها الذي وسع سمعه الأصوات، وقالت:

سبحان من وسع سمعه الأصوات، فسمع الله جل وعلا كلام المجادلة وهو فوق سبع سموات، مستو على عرشه، وقد خفي بعض كلامهما على من حضرها وقرب منها»[3].

٣٧ ـ وقال الحافظ ابن عساكر في التبيين:

«وقد ألفنا كتاباً كبيراً في الصفات. . . وفي فنون كثيرة من فنون الصفات في إثبات الوجه لله واليدين وفي استوائه على العرش»[4].

٣٨ ـ وكذلك فقد حكى إبن عساكر مذهب أبي الحسن الأشعري في الإستواء فقال بأن:

---

١ ـ رسالة في إثبات الإستواء والفوقية ومسألة الحرف والصوت في القرآن المجيد ١ /١٨٥ ضمن مجموعة الرسائل المنيرية.

٢ ـ وذلك قوله تعالى: (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير).

٣ ـ التوحيد وإثبات صفات الرب ص ٤٥.

٤ ـ تبيين كذب المفتري ص ١٢٩ ط دار الفكر.

طريقة الإمام أبي الحسن هي قوله:
«الإستواء صفة من صفات الله، وفعل فعله في العرش يسمى الإستواء»[1].

ثم قال إبن عساكر بأن هذه الطريقة كانت وسطاً بين المعتزلة الذين أولوا الإستواء بالاستيلاء، وبين المشبهة الذين شبهوا استواء الله باستواء المخلوقات.

٣٩ ـ وفي ذلك يقول أبو الحسن الأشعري في إبانته:
«قال الله عز وجل (يخافون ربهم من فوقهم) وقال (تعرج الملائكة والروح إليه) وقال (ثم استوى على العرش).

ثم قال أبو الحسن: فكل ذلك يدل على أنه تعالى في السماء، مستوٍ على عرشه، والسماء بإجماع الناس ليست الأرض، فدل على أن الله تعالى منفرد بوحدانيته، مستوٍ على عرشه»[2].

وذكر حديث الجاريه التي قال لها رسول الله ﷺ: «أين الله؟ «قالت: في السماء، فقال ﷺ لوليها: «إعتقها فإنها مؤمنة»، ثم أعقب الأشعري هذا الحديث بقوله: وهذا يدل على أن الله عز وجل على عرشه فوق السماء»[3]. ا. هـ

هذا هو مذهب الأشعري في هذا الباب، فإن يك الحبشي واحداً من أتباع الإمام الأشعري. وجب عليه عندئذٍ الإقرار بأن الله تعالى

---

١ ـ تبيين كذب المفتري ص ١٥٠، وانظر الإبانة ص ٨٦ ـ ٨٧، وكذلك رسالة الأشعري إلى أهل الثغر (مصورة بجامعة الدول العربية رقم ١٥٥ ـ توحيد)، وكذلك مصورة بمعهد إحياء المخطوطات العربية رقم ١٠٥ ـ توحيد)، والإبانة ص ١٨.
٢ ـ الإبانة للأشعري ص ٨٩ ـ ٩٠، وانظر تبيين كذب المفتري لإبن عساكر ص ١٥٨.
٣ ـ نفس المصدر ص ٩٣.

على عرشه فوق سبع سمواته، وإلا فهو مخالف لمذهب السلف الذين اتخذ الأشعري عقيدتهم مذهباً له.

٤٠ ـ وقال الإمام أبو بكر الآجري رحمه الله، في كتابه «الشريعة في السنة»، «باب التحذير من الحلولية » ما يلي:
«الذي يذهب إليه أهل العلم أن الله تعالى على عرشه فوق سمواته، وعلمه محيط بكل شيء، وقد أحاط بجميع ما خلق في السموات العلى، وبجميع ما في سبع أرضين، يرفع إليه أعمال العباد»(١).

٤١ ـ وعن أبي بكر الإسماعيلي أنه قال:
«واستوى على العرش بلا كيف، فإنه انتهى إلى أنه استوى على العرش، ولم يذكر كيف كان استواءه»(٢)

٤٢ ـ وقال الإمام أبو عبد الله القرطبي صاحب التفسير الكبير:

«. . . ولم ينكر أحد من السلف الصالح أن استواءه علي عرشه حقيقةً، وخص عرشه بذلك لأنه أعظم مخلوقاته، وإنما جهلوا كيفية الإستواء، فإنه لا يعلم حقيقة كيفيته. قال الإمام مالك: الإستواء معلوم، «يعني في اللغة» والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة»(٣).

٤٣ ـ ونقل البيهقي عن السلف مذهبهم عن الإستواء فقال:

«الإستواء على العرش قد نطق به الكتاب في غير آية، ووردت به الأخبار الصحيحة، وقبوله من جهة التوقف واجب(٤)، والبحث

---

١ ـ الشريعة ص ٢٨٥.
٢ ـ التذكرة ٣ / ١٥٠.
٣ ـ تفسير القرطبي ٧ / ٢١٩.
٤ ـ التوقف في طلب معرفة الكيفية لا في فهم معاني الكلمات، لأن التوقف في معنى الصفات هو

عنه وطلب الكيفية له غير جائز»[1].

٤٤ ـ ونقل إبن الجوزي قول أمية بن أبي الصلت تحت آية (الرحمن على العرش استوى) قوله:

مجّدوا الله فهو للمجد أهل ربنا في السماء أمسى كبيراً
بالبناء الأعلى الذي سبق الناس وسّوى فوق السماء سريراً[2].

٤٥ ـ وكذلك قال الإمام أبو الحسن الأشعري في المقالات:
«وأن الله على عرشه كما قال (الرحمن على العرش استوى) وأن له يدين بلا كيف كما قال: (لما خلقت بيديّ)[3].

٤٦ ـ وقال الحافظ أبو نعيم:
«وأجمعوا أن الله فوق سمواته، عالٍ على عرشه، مستوٍ عليه، لا مستولٍ عليه كما تقول الجهمية أنه بكل مكان، خلافاً لما نزل في كتابه (أأمنتم من في السماء) (إليه يصعد الكلم الطيب)»[4].

٤٧ ـ وقال الإمام إبن فورك:
«استوى بمعنى علا، وقال في قوله (أأمنتم من في السماء) أي: من فوق السماء»[5].

٤٨ ـ وقال القاضي أبو بكر الباقلاني:
«فإن قيل: فهل تقولون: إنه في كل مكان؟ قيل: معاذ الله، بل هو

= من التفويض، وما الفرق بين المفوض والمعطل إلا أن المعطل أنكر معنى الآية وصرفها إلى معنى آخر، والمفوض عطل المعنى ولم يصرفه إلى معنى آخر. وليس ذلك مذهب السلف، إذ لو كان ذلك مذهب السلف لما قال مالك: الاستواء معلوم.

١ ـ الإعتقاد للبيهقي ص٤٢ ـ ٤٣ (باب القول في الإستواء).
٢ ـ زاد المسير ٣ /٢١٣.
٣ ـ مقالات الإسلاميين ص ٢٩٠ ـ ٢٩١.
٤ ـ محجة الواثقين، ومدرجة الوامقين
٥ ـ نقله عنه الامام البيهقي في الأسماء والصفات ص ٤١١ ـ ٤٢٠.

مستوٍ على عرشه، كما أخبر في كتابه، فقال (الرحمن على العرش استوى) وقال (إليه يصعد الكلم الطيب) وقال (أأمنتم من في السماء)»[1].

١ ـ الإبانة للباقلاني، وله مثل هذا الكلام في كتب أخرى له مثل كتاب الذب عن أبي الحسن الأشعري، وكتاب التمهيد.

التوجّه بالدعاء إلى السماء

ومن جملة الأشياء التي فطر الله الناس عليها أنهم حينما يتوجهون في الدعاء إلى الله سبحانه وتعالى يرفعون وجوههم وأيديهم إلى السماء، فترى الجاهل والعالم والصغير والكبير يفعلون هذا من غير أن يتعلمونه من أحد، لأن الله سبحانه فطرهم على ذلك. فالأيدي ترتفع بالدعاء إلى السماء توجهاً إلى الله لا كما زعم الحبشي أن السماء هي قبلة الدعاء كما أن الكعبة قبلة الصلاة.

فالمسلمون ما عرفوا قبلة إلا الكعبة بالدليل من الكتاب، قال تعالى: «قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها، فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره». ولو كانت السماء هي القبلة لما أمره الله ان يتوجه الى المسجد الحرام ولأقره على تقلب وجهه في السماء

والقول بأن السماء هي قبلة الدعاء، معناه أن المسلمين يتوجهون إلى قبلتين قبلةً للصلاة وقبلةً للدعاء. وهذا بحاجة إلى دليل من كتاب أو سنة.

فالمسلمون ما عرفوا إلا قبلة واحدةً أرشدهم الله تعالى إليها كما قال في كتابه ما أسلفناه وما يفعله الناس من التوجه إلى الله برفع اليدين إلى

السماء، هو فطرةً في نفوسهم فمن جعل هنالك قبلتين فقد خالف إجماع المسلمين وابتدع من عنده قبلة ثانية.

وهل تعلم الدجاجة حين ترفع رأسها إلى السماء أنها قبلةٌ للدعاء. أم أن التوجه إلى الله هو فطرة لا ينبغي تبديلها أو تشويهها!...

ومما يزيد تناقض الحبشي قوله: «ونرفع أيدينا إلى السماء لأنها مهبط الرحمات والبركات»[1]. ومعنى قوله هذا أن العلة من رفع الأيدي إلى السماء هو الرحمات والبركات لا الله نفسه، وهذا فصل الصفة عن الموصوف، وفيه مخالفة للعقل والمنطق. فعلى هذا ينبغي أن نتوجه بالدعاء إلى الرحمات والبركات لا إلى الله قائلين: يا رحمات الله يا بركات الله. والمعلوم أن الداعي يقول حين يرفع يديه: يا رب..، ولا يقول يا رحمة الله ويا بركات الله.

والأحاديث دالةعلى أن التوجه بالدعاء إلى الله نفسه، لا إلى جمادات مخزونة في السماء.

كقوله عليه الصلاة في الحديث الطويل: «ثم ذكر الرجل يطيل السفر اشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك، فالتوجه إلى السماء من أجل الرحمات والبركات لا من أجل الله هو توجه لغير الله وفي هذا من العواقب الخطيرة ما لا يخفى.

وما هو موقف الحبشي ممن يقول: أنا أجعل الصنم الفلاني قبلة لي أتوجه به إلى الله، لا من أجل الصنم نفسه؟ فأنا أعبد الله الواحد الأحد لكنني اتخذ الصنم قبلة لي إلى الله ولا أعبد الصنم فمن قال بأننا نتوجه

---

١ ـ منتخبات من الصراط المستقيم ١٠.

إلى السماء لأنها مهبط الرحمات والبركات فقد قلد النصارى الذين يرفعون رؤوسهم إلى فوق لتنزل عليهم هدايا «بابا نويل».

ومعنى كلام الشيخ أننا نتوجه إلى السماء لأجل ما فيها من الطيبات من الأرزاق.

قال رسول الله ﷺ: إن ربكم حيي كريم، يستحي من عبده إذا رفع يديه إلى الله يدعوه أن يردهما صفراً ليس منهما شيء[1]

وما أتى به الحبشي مخالف لأقوال الرسول ﷺ، بل ومن أهم ما يخالف به في هذا الباب هو أنه يخالف الفطرة التي فطر الله الناس عليها (لا المسلمين وحدهم).

فالمعلوم بأن الله ينزل رحمته وعذابه وآياته، وتعرج الملائكة إليه. وينزل الوحي على رسله، وينزل آياته، وقد رفع عيسى إليه الى السماء فقال: «يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ» وقوله: «بل رفعه الله اليه» وقد اعترف بذلك الحبشي فقال: «ومنهم المسيح الذي كان في السماء»[2] فإن كانت الآية تدل على أن الله رفعه إليه، وفهم من الأحاديث الصحيحة كالإسراء وغير ذلك أن عيسى في السماء (وهذا باعتراف الحبشي) علم من ذلك أن الحبشي يتناقض، وأن الله في السماء وترتفع إليه الأيدي بالدعاء لأجل ذلك، كما قال تعالى: «ءأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور» وقوله: «إليه يصعد الكلم الطيب» وقوله «وهو القاهر فوق عباده» وقال عن الملائكة الذين في السماء «ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته» وقول الرسول ﷺ: «ألا تصفّون كما تصفّ

---

١ ـ حديث صحيح رواه أبو داود في صحيحه ح (١٣٣) والترغيب ٢ /٢٧٣
٢ ـ مجيب المحتاج لمعرفة الإسراء والمعراج ص٨.

الملائكةعند ربهم[1]». وقوله للجارية: أين الله؟ قالت في السماء[2] فقال: لسيدها: اعتقها فإنها مؤمنة» فشهد لها بالإيمان. وقوله: إرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، وقوله عليه الصلاة والسلام: والذين نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها زوجها، وقوله: ألا تأمنوني وأنا أمين السماء. وكقول زينب زوجة النبي ﷺ زوجني الله من فوق سبع سموات وقولها «زوجنيك الرحمن من فوق عرشه»[3].

وكحديث عروج النبي ﷺ إلى ربه، وهي قصة الإسراء والمعراج وفيها الأحاديث الطويلة. وكخطبة يوم عرفة وفيها أن الرسول ﷺ قال: «ألا هل بلغت». قالوا: نعم. فجعل يرفع اصبعه إلى السماء وينكتها إليهم، ويقول: «اللهم فاشهد».

وقوله لحصين: كم إلها تعبد اليوم؟ قال سبعة في الأرض وإله في السماء، قال: فاذا اصابك الضر من تدعو؟ قال: الذي في السماء، قال فاذا هلك المال من تدعو؟ قال: الذي في السماء» فتعجب الرسول ﷺ وقال له: فيستجيب لك وحده وتشركهم معه؟!![4].

وهذه الآيات والأحاديث لا يقبل بها الحبشي سواء أنكرها مباشرة أم أبطلها بالتأويلات والتحريفات فإنه يرد هذه الأحاديث كلها ويعلل ردها بأنها توهم التعارض إذا قورنت بالأحاديث التي تفيد المعية والقرب وسيأتي تفصيل ذلك ومن يطلع على هذه الأدلة يعلم أن الأيدي ترفع إلى الله لأنه

---

١ ـ أخرجه مسلم ح (٤٣٠) ط دار الفكر.

٢ ـ وفي رواية إبن خزيمة «فأشارت بيدها إلى السماء» كتاب التوحيد ص١٣٣.

٣ ـ رواه البخاري ح (٧٤٢٠) والبيهقي في الأسماء والصفات ٢٩٦.

٤ ـ رواه البخاري في خلق أفعال العباد ص ٤٣، والبيهقي في الأسماء والصفات ص ٣٠٠، وإبن خزيمة في التوحيد١٢١.

سبحانه مستوٍ على عرشه فوق سمواته، تتوجه الأيدي إليه، ولا يقال أن السماء هي قبلة المسلمين في الدعاء لأن هذا من باب نسبة الشيء إلى الدين بما ليس منه، وأن من يقول بهذا فعليه أن يأتي بأدلة صريحة كتلك التي استدللنا بها على علو الله على عرشه وبأنه بائن من خلقه.

ومن هنا يتضح مدى تناقض هذا الشيخ الحبشي حين يبتدع قبلةً ثانية إلى جانب قبلة المسلمين (الكعبة) حرصاً منه على ترويج تأويله.

وهذه نتيجة من أراد التوفيق بين دين الله ومقاييس الفلاسفة، فانه لا بد أن يخالف دين الله ويرد الآيات بواسطة (التأويل التعطيلي) ويغض الطرف عن الصحاح من الأحاديث حرصاً على القواعد العقلية التي استقاها عن فلاسفة اليونان بطريق المتكلمة مع أن الشافعي قد شهد بذهاب عقل من رد حديثاً صحيحاً لرسول الله ﷺ يقول الشافعي رحمه الله: «متى عرفت لرسول الله ﷺ حديثاً ولم آخذ به: فأنا أشهدكم أن عقلي قد ذهب».(١)

أما قول الحبشي بأن (رفع اليد والرأس إلى ما هو وصف للمدعو من الجلال والعظمة) فهو باطل، لأن وصف الله بالإجلال والتعظيم قدعلم بصفاته التي نمجده بها، وندعوه بها ولم يقل أحد بأن الإشارة هي كناية عن التعظيم والإجلال، كما أن حديث الجارية يناقض ما يتأوله الحبشي لأن الرسول قد سألها: أين الله؟ قالت: في السماء، وكذلك ثبت عنه أنه رفع بصره واصبعه وقال: اللهم اشهد وفي ذلك من الأحاديث الكثيرة التي تصف الله بأنه في السماء وكذلك كقوله ﷺ: «ربنا الذي في السماء تقدس اسمك.(٢)

---

١ ـ طبقات السبكي ١ /٢٦٢، ومعجم الأدباء ١٧ /٣١٠، والعلو ٢٠٤ وتاريخ الاسلام ٣٣-٣٤ واعلام الموقعين ٢ /٣٦١ و ٣٦٤، وآداب الشافعي ومناقبه ٧٧.

٢ ـ رواه أبو داود في كتاب الطب ح (٣٨٩٢) وأحمد في مسنده ٦/ ٢١ من حديث فضالة بن عبيد، والنسائي، ورواه البيهقي في الأسماء والصفات من حديث أبي الدرداء ص ٣٠٠.

وإذا كان معنى رفع اليد والرأس الى السماء بمعنى التعظيم والإجلال، فلماذا لا نعظم الله ونجله في صلاتنا بأن نرفع رؤوسنا في الصلاة؟ ولماذا نسجد إلى الأرض إذا كان التعظيم والإجلال هو رفع الرأس إلى أعلى لا انخفاضه إلى أسفل؟.

وقد ثبت عنه عليه الصلاة والسلام أنه نهى عن رفع البصر إلى السماء في الصلاة لا في غيرها، فقال عليه الصلاة والسلام:

«لينتهين أقوام عن رفعهم أبصارهم عند الدعاء في الصلاة إلى السماء أو لتخطفن أبصارهم[1]». فهل يفيد الحديث النهي عن تعظيم الله وإجلاله، أم أنه يفيد التأدب مع الله عز وجل وعدم رفع البصر إليه لأن الله في العلو

ثم إن هناك رواية لابن خزيمة في كتابه «التوحيد» يذكر فيها أن الرسول سأل الجارية: أين الله؟ فأشارت بيدها إلى السماء». وفي رواية له أيضاً أنها رفعت رأسها إلى السماء فقالت: في السماء».[2]

وكذلك حديث زينب بنت جحش زوج الرسول التي كانت تقول لزوجاته عليه الصلاة والسلام: «زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سموات».[3]

وكقول عمر في خولة بنت ثعلبة: «هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات».[4]

---

١ ـ رواه مسلم ح (٤٢٨) و (٤٢٩) والبخاري في الأذان باب رقم (٩٢) والنسائي في السهو باب (٩) و (٤٠) وإبن ماجة في الإقامة باب (٦٨) والدارمي في الصلاة باب (٦٧) وأحمد ٥ / ١٠ و ٢٩٥.

٢ ـ التوحيد لإبن خزيمة ١٢٣.

٣ ـ هذه الأحاديث كلها مخرجة في باب: إثبات أن الله في السماء من الأحاديث والآثار.

٤ ـ أخرجه البيهقي وأحمد وأبو داود وإبن مردوية وإبن جرير من طريق يوسف بن عبد الله بن

وكقوله عليه الصلاة والسلام: ما من امرأة يدعوها زوجها إلى فراشها فتأبى إلا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها زوجها».

وأيهما أعظم عند الله وأرضى له؟ إشارة باليد إلى السماء كدلالةعلى التعظيم، أم المداومة على تسبيحه وتكبيره وتحميده وتهليله؟، ولماذا يؤول رفع الرأس واليدين إلى السماء بمعنى التعظيم والإجلال؟ فليس في السماء عنده شيء، وليس منها سوى الملائكة والرحمات والبركات، وما تكون علاقة السماء بتعظيم الله إن لم يكن الله في السماء؟.. ثم إنه ما من أحد من أحد من أهل السنة قد ذهب إلى هذا المذهب الذي قال به الحبشي. بل إن أقوال التابعين وغيرهم من الأئمة لا اختلاف فيها وهي أن الله تعالى في السماء. وهي روايات عن الأوزاعي ومالك وأحمد والثوري وأبي حنيفة والشافعي واسحق بن راهويه وغيرهم مما يبيّن الحق في هذا الأمر.

ومن أراد التوسع في هذا الأمر فليراجع فصل «إثبات أن الله في السماء من الآيات والأحاديث والآثار، ليرى صدق ما قلناه من أن الشيخ قد اضطرته تلك القواعد والمبادىء اليونانية إلى رد كثير من الآيات والأحاديث بطريق تأويلها وصرفها عن معانيها الدالة عليه ولن تودي هذه القواعد إلا إلى المزيد من التأويل وعدم هيبة نصوص الكتاب والسنة، وجعلهما عرضةً لآرائه وتقولاته.

وفي المناسبة نذكر هنا بعض كلام لابن قتيبة رحمه الله في هذه القضية، يقول: «قال تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب) فقال ابن قتيبة: «ولو أن هؤلاء رجعوا إلى فطرتهم وما رُكّبتْ عليه ذواتهم من معرفةالخالق،

= سلام راجع الدر المنثور للسيوطي ٦ /١٧٩، وإبن كثير ٤ /٣١٨ وقال: منقطع لكن هناك طرقاً أخرى تقويه ورواه البيهقي في الأسماء والصفات ٢٩٦، وإبن القيم في الجيوش الاسلامية ص ٣٩

لعلموا بأنه هو العلي، وهو الأعلى، وأن الأيدي ترفع بالدعاء إليه، والأمم كلها «عجمها وعربها تقول: «إن الله في السماء» ما تركت على فطرها».[1]

ويقول الإمام أبوالحسن الأشعري رحمه الله تعالى:

«ورأينا المسلمين جميعاً يرفعون أيديهم إذا دعوا نحو السماء، لأن الله عز وجل مستوٍ على العرش الذي هو فوق السموات، فلولا أن الله عز وجل على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش، كما لا يحطونها إذا دعوا إلى الأرض».[2]

وقال الإمام ابن خزيمة في التوحيد «باب ذكر البيان أن الله عز وجل في السماء» ما يلي:

«كما أخبرنا (الله) في محكم تنزيله وعلى لسان نبيه عليه السلام، وكما (هو) مفهوم في فطرة المسلمين وعلمائهم وجهالهم ـ أحرارهم ومماليكهم ـ ذكرانهم وإناثهم ـ بالغيهم وأطفالهم كل من دعا الله جل وعلا، فإنما يرفع رأسه إلى السماء ويمد يديه إلى أعلاه لا إلى أسفل[3]... قال الله تعالى (أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض) وقال تعالى (أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً) أفليس قد أعلمنا خالق السموات والأرض وما بينهما في هاتين الآيتين أنه في السماء»[4] أ. هـ

وهل تعلمت الدجاجة وغيرها من الحيوانات أن رفع الرأس إلى السماء إشارة إلى التعظيم والإجلال للخالق جل وعلا، أم أنها مفطورة على ذلك كغيرها من المخلوقات؟.

---

١ ـ تأويل مختلف الحديث لإبن قتيبة ص ١٨٢ ـ ١٨٣ ط دار الكتاب العربي.
٢ ـ الإبانة عن أصول الديانة ص ٨٦. تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ط. مكتبة دار البيان.
٣ ـ إن التوجه إلى السماء عند الدعاء هو ما فطر البشر جميعهم عليه لا المسلمين وحدهم.
٤ ـ التوحيد وإثبات صفات الرب جل وعلا ص ١١٠ ـ ١١١ ط دار الكتب العلمية.

«وهو معكم أينما كنتم»

قال الأحباش: إذا قلتم أن الله في السماء، فما معنى: وهو معكم أينما كنتم؟ والجواب: أتؤمنون بأن الله معنا بذاته أم بعلمه؟ فإن قالوا: لا نقول بذاته ولكن بعلمه، قلنا: ونحن نقول كذلك، فلماذا تسألون عن شيء لا تخالفوننا فيه؟

فإما أن تكونوا مؤمنين بأن الله معنا بذاته، فتكونوا قد فارقتم قول أهل السنة والجماعة، ووافقتم الحلوليين وغيرهم!

وإما أن تكونوا موافقين لنا في الرأي، فيكون سؤالكم بثاً للفتنة، وإيهاماً للناس على وقوع التناقض في كتاب الله، فيقع فيكم قوله صلى الله عليه وسلم:

«لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، فإن ذلك يوقع الشك في قلوبكم[1]».

ويتحقق فيكم قول الله تعالى:

(ما ضربوه لك إلا جدًلا) [الزخرف ٥٨].

---

١ ـ أحرجه البخاري في خلق أفعال العباد ص ٦٣ والترمذي من حديث أبي هريرة ٦/٣٠٦

وبالطبع فأنتم من النوع الثاني لأن شعاركم هو: موجود بلا مكان» فدل ذلك على أنكم لستم من الحلوليين وإنما أنتم من الذين قال عنهم رسول الله ﷺ:

«ما ضل قوم بعد هدىً كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»(١) ولو أننا أردنا أن نكون على شاكلتكم لقلنا لكم: كيف يكون موجوداً بلا مكان وهو معنا أينما كنا؟

لكننا لسنا على طريقة أهل الجدل والكلام الذين يضربون كتاب الله بعضه ببعض ويعدون أنفسهم بأنهم موحدون(٢)، كما أننا لا نتكلم في «المكان» نفياً ولا إثباتاً لأننا ما علمنا عن «المكان» شيئاً، لا من كتابٍ ولا من سنةٍ ولا من قول صحابة. فيكون «ملف» قضية المكان مطوياً بالنسبة إلينا.

هذا من جهة.. ومن جهة أخرى فإن الجواب عند الحبشي في كتابه إذ يقول: «وكذلك يكفر من اعتقد أن الله بذاته في كل مكان، ولا يكفر إذا أراد أن علمه شامل في كل مكان».(٣)

فأنتم لإحدى اثنتين: إما حلوليين وإما مجادلين، تتبعون ما تشابه إبتغاء الفتنة، فتضربوا آيات الله ببعضها إبتغاء تأويله.

فالخطوة الأولى عندكم هي ضرب الآيات ببعضها، ليتسنى لكم المعنى في الخطوة الثانية وهي: تأويل ما توهمون الناس أنه متضارب (بدعوى التوفيق بين الآيات).

---

١ ـ راجع تخريجه في فصل «ذم الكلام».

٢ ـ ولقد أصبحت تسمية أصحاب الضلالة بـ«الموحدين» سهلة جداً حتى أصبح يتميز بهذه التسمية أكثر الناس ارتداداً عن دين الإسلام وهم الإسماعيليون، فلا يغترن أحد بهذه التسمية المزخرفة التي تنطلي على عوام الناس وتخدعهم.

٣ ـ الدليل القويم ص ١٥٧.

وليس كتاب الله متضارباً، وإنما التضارب من عند شيخكم الذي لا يجيز أن يكون الله معنا بعلمه، ثم يجوز ذلك في موضع آخر من كتابه، فمن الذي يتضارب كتاب الله الذي قال عنه: (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً) [النساء ٨٢] أم كتاب «الدليل» الذي تناقضت أدلته؟[١]

أما تفسير قوله تعالى: (وهو معكم أينما كنتم) أي بعلمه، فهذا ليس تأويلاً وإنما هو من صميم اللغة.

فإن كان هذا عندكم من «التأويل» ـ والسلف لم يتأولوا ـ قلنا لكم: ليس بتأويل وإن أردتم أن ظاهر الآية هو المعية بالذات قلنا لكم:

حسناً، إن كان هذا عندكم من التأويل، وتريدون اتهامنا بأننا تأولنا مع إنكارنا عليكم ذلك، فنفسر المعية في كل آيات الله على أنها المعية بالذات فنقول:

١ ـ (إن الله مع الصابرين) فلا يصح عندئذ أن يكون الله بذاته محصورا في عدد من الناس..
٢ ـ وكذلك قوله (إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا) [التوبة ٤٠] ولا يصح ذلك لما يقتضي منه أسوأ مما يقتضيه الأول، لأن ذلك يقتضي أن يكون الله بذاته مع اثنين دون الباقي.
٣ ـ وكذلك قوله (إنك لن تستطيع معي صبراً)[٢] لا يصح لما يقتضي ذلك إفساد المعنى المراد.

والذي يزعم أن السلف تأولوا، حين فسروا (وهو معكم أينما كنتم) بقولهم. «هو معنا بعلمه، هو مخطىء تماماً.

---

١ ـ ص ٥٨، فما أكثر التناقض في هذا الكتاب.
٢ ـ الكهف ٦٧

لأن المعية لها معانٍ عديدة لا معنى واحداً كما يظن صاحب الشبهة.

١ ـ فالمعية تأتي بمعنى الرعاية والتأييد أو المؤازرة كقوله تعالى: (إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا)[١] وكقوله (لا تحزن إن الله معنا).

٢ ـ وتأتي بمعنى العلم أو الرقابة والاطلاع، كقوله تعالى (إنني معكما أسمع وأرى)[٢] وقوله (إنا معكم مستمعون)[٣] وقوله (وهو معكم أينما كنتم، والله بما تعملون بصير) والجملة الثانية من الآية تبين حقيقة المعية أنها بالعلم، وأنه سبحانة رقيب على عباده وهي قوله (والله بما تعملون بصير).

٣ ـ وتأتي بمعنى الموافقة في الحال كقوله تعالى (ولا تجعلني مع القوم الظالمين)[٤] وقوله (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم).[٥]

٤ ـ وتأتي بمعنى معية الذات كقوله تعالى (فلا تقعدوا معهم) وقوله (قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله).[٦]

فثبت بطلان من يزعم أن معية الذات هي الظاهر دائما وغيرها هو تأويل. لأن المعاني الأخرى التي أوردناها ثابتة في اللغة وليست بالتأويل.

---

١ ـ الأنفال ١٢
٢ ـ طه ٤٦
٣ ـ الشعراء ١٥
٤ ـ الأعراف ١٥٠
٥ ـ الفتح ٢٩
٦ ـ يوسف ٦٦

فإن قال قائل: أنتم تأولتم (وهو معكم) على أنه معنا بعلمه، وخرجتم عن الظاهر، قلنا: أولاً: إذا اعتبرنا أن المعية بالنص هي المعية بالذات، وغير ذلك تأويل قلنا: إذن فسر قوله تعالى(واعلموا أن الله مع المتقين)[1] أيكون معهم بذاته دون الفاجرين؟ وفسر قوله (لا تحزن إن الله معنا) أيكون بذاته مع رجلين دون غيرهما؟ وفسر قوله (فتربصوا إنا معكم متربصون) [2] هل يعني ذلك أنه متربص معهم بذاته؟

إذن، فقول القائل أن المعنى الظاهر للمعية هو معية الذات هو قول خاطىء، فلو كان ذلك صحيحاً لما استطعنا أن نفهم قوله تعالى (يغلبوا ألفين بإذن الله، والله مع الصابرين) [3] على أنها معية التأييد والمؤازرة، وهذا ليس تأويلاً بل إنه أحد المعاني التي في اللغة والدليل على أنه ليس بتأويل أن نقول: إنك تجد الكثير من عوام الناس قد درج على ألسنتهم أنه إذا أراد أحدهم مفارقة الآخر بأن يودعه قائلاً له: «الله معك»، و«كان الله معك». مع أنه لا يفهم التأويل ولا غيره، لكن فهم هذه المعية على أنها معية الرعاية والحفظ بفطرته، وباللسان الذي تتخاطب به العرب، فلم يتطلب الأمر منه أن يكون عالماً بأسس التأويل وطرقه حين قال ذلك، إذ أن « المعية» بمعنى الرعاية هو أول ما يتبادر إلى الذهن عند سماعها في هذا الموضع، فيفهمها جهال الناس وعوامهم. فكيف تخفى على أهل الكلام والجدل أم أنهم يتعمدون التجاهل ليحققوا «مساومة» بينهم وبين أهل الإثبات على التأويل!.

---

١ ـ التوبة ١٢٣
٢ ـ التوبة ٥٢
٣ ـ النساء ٦٦

وعلى كل حال، فأهل الكلام يعلمون هذه الحقيقة، لكنهم يريدون شيئاً يمكّنهم من اتهام السلف أنهم أولوا، ليتسنى لهم بذلك تأويل الكتاب على ما يرضي أفلاطون وغيره. ويريدون شيئاً يمنع الإنكار عليهم، ليساوموا به السلف قائلين لهم: أنتم تأولتم ولم ينكر أحد عليكم، فلا تنكروا علينا تأويلنا، وكما بينا أن المعية التي وردت في قوله تعالى (وهو معكم أينما كنتم) ليست معية الذات، وانما هي معية العلم وهذا في اللغة، وإذا كانوا يجهلون ذلك، فيكون العوام عندئذ أعلم بمقتضى ومفهوم المعية من أهل الكلام!.

دليل آخر

وإذا كانت معية العلم ثابتة في اللغة، فإن سبب ثبوتها في الآية على معنى العلم هو أن الله قد ابتدأ الآية بالعلم واختتمها بالعلم فقال: (ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض) ثم اختتمها بالعلم فقال: (إن الله بكل شيء عليم) هذه في سورة المجادلة وكذلك الآية التي في سورة الحديد، فإنه ابتدأها بالعلم فقال: (يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وهو معكم أينما كنتم، والله بما تعملون بصير) ثم اختتمها في قوله بأنه رقيب علينا يعلم ما تكسب كل نفس، وما تكنه الصدور وما تخفيه.

إذن، فإننا نرى أن الآيتين قد ابتدأتا بصفة العلم واختتمتا بذلك.

والصفة التي تأتي في الآية تكون بحسب سياق الآية، فإذا ذكر الله المغفرة اختتمها بصفة الغفور كقوله تعالى (إن الله يغفر الذنوب جميعاً) ثم قال بعدها (إنه هو الغفور الرحيم)[1].

---

١ ـ يوسف ٥٨

وكذلك كقوله تعالى: (والله يسمع تحاوركما) ثم اختتمها بقوله (إن الله سميع بصير)[1]. علم عندئذٍ أن المعية التي ابتدأها الله بالعلم واختتمها بالعلم لا يكون معناها المعية بالنصر والمؤازرة، ولا معية الرعاية ولا معية المشاركة وإنما هي المعية بالعلم.

وهذا من مقتضيات اللغة، بل هو مما يعلمه من لم يفهم اللغة أيضاً. إذ لا يصح أن يدعو أحدنا ربه بأن يغفر له كأن يقول له: (اللهم اغفر لي إنك أنت العزيز الجبار) أو يقول: (اللهم ارزقني إنك أنت الخافض الرافع) أو يقول (اللهم اهدني للحق إنك أنت المقدم المؤخر).

بل إنه يقرن صفات الله بما يناسب سؤاله له، كأن يقول (اللهم اغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم) وقوله (اللهم ارزقني وأنت خير الرازقين) وكذلك (اللهم اهدني للحق إنك أنت الهادي إلى الصراط المستقيم) فيصف الله بما يقتضي نوع الحاجة التي يسأله إياها.

وإذا كان كذلك نقول: إن الله حينما ابتدأ آية المعية، فإنه ابتدأها بالعلم واختتمها بالعلم فكيف يكون تفسير السلف للآية بالعلم تأويلاً وصرفاً لها عن ظاهرها؟

دليل آخر

كما أن هناك العديد من الآيات التي تثبت أن هذه الآية (وهو معكم أينما كنتم) هي معية العلم لا معية النصر والمؤازرة، أو معية الرعاية والحفظ، أو المعية بالذات، وذلك كقوله تعالى:

(إنني معكما أسمع وأرى) فهذا تفصيل معنى المعية.

---

١ ـ لقمان ٢٨

(فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون)

(وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير).

ولم يلمح ولو تلميحاً أن معيته بالذات، فيكون معنى المعية بالعلم هو الأصل. وتفسير المعية بالذات هو الخطأ. ويفسر ذلك قوله تعالى (لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً) [الطلاق ١٢].

دليل آخر

قوله تعالى: (يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيّتون ما لا يرضى من القول) [النساء ١٠٨].

فإنهم قادرون على أن يخفوا على الناس ما يبيّتون، حتى وإن كان الناس يلازمونهم، ويقيمون معهم، لكن مجاورتهم وملازمتهم لا تعرفهم بما يكن لهم هؤلاء في صدورهم وما يبيتونه لهم من نية السوء، ومن المكر بهم، فتبين أن قول الله تعالى (وهو معهم) يدل على أنه مطلع على ما في سرائرهم من نية المكر بالمؤمنين. ويدل على هذا قوله تعالى (إذ يبيتون ما لا يرضى من القول) وهذا دال على أن المعية بالعلم لا بالنصر ولا بالموافقة ولا بالمشاركة، وإنما هو العلم بأحوال المنافقين الذين يبيتون في نفوسهم المكر بالمؤمنين، وكذلك فلو فسرنا هذه المعية التي في الآية على المعاني الأخرى تفسد معنى الآية تماماً مما يدل على أن المعنى المناسب هو معية العلم ولا يصح غيره، فعلم أنه تفسير وليس بتأويل.

وهذا ما دعا عائشة إلى التعجب حين نزل قوله (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها) فقالت عائشة، تبارك الذي وسع سمعه

الأصوات، والله إني جالسة في حجرتي ويخفى عليّ بعض كلامها». فلو كانت المعية بالذات لما تعجبت عائشة هذا التعجب. بل كان ذلك عندها طبيعياً.

دليل آخر

قال تعالى: (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم). وهذه الآية حجة على من يقول أن الأصل في كلمة «مع» لا يكون إلا بالذات وغير ذلك هو من التأويل إلزاماً منه لمثبتة الصفات على الرجوع عن ذلك والتزام طريق التأويل.

فنقول: لقد أتت أوقات كثيرة، اضطر فيها بعض الصحابة إلى مفارقة الرسول ﷺ والابتعاد عن مجالسته. وعن ملازمته. فقد هاجر الكثير من الصحابة إلى الحبشة، وبقوا فيها زمناً طويلاً، بعيدين عنه ﷺ، فهل يخرجوا عن نطاق من شملتهم هذه الآية بأن لم يعودوا من «الذين معه» أم أن المعية هنا هي معية الموافقة في العقيدة؟

فهل تعني الآية من كان بقرب الرسول من الصحابة، ولا تعني من ذهبوا في السرايا والمهمات وابتعدوا عن الرسول ﷺ مئات الأميال وآلافها؟ أم أنها تعني كل الصحابة (القريب منهم والبعيد) إن كانت تعني ذلك - وهو الصحيح - ظهرت الحجة على من يتمسك بأن المعية لا تكون «ظاهرة» إلا بالذات وأن غير ذلك تأويل تلبيساً عليمنيثبت صفات الله ويصدق ما انزاله في كتابه.

فيكون هذا القول فاسداً من باب اللغة أولاً، ويزيد فساده ثانيا حين يعلم صاحبه أن الصحابة والتابعين والمفسرين وجميع الأمة (إلا الحلوليين والاتحاديين) قد أجمعوا على تفسير المعية في قوله تعالى (وهو معكم أينما كنتم) أنها المعية بالعلم، وسنفصل ذلك لاحقاً.

فصل

أما الذين يقولون: أننا نقول بأنه في كل مكان لأننا لا نريد حصره في السماء فإننا نقول لهم: لقد حصرتموه بقولكم هذا، لأن (كل مكان) لابد أن يكون محدوداً، إذ السموات والأرض وغير ذلك، من المخلوقات لها حدود زمنية ومكانية فيقتضي ذلك لها حدوداً في المكان مهما اتسعت.

أما أن نقول بأنه في السماء، فإنه لو كان كالمخلوقين لقلنا نعم: إن السماء تقله وتحويه لكننا نعلم أنه سبحانه (ليس كمثله شيء) ونحن قد أثبتنا ما وصف الله به نفسه، لأنه لا يصف نفسه إلا بما يليق به، فوصفناه بما وصف به نفسه، وما وصفه به رسوله ﷺ ولم ندع مجالاً لدخول التشبيه في عقولنا، لأن تعظيمنا لقوله تعالى (ليس كمثله شيء) والتزامنا بها، حال بيننا وبين الوقوع في التشبيه.

وعلى كل حال، فإن ما سنقدمه للقارىء الكريم من أقوال الصحابة والتابعين وأقوال أهل التفسير في قوله تعالى (وهو معكم أينما كنتم) يبين الإجماع على ذلك، وأنه هو الحق، لأن الأمة لا تجمع على باطل.

لكني أود أن أشير هنا إلى نقطة هي غاية في الأهمية وهي أن ادعاء الحبشي بأنه على مذهب السلف هو ادعاء لا أساس له من الصحة.

إذ قد علم أن السلف فسروا قوله تعالى (وهو معكم أينما كنتم) على أنه المعية بالعلم، أي أن علمه في كل مكان، وأبرزهم في ذلك قول مالك رحمه الله: «الله في السماء وعلمه في كل مكان لا يخلو من علمه مكان».

والحبشي لا يقول بأن الله في السماء، بل يكفر من يقول بذلك، وهذا مخالف لما كان عليه السلف فإنه قد علم أن الجهمية والمعتزلة وغيرهم كانوا يردون على السلف قولهم هذا ويقولون: كيف يكون في السماء وهو يقول (وهو معكم أينما كنتم)، ثم يقولون بعد ذلك: كيف تمنعوننا من التأويل وقد تأولتم قوله تعالى (وهو معكم أينما كنتم) فقلتم: بأنه معنا بعلمه؟ وهذا كان الرد على السلف بالأمس.

وهذا هو رد الحبشي اليوم على كل من يثبت قوله تعالى (أأمنتم من في السماء) وعلى من يقول (وهو معكم أينما كنتم) أي معنا بعلمه، فيقول اليوم ما قاله أولئك الجهمية والمعتزلة بالأمس.

فكيف يكون من أهل السنة والجماعة وهو اليوم يرد عليهم بالذي رده أسلافه على أسلافهم؟ فهل يكون سلفي المذهب حقاً؟! أم أن ما نراه ونسمعه منه يثبت أنه سلفي للفرق الأخرى؟ لا لطائفة أهل السنة والجماعة.

وقد أجمعت الأمة على أن الله في السماء، وعلمه محيط بكل مكان، ومعلوم بأن الأمة لا تجتمع على ضلالة، فيكون الحبشي مخالفاً للإجماع. مخالفاً لأهل السنة والجماعة.

بل هو مخالف كذلك لبعض الأئمة الذين لا يفتأ يستشهد بأقوالهم في مواضع كثيرة من كتابه، وأول الذين يخالفهم من هؤلاء، هو البيهقي.

فإنك إن اطلعت على كتابه ترى أنه ينقل من كلام البيهقي ما يناسب مذهبه ومعتقده وقد تجاهل مذهب البيهقي في هذه القضية، وما ذهب اليه الإمام البيهقي رحمه الله هو مذهب أهل السنة والجماعة. لكن هذا لا يروق للحبشي وإليك بيان ذلك:

قول البيهقي في المعية

فقد نقل البيهقي قول الإمام مالك رحمه: «الله في السماء، وعلمه في كل مكان، لا يخلو منه شيء» وهذا منقول عن الإمام مالك في الأسماء والصفات،(١)

وروى كذلك عن عبدالله بن الإمام أحمد عن أبيه عن نوح بن ميمون عن بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان: في قوله تعالى (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) قال: هو على عرشه وعلمه معهم.. (٢)

ثم روى كذلك قول سفيان الثوري في قوله تعالى (وهو معكم أينما كنتم) قال: علمه. (٣)

وقد جعل الحبشي من قوله تعالى: «هو الأول والآخر والظاهر والباطن» دلالة على نفي المكان عن الله تعالى، ثم نسب ذلك إلى البيهقي في كتابه المسمى بـ«الدليل القويم». (٤)

مع أن البيهقي قد روى بإسناده عن مقاتل بن حيان قوله: بلغنا والله أعلم في قوله تعالى: (هو الأول والآخر) هو الأول قبل كل شيء،

---

١ - راجع تخريجه في فصل (اثبات أن الله في السماء من كلام الصحابة والتابعين).
٢ - الأسماء والصفات للبيهقي ص ٤٣٠ - ٤٣١، وأبو داود في المسائل ص ٢٦٣ عن الإمام أحمد واللالكائي ١/٩٢. والآجري ص ٨٩.
٣ - الأسماء والصفات كذلك، ورواه عبدالله بن الإمام أحمد في «السنة» ص ٧٢، والآجري ص ٢٨٩ واللالكائي ٣/٤٠١.
٤ - ص ٤٣

والآخر بعد كل شيء والظاهر فوق كل شيء، والباطن أقرب من كل شيء، وإنما قربه بعلمه وهو فوق عرشه».[1]

وكذلك قال: (الأول) هو الذي لا ابتداء لوجوده. (الآخر) هو الذي لا انتهاء لوجوده وهما صفتان يستحقهما بذاته. (الظاهر) هو الظاهر بحججه الباهرة، وبراهينه النيرة وشواهد أعلامه الدالة على ثبوت ربوبيته، وقد يكون الظهور بمعنى العلو والرفعة وقد يكون بمعنى الغلبة، (الباطن) هو الذي لا يستولي عليه توهم الكيفية، وقد يكون الظاهر بمعنى العالم بما ظهر من الأمور. والباطن بمعنى المطلع على ما بطن من الغيوب.[2] فلم يتكلم شيئاً عن إثبات المكان أو نفيه.

أما قول البيهقي في (وهو معكم أينما كنتم):

فإنه ساق الأدلة من الآيات والأحاديث الدالة على أن الله في السماء السابعة وفوق العرش، ثم قال بعد ذلك:

«والأخبار في مثل هذا كثيرة، وفيها كتبنا من الآيات دلالة على إبطال من زعم من الجهمية أن الله سبحانه وتعالى في كل مكان.

وقوله عز وجل: (وهو معكم أينما كنتم) إنما أراد بعلمه لا بذاته.[3] ومن هنا يتضح للقارىء الكريم مخالفة الحبشي حتى لأئمته المعتمدين الذين ينقل عنهم.

---

١ ـ الأسماء والصفات ص (٤٣٠ ـ ٤٣١) ومقاتل هذا هو غير مقاتل ابن سليمان الذي ذمه الكثيرون لغلوه في الإثبات مما أدى به إلى التمثيل لله بخلقه، أنظر فضل علم السلف لإبن رجب ص ٤٣.

٢ ـ الاعتقاد على مذهب السلف ١٨ ـ ١٩

٣ ـ الإعتقاد ص ٤٢ ـ ٤٣، وانظر الأسماء والصفات للبيهقي ص ٢٩٢.

وقال العلامة ابن قتيبة رحمه الله:

ونحن نقول في قوله (مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم. . .) إنه معهم بالعلم بما هم عليه. . .[1]

وسئل ابن المديني رحمه الله تعالى:

عن قول الله عز وجل: (ما يكون من نجوى ثلاثه إلا هو رابعهم) فقال: إقرأ ما قبله (ألم تر أن الله يعلم ما في السموات والأرض).[2]

وقال الإمام الآجري في «الشريعة»:

«فإن قيل: فإيش معنى قوله (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم)؟ قيل: علمه، والله على عرشه، وعلمه محيط بها، كذا فسره أهل العلم، والآية يدل أولها وآخرها على أنه العلم، وهو (أي الرب) على عرشه، هذا قول المسلمين. ثم قال: حدثنا عبدالله بن نافع قال: مالك: الله في السماء، وعلمه في كل مكان، لا يخلو من علمه مكان.[3]

وقال أبو القاسم الأصفهاني:

«فإن قيل: تأولتم قوله عز وجل (وهو معكم أينما كنتم وحملتموه على العلم؟ قلنا: ما تأولنا ذلك، وإنما الآية دلت على أن المراد بذلك: العلم، لأنه قال في آخرها (إن الله بكل شيءٍ عليم)».

---

١ ـ تأويل مختلف الحديث ص ١٨٢.

٢ ـ ذكره الذهبي في العلو من رواية الهروي.

٣ ـ الشريعة في السنة «باب التحذير من مذهب الحلولية» ص ٢٨٥ ـ ٢٨٩.

وهو معكم أينما كنتم
(عند أهل التفسير)

قال ابن جرير الطبري في قوله تعالى (إلا هو معهم أينما كانوا) إذا تناجوا أينما كانوا. يقول في أي موضع ومكان كانوا، وعني بقوله (هو رابعهم) بمعنى أنه مشاهدهم بعلمه وهو على عرشه».

ثم روى بعد ذلك عن الضحاك قوله في تفسير هذه الآية (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم. . . إلى قوله تعالى إلا هو معهم أينما كانوا) قال: هو فوق العرش، وعلمه معهم أينما كانوا، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم».[1]

وقال ابن جرير: «(وهو معكم أينما كنتم) وهو شاهد لكم أيها الناس أينما كنت يعلمكم ويعلم أعمالكم ومتقلبكم ومثواكم، وهو على عرشه فوق سمواته السبع».[2]

وفي تفسير الجلالين: (وهو معكم أينما كنتم) بعلمه، وكذلك: (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) بعلمه.[3]

وقال أبو الفرج ابن الجوزي في تفسير قوله تعالى (وهو معكم أينما كنتم) أي بعلمه وقدرته. مستشهداً بما قاله ابن جرير وابن كثير في هذه الآية.

---

١ ـ تفسير ابن جرير الطبري ١٠/٢٨ (المجلد الثاني عشر) ط دار المعرفة.

٢ ـ تفسير الطبري ١٢٤/٢٧ (المجلد الحادي عشر).

٣ ـ تفسير الجلالين ص ٤٥٦ و٤٦٠ ط المكتبة الشعبية.

وقال في قوله تعالى (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) أي: عالم به. ثم قال: وقال الضحاك: «إلا هو معهم» أي: علمه معهم.[1]

وفي تفسير ابن كثير: (وهو معكم أينما كنتم) أي رقيب عليكم شهيد على أعمالكم حيث كنتم وأين كنتم.

وفي قوله تعالى (إلا هو معهم أينما كانوا) أي مطلع عليهم يسمع كلامهم وسرهم ونجواهم، ورسله أيضاً تكتب ما يتناجون به مع علم الله بهم وسمعه له كما قال تعالى (ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم) قال: ولهذا حكي غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علمه تعالى.[2] وقال بعد هذا «ولا شك في إرادة ذلك».

وقال الشوكاني: أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وهو معكم أينما كنتم) قال: عالم بكم أينما كنتم.[3]

وكذلك قال الشوكاني: «ومعنى (أينما كانوا) إحاطة علمه بكل تناجٍ يكون منهم في أي مكان من الأمكنة».[4]

وقال السيوطي رحمه الله:

«وأخرج البيهقي في الاسماء والصفات عن سفيان الثوري رضي الله عنه، أنه سئل عن قوله (وهو معكم) قال: علمه».[5]

---

١ ـ زاد المسير في علم التفسير ١٦٠/٨ و١٨٨، وانظر الشريعة للآجري ص ٢٨٩، والدر المنثور ١٨٣/٥، والرد على الجهمية للإمام أحمد ص ٩٥.

٢ ـ تفسير ابن كثير ٣٠٤/٤و٣٢٢

٣ ـ فتح القدير ١٦٦/٥ وانظر الدر المنثور للسيوطي ١٧١/٦

٤ ـ فتح القدير ١٨٧/٥

٥ ـ الدر المنثور ١٧١/٦

وكذلك روى ابن كثير عن أحمد بن حنبل رضي الله عنه في قوله تعالى (إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم) قال أحمد: افتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم».[1]

قلت: وهذا الكلام للإمام احمد موجود في كتابه «الرد على الجهمية» إذ يقول فيه: (إلا هو معهم) يعني بعلمه فيهم (أينما كانوا ثم ينبئهم الله بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم) قال: يفتح الخبر بعلمه ويختم الخبر بعلمه».[2]

---

١ ـ تفسير ابن كثير ٣٢٢/٤ وانظر الرد على الجهمية للامام أحمد ١٣٨ تحقيق عبد الرحمن عميرة
٢ ـ الرد على الجهمية ١٣٨

حديث النزول

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:

«ينزل ربنا عز وجل كل ليلة إذا مضى ثلث الليل الأول، فيقول: أنا الملك، من ذا الذي يسألني فأعطيه، من ذا الذي يدعوني فأستجيب له؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له، فلا يزال كذلك.

ولقد تأول البعض هذا الحديث على أن النزول هو نزول ملك من ملائكة الله، وليس الله سبحانه.

وهذا يعني أن الملك ينسب لنفسه الغفران وإجابة المحتاج، وإعطاء السائل لأنه قال «من يستغفرني» و«من يدعوني» و«من يسألني» وهذا مما لا يجوز القول به أبداً إلا الله نفسه.

فنسبة الصفات الخاصة لله ألى أحد من خلقه كأحد من الملائكة أو غيرهم هو اشتراك لها في ضميرين: ضمير المتكلم وهو الملك، والضمير العائد على الله. وهذا محال.

وقد كان الرسول ﷺ حريصاً على عدم إقران ضمير آخر مع الضمير العائد على الله. ففي الحديث الصحيح أن رجلاً كان يخطب بالناس فقال:

«من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن (يعصهما) فقد غوى، فقال الرسول: بئس خطيب القوم أنت قل: ومن يعصي الله ورسوله فقد

غوى».[1] فالرسول عليه الصلاة والسلام أنكر أن يجمع الخطيب: الله ورسوله على ضمير واحد (يعصهما) فأمره أن يفصل بينهما بأن يقول: ومن يعص الله ورسوله.

فهذا مما يبطل حجة المتأولين بأن الذي يقول: من ذا الذي يستغفرني ومن ذا الذي يدعوني ومن ذا الذي يسألني هو ملك، اذ لا يجوز لأحد أن يضيف الى نفسه الضمير العائد على الله. بل إن إنكار الرسول ﷺ على الخطيب لوصله الضمير العائد على الله ورسوله في كلمة واحدة، كان من هدي كتاب الله أيضاً لأنك تجد في كتاب الله نفس هذا الأسلوب وهو فصل الضمير العائد على الله عن أي أحد من خلقه كقوله عز وجل:

(سيؤتينا الله من فضله ورسوله)[2] ولم يقل سيؤتينا الله ورسوله من فضلهما وقوله: (وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله)[3] ولم يقل من فضلهما، وقوله (وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم)[4] ولم يقل: ليحكما.

وفي هذه الآيات والحديث الذي قبلهما من الدقة في التعبير ما يعجز العباد عنه، وما يرد تأويلات المتأولين بأن الله قد أنزل من الآيات ما يوهم التشبيه، وبأن عوام الناس قد ضلوا بها ولا ينجون منها إلا بالتأويل الذي يؤدي بالتالي إلى تعطيلها.

أنظر رحمك الله إلى هذه الدقة في التوحيد، فلم يقل الله (من

---

١ ـ رواه مسلم ح (٨٧٠) ص ٢ / ٥٩٤، وأبو داود في كتاب الصلاة.
٢ ـ التوبة ٥٩.
٣ ـ التوبة ٧٤.
٤ ـ النور ٤٨.

فضلهما) وإنما فصل بين الضميرين، وما رضي الرسول ﷺ للخطيب أن يقول (ومن يعصهما) بل أنكره عليه وقال له: قل (ومن يعص الله ورسوله فقد غوى).

فكيف يجوز بعد ذلك أن يعود ضمير (من يستغفرني) العائد على الله إلى أحد من خلقه كالملك وغيره؟..

علم عند ذلك أن المتكلم هو الله سبحانه والضمير عائد على المتكلم. إذ نسبة هذا إلى الملك غير جائز، لأن الضمير هنا عائد على المتكلم وهو «الله»، فلو كان الملك هو المتكلم لكان الضمير عائداً إليه لا إلى الله، وكيف يقبل عاقل أن تكون كلمة «يستغفرني» و«يدعوني» و«يسألني» عائدة على الله ويكون قائلها غير الله؟

وعلى كل حال فهناك حديث آخر يثبت أن النزول هو نزول الله وهو قوله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة نزل الرب إلى العباد».(١) فلو سلمنا جدلاً أن الملك ينزل بأمره، فلا يجوز أن ينسب لنفسه إعطاء السائل، وإجابة المحتاج، وغفران المستغفر، لأنه لا يعطي إلا الله، ولا يجيب إلا الله ولا يغفر الذنوب إلا الله، فهذه الصفات عائدة عليه لا يجوز لأحد أن يقولها عنه، وإن كان القول بالنيابة عن الله.

ولكن إذا أمر الله ملكاً أن يقول هذا فإنه يقول: هل من داع فيستجاب له، هل من سائل فيعطى مسألته، هل من مستغفر فيُغفر له.
كما قال جبريل في ندائه:

إن الله يحب فلاناً فأحبوه، ولم يقل اني أحب فلاناً.

---

١ ـ أخرجه الترمذي ٢/ ٦١، وابن خزيمة ق ٢٥٠/ ٢، والحاكم ١/ ٤١٨ عن أبي هريرة وصححوه ووافقه الذهبي.

فهذا ممكن القول كما ثبت عند النسائي. $يما أن يقول الملك: من يستغفرني، ويريد بذلك أن الله هوالمتكلم فهذا من الباطل. فكما أنه لا يجوز للملك أن يقول إني أنا الله ويقول هذا نيابةً عن الله، فكذلك لا يجوز له أن يقول من يستغفرني؟ لأن كلمة: إني أنا الله عائدة على المتكلم، وكلمة: من يستغفرني عائدة على المتكلم. فعلم إذن أن كلمة «يستغفرني» و«يدعوني» و«يسألني» لا يجوز لأحد قولها إلا الله لأنه لا يعود ضمير المتكلم إلا على المتكلم نفسه. واستدل على ذلك بحديث أبي هريرة عن النبي :

«إن الله يمهل حتى إذا مضى شطر الليل الأول أمر منادياً فينادي هل من داعٍ فيستجاب له».[١]

ولا مجال للتأويل بين الحديث الأول وهذا الحديث، إذ أن الحديثالثاني صريح في أن الله يأمر الملك، ومع هذا فإن الملك لم يجرؤ على أن يقول عن الله: هل من داع فأستجيب له، بل قال: هل من داع فيستجاب له، وجعل الضمير عائداً على غير المتكلم. ولم يفرق الحبشي بين «أستجيب له» وبين «يستجاب له».[٢]

فالحديث الأول يدل على أن النزول هو نزول الله عز وجل. لأن الرسول قال: «ينزل ربنا» ولم يقل «ينزل الملك بأمره. ودليله أنالضمير كان عائداً على الله لقول الرسول ﷺ: أن الله يقول حينما ينزل: «من يدعوني» و«من يستغفرني» و«من يسألني».

أما الحديث الثاني فصريح أن الله يأمر منادياً، فيقول «هل من داع فيُستجاب له». والضمير لا يعود على المتكلم أبداً بدلالة أن المنادي لم يقل «فأستجيب له». فليس في الحديثين ما يجيز للحبشي القول بأن الحديث

---

١ ـ الدليل القويم ص ٤٩.

٢ ـ هذا على افتراض صحة الرواية التي أوردها.

محمول على نزول الملك لا على نزول الله، لأن هذا يقتضي أن يكون الملك هو المجيب وهو المعطي وهو الغافر. وفي هذا ايضاً تكذيب للنبي ﷺ وتحريف لكلامه حيث قال: «ينزل ربنا عز وجل» والمتأول ينكر ذلك.

ثم إن الحبشي يقول بأنه لا إله في السماء، فمن أين ينزل أمره وملائكته؟ ومعلوم أن الله ينزل ملائكته وينزل أمره وينزل وحيه وينزل عذابه وينزل رحمته وينزل سكينته، وأنزل جنوداً لم تروها، وأنزل على المؤمنين من بعد الغم أمنة نعاساً وأنزل البينات، وأنزل مائدة من السماء، وأنزل الغيث، وأنزل التوراة والإنجيل، وأنزل حكمه بين الناس، وأنزل من الأنعام ثمانية أزواج، وأنزل المن والسلوى، وأنزل من المعصرات ماءً ثجاجاً، وأنزل النور، وأنزل من السماء ماء طهوراً، وأنزل كتابه ليلة القدر، وأنزل الذكر، وأنزل الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وأنزل الحديد، وأنزل الرجز على الفاسقين، وينزل من فضله على من يشاء من عباده.

فإن لم يكن في السماء رب فمن أين تنزل هذه كلها؟ ولم التخصيص دائماً على النزول دون الصعود؟ والجواب أنه سبحانه قد دل على أن نزول الأمر ونزول الملائكة ونزول الوحي من عنده فقال: (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض)[1] ويقول عن الأمر المنزل بأنه (أمراً من عندنا)[2] وقال عن الملائكة (تعرج الملائكة والروح إليه).[3]

أما عن الآيات الدالةعلى نزول القرآن فهي كثيرة جداً» منها قوله تعالى: (كتاباً أنزلناه إليك) وقوله (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل).[4]

١ ـ السجدة ٥.
٢ ـ الدخان ٥.
٣ ـ المعارج ٤.
٤ ـ الإسراء ٥.

وآيات الإنزال بالمئات تزيد على الخمسمائة، فلماذا التنزيل دون غيره؟ فإن قال الحبشي بأن الأمر في السماء والملائكة في السماء لكن لا يعني إنزال الله لهم إلى الأرض أنه هو في السماء» قلنا له: لقد وصف الله الملائكة الذين في السماء بأنهم عنده سبحانه فقال: (ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته)[1] وقال: (إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون).[2]

وقال تعالى عن الذين قتلوا في سبيله (بل أحياء عند ربهم يرزقون).[3]

وقوله ﷺ: «وذكرهم الله فيمن عنده». وكذلك قوله: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم». وكذلك فإن نزول جبريل عليه السلام بالوحي إلى الرسل عليهم صلوات الله دال على أنه أخذ الوحي من السماء قبل أن ينزل به، وأن محمداً ﷺ قد عرج إلى السماء السابعة ففرض الله عليه حينئذ الصلوات الخمسين، فنزل إلى السماء السادسة ثم أمره موسى عليه السلام أن يرجع إلى ربه فيسأله التخفيف، فما هي حجة الحبشي في رد كل هذه الآيات والأحاديث والآثار؟

هل حجته أن النزول يوهم التشبيه؟ إن كان هذا قوله فليس بوسعه الانكار علينا لإقرارنا هذا الحديث إذ عليه عندئذٍ أن ينكر على الرسول ﷺ لأننا لم نقل هذا الحديث من عندنا، بل أخذناه عن نبي هذه الأمة. وما أخذناه عنه ﷺ فإننا سنظل متمسكين به، إن قال ينزل ربنا، قلنا ينزل نزولا يليق بجلاله وعظمته، وليس نزوله كنزول المخلوقات، وكما قلنا فإننا

---

١ ـ الأنبياء ١٩.
٢ ـ الأعراف ٢٠٦.
٣ ـ آل عمران ١٦٩.

ندخل هذه القاعدة (ليس كمثله شيء) في كل صفة لصفات الله، فنقول: ينزل ربنا إلى السماء الدنيا وليس كمثل نزوله شيء، ألم يقل الحبشي أن ما ورد في الكتاب والسنة مما ظاهره الجسمية كاليد والعين يجب الإيمان به مقرونا مع التنزيه.[1] على وجه يليق به سبحانه. فلماذا يتأول الصفات ويصرفها عن وجهها الدالة عليه؟ لماذا لا يؤمن بالصفة ويقرنها بالتنزيه فيقول: نؤمن بأن الله سبحانه ينزل كما وصفه رسول الله ﷺ نزولاً ليس كنزول المخلوقات لأنه سبحانه ليس كمثله شيء؟ إن كانت طريقته الإيمان بما ورد في الكتاب والسنة مع التنزيه فلماذا لا يقر وينزه؟ لماذا يتأول ويعطل؟. ولماذا لا يثبت وينزه فيجمع بين التصديق والتنزيه ويأتي بصفة الكمال على وجهها المطلوب؟

أليس ذلك تناقضاً منه؟.

والجواب كما قلت سابقاً بأن سوء الظن بآيات الله وأحاديث نبيه ﷺ واعتبار أن الكتاب والسنة فيهما مما يوهم التشبيه ما ضل به العوام، هو الذي دفعهم إلى محاولة التنزيه عن طريق غير الكتاب والسنة مما يؤدي بهم إلى التعطيل. ومن المخجل على كل من يسمي نفسه مسلماً أن يعتقد هذا، في كتاب الله وسنة رسوله ثم يلجأ بعد ذلك إلى تنزيه الله عن مماثلة المخلوقات عن طريق أفلوطين وأرسطو وفيثاغورس وديموقراطيس وغيرهم.

ولو أنهم أحسنوا الظن بكتاب الله لوجدوا أن فيه من التنزيه ما يغني عن طرق الفلاسفة، إذ أن في كتاب الله آية كافية شافية من أمراض التشبيه وهي «ليس كمثله شيء» وطريقتها سهلة جداً لا تؤدي إلى تأويل ولا تعطيل ولا تبديل ولا تحريف، لأن فيها إثبات بلا تمثيل (ليس كمثله شيء).

---

١ ـ الدليل القويم ١٤٧.

وتنزيه بلا تعطيل (وهو السميع البصير).

أما التنقيب عن مذاهب أخرى وإدخالها في الدين بدعوى تنزيه الله فهذا من باب «وداوها بالتي هي الداء».

قول الأشعري في النزول

والقول في النزول بأنه نزول الملك أو نزول الأمر هو مخالف لما يعتقده الإمام أبوالحسن الأشعري، الذي يتغنى الحبشي بحبه في كتابه الدليل القويم (الصفحة السادسة). فقد روى الحافظ ابن عساكر في تبيينه عن الأشعري قوله:

«ونصدق بجميع الروايات التي أثبتها أهل النقل من النزول إلى السماء الدنيا، وأن الرب يقول (هل من سائل هل من مستغفر) وسائر ما نقلوه وثبتوه خلافاً لما قاله أهل الزيغ والتضليل[١]».

وكذلك روى الحافظ ابن عساكر عن الأشعري أنه ذكر ضلال المعتزله ونفيهم الكثير من صفات الله منها قوله:

«ونفوا ما روي عن رسول الله ﷺ من قوله أن الله ينزل إلى سماء الدنيا».[٢]

وقوله: «ومما يؤكد أن الله عز وجل مستوٍ على عرشه دون الأشياء كلها، ما نقله أهل الروايةعن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا عز وجل كل ليلة إلى السماء الدنيا، فيقول: هل من سائل فأعطيه، هل من مستغفر فأغفر له، حتى يطلع الفجر».[٣]

---

١ ـ الإبانة ص ٢٥، والتبيين لإبن عساكر ص ١٦١.
٢ ـ التبيين لإبن عساكر ص ١٥٧، والإبانة ص ١٥ تحقيق الأرناؤوط.
٣ ـ الإبانة ص ٨٨، وانظر مقالات الإسلاميين ٢٩٠ ـ ٢٩١.

وبعد أن تبين أن الأشعري بريء مما يقوله المتكلمون والفلاسفة من أن النزول هو نزول الملك بأمر الله، بقي أن نوضح بأن القائلين بهذا هم المعتزلة الذين توسع الحبشي في سبهم وشتمهم ونقد عقائدهم وآرائهم.

فقد روى ابن عساكر حديثاً طويلاً للقاضي أبي المعالي بن عبدالملك يثني فيه على الأشعري ويستعرض بعض معتقده ومن جملة ما قال:

«وكذلك قالت المعتزلة: النزول نزول بعض آياته وملائكته، والاستواء بمعنى الإستيلاء».[1]

فالحبشي يوافق المعتزلة في أمور كثيرة، يتضح لنا حتى الآن بعض منها:

تأويل النزول بنزول الملك.[2]

وتأويل الإستواء بالإستيلاء.[3]

والنيل من معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.[4]

فكيف يليق به أن يتغنى بمذهب الأشعري وهو المخالف الأول له؟. وكيف يليق به شتمهم وسبابهم في كتابه وهو الذي يوافقهم في كثير من مسائلهم؟ أليس هذا هو التخبط والاضطراب؟

---

١ ـ التبيين لابن عساكر ص ١٥٠.
٢ ـ الدليل القويم ٤٩.
٣ ـ الدليل القويم ٣٨.
٤ ـ الدليل القويم ٢١٤ ـ ٢١٥.

قول الحبشي في أسماء الله

ويوافقهم كذلك في موقفهم من أسماء الله حين يقول عنها: بأنها ليست هي هو، ولا هي غيره[1]، أي ليست هي عين الله ولا هي غير الله، وقد قال الشافعي إذا رأيت الرجل يقول الاسم غير المسمى فاشهد عليه بالزندقة. وقد قال تعالى: ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها، وذروا الذين يلحدون في أسمائه.

وقد أثبت الأشعري بطلان هذا القول وأعلن في الإبانة مخالفته له، فقال: وأن من زعم أن اسم الله غيره كان ضالاً[2]

وأنا لا أقول بأن الحبشي هو من الذين يقولون بأن أسماء الله هي غير الله. لكني أريد أن أبين بذلك أنه مذبذب بين أن يقول بأن الأسماء هي الله، أو أن أسماء الله هي غيره، فهو لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

فقوله عن أسماء الله إنها ليست هي الله معناه أنها غير الله، ثم قوله بعد ذلك بأنها ليست هي غير الله معناه آنها هي الله، لم هذا التقلب والاضطراب؟ ألم يقل الله سبحانه وتعالى «ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها» فالله يعرّفنا هنا بأسمائه وصفاته لنتعبده بها ونعرفه بها، لا لنتفلسف فيها، ونتخاصم في ماهياتها.

وقد قال البيهقي: «والإسم صفة قائمة بالمسمى (الله)، لا يقال إنها هي المسمى ولا هي غير المسمى، وأما المسمى فهو ما كان طريق إثباته:

---

١ ـ الدليل القويم ص ٧٨.

٢ ـ الإبانة ١٩ تحقيق الأرناؤوط، وانظر مقالات الإسلاميين للإمام الأشعري ص ٢٩٠.

الكتاب والسنة فقط، كالوجه واليدين والعينين، وهذه أيضاً صفات قائمة بذاته، لا يقال فيها إنما هي المسمى، ولا غير المسمى»[1]. فما رأي الحبشي أن يضيف هذه الفقرة إلى كتابها فتكون واحدة من جملة ما نقله عن البيهقي، أم أنه يختار من هذا الإمام ما يوافق مذهبه؟!.

فإنه معلوم أننا إذ أردنا أن ننادي وندعو رب العالمي نقول: «يا الله» وكذلك يمكن أن ندعوه بأسمائه فنقول: يا رحمن، يا عليم، يا قادر، يا لطيف يا سميع يا بصير، يا حي يا قيوم، يا خالق.

فيعلم من ذلك أن هذه الأسماء لله تعالى، يُعرف بها ويُمدَح بها، ويُدعى بها وينادى بها، وهذا معنى قوله تعالى (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها).

فلماذا هذا التردد وهذا التخبط بين أن ننسب الأسماء لله أو ننسبها لغيره؟ فالقول على الأسماء بأنها ليست هي هو، ولا هي غيره، أي ليست هي عين الله ولا هي غيره فان ذلك من السفسطائية، ومن التكلف الذي لا فائدة منه، ومن التقلب والتذبذب الذي لا يفيد يقينا، ولا يشفي مريضاً، بل يمرض الشافين. ولماذا هذا الخوف من نسب تلك الأسماء إلى صاحبها سبحانه وتعالى؟ فان كان ذلك خوفاً من تكثر الواحد الى آحاد عديدة مما ينافي وحدته كان ذلك تخليطاً بين الموصوف وبين الصفة القائمة به.

فكان قولكم هذا كقول النصارى بأن الدليل على أننا نؤمن بالثالوث هو كما يقول المسلمون (بسم الله الرحمن الرحيم) فيخلطون بين الصفة والموصوف، فيجعلون (الرحمن الرحيم) إلهين مضافين إلى الإله الأول «الله» مما يقتضي بزعمهم أن يكون التثليث وارداً عندنا، فنقر عندئذٍ بقول

---

١ ـ الاعتقاد على مذهب السلف، للبيهقي ص ٢٢.

النصارى (الله، الابن الروح القدس) كإقرارنا (بزعمهم) أننا نقر بالتثليث وذلك من قوله تعالى (بسم الله الرحمن الرحيم) وقرروا بذلك أننا نماثلهم في نسبة الشريك لله، وكل ذلك سببه أنهم لم يفرقوا بين الموصوف وبين الصفة القائمة به.

وهكذا يفعل الحبشي وأصحابه من المتكلمين، إذ أن وصف الإله عندهم بصفة يجعل مع الله إلها آخر، لأن تعدد الصفات تؤدي إلى تعدد الواحد وهذا أيضاً تخليط بين الموصوف وبين الصفة القائمة به.

وفي ختام ذلك كله، فانه يجدر بي أن أبين مصدر هذه الكلمة التي يتمسك بها المتكلمون وهي قولهم عن أسماء الله أنها ليست هو ولا هي غيره، إذ أن هذه السفسطائية مأخوذة عن «برقلس» فإنه إذا أراد وصف الله بغية تقريبه لأذهان الناس، فانه يتحدث عنه بالتمثيل فيشبهه بالشمس مثلاً، أو بطريق السلب كأن يقول عنه: «هو ليس هذا، وليس هو غيره». [1]

وإنما أردنا أن نبين مصادر أفكار الحبشي، وأنها ليست من مصدر إسلامي، إنما هي ذات طابع يوناني فلسفي لا ينبغي الجمع بينه وبين هذا الدين.

وفي ختام ذلك نقول: إن الإمام أحمد كان يشق عليه الكلام في الإسم والمسمى ويكرهه، فيقول: «هذا كلام محدث، ولا يقول: إن الاسم غير المسمى، ولا يقول: ولا هو هو، ولكن يقول: إن الإسم للمسمى اتباعاً لقوله تعالى: (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها). [2]

---

١ ـ الجانب الآلهي للدكتور محمد البهي ص ١٣١ ـ مكتبة وهبة ـ.
٢ ـ الإمام حمد بن حنبل (سلسلة السير) ص ١٤٧، وانظر تفسير الرازي ١/ ١٠٨ وطبقات الحنابلة ٢/ ٢٧٠.

هل يقتضي إثبات النزول مشابهة المخلوقات؟

لقد أثبت السلف كما أوضحنا أن نزول الله ثابت من الأحاديث الصحيحة المتواترة. فيجب الإيمان به مع إقران النزول بـ (ليس كمثله شيء) وهذا جماع الأمر.(١)

فمن يقول بعد ذلك بأن الله ينزل بحركة وانتقال وغير ذلك من الأقوال المبتدعة، فقد تكلف العلم نبرات الله سبحانه، وتكلف معرفة الكيفية.

ومن وصل إلى هذا، فقد عطل قوله تعالى (ليس كمثله شيء)، فلا يصح الجمع بين هذه الآية وبين ضرب المثال في ذات الله، كأن نقول ينزل بحركة أو بانتقال إلى غير ذلك، فيكون هذاابتداع في الدين لأننا قد بلغنا أن الله ينزل إلى السماء الدنيا، لكننا لم نتبلغ أنه ينزل بحركة وتنقل فنمضي على إثبات النزول ونمتنع عن إثبات الحركة والتنقل، وهذا عين الإثبات لما أثبته الرسول ﷺ عن ربه أنه ينزل إلى السماء الدنيا والامتناع عن وصف النزول بالحركة والانتقال هو عين هدي الرسول ﷺ في النفي والإثبات.

ولا يقتضي إثبات صفة النزول مماثلة نزول الله بنزول خلقه، بل إن ما يقتضي المماثلة هو قول الرجل: ينزل الله نزولاً كنزولنا، أما أن نقول: نعم، ينزل ربنا عز وجل إلى السماء الدنيا كما أخبرنا الصادق المصدوق ﷺ

---

١ ـ وهذا ما حث عليه ونقله الحافظ إبن حجر في فتح الباري عن الشافعي أنه قال: فنثبت هذه الصفات وننفي عنه التشبيه كما نفى عن نفسه فقال: «ليس كمثله شيء» ا.هـ فتح الباري ١٣/ ٤٠٧.

بذلك، وأنه ينزل نزولاً يليق بجلاله وعظمته، ولا علم لنا بالحال التي يكون عليها النزول، وما دعانا إلى الجهل بتلك الحال هو أنه ليس كمثله شيء، فكذلك ليس كمثل نزوله شيء.

والعلم بكيفية صفات الله تعالى يقتضي العلم بذاته، وهذان مانجهل حقيقتهما تماماً، فلا علم لنا بذاته ولا علم لنا بحقائق صفاته.

وهذا كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى إذ يقول:

«والذي يجب القطع به أن الله ليس كمثله شيء في جميع ما يصف به نفسه، فمن وصفه بمثل صفات المخلوقين في شيء من الأشياء فهو مخطىء قطعاً، كمن قال: إنه ينزل فيتحرك وينتقل كما ينزل الانسان من السطح إلى أسفل الدار، كقول من يقول: إنه يخلو منه العرش، فيكون نزوله تفريغاً لمكان وشغلاً لآخر، فهذا باطل يجب تنزيه الرب عنه[1]». ا. هـ

فهذا من أوضح الدلالات على أن من يقول بذلك فقد ناقض قوله تعالى (ليس كمثله شيء).

أما المتكلمين الذين يفرون من إثبات ما أثبته الرسول ﷺ (كالحبشي) فإنهم يفرون من ذلك الحديث بحجة أن إثباته يوهم الحركة، والحركة من لوازم الجسم، فتأولوا النزول على أنه نزول الملك بأمر الله، وعطلوا المراد بهذا الحديث.

وظنوا بذلك أنهم أعطوا الله حقه من التنزيه، وصرفوا الناس عن توهم التشبيه، وإنما الحق أنهم نقلوهم الى التعطيل.

فمن الذي علم الحبشي وأمثاله أن إثبات هذه الصفة يقتضي الحركة؟ ومن أول من تكلم عن تنزيه الله عن الحركة؟

---

١ - شرح حديث النزول ص ١٨٨ - ١٨٩، ومجموعة فتاوى إبن تيمية ٥/ ٥٧٨.

إن أشهر من تكلم عن الحركة، وعن عدم جواز نسبتها إلى الله هو أرسطو، وقد أخذها عنه الفلاسفة والمتكلمون، فوقعوا في شر تعطيل.

يقول أرسطو[1]: «إن ما يتحرك إنما يتحرك من الإضطرار عن محرك، والمحرك الأول غير متحرك بذاته».[2]

ويقول كذلك: «وهذه الأشياء المتحركة، لها إمكان على الحركة في المكان لا في الجوهر، والمحرك لهذه هو غير متحرك... ولا يتغير، فالتغير فيه انتقال إلى الأنقص، وهذا هو حركة ما. فيكون هذا العقل ليس عقلاً بالفعل، لكن بالقوة، وإذا كان هكذا فلا محالة أنه يلزمه الكلال والتعب من اتصال العقل[3] بالمعقولات. فيكون ذلك العقل في نفسه ناقصاً ويكمل بمعقولاته[4]، وإذا كان هذا هكذا فيجب أن نهرب من هذا الاعتقاد بها»[5].

ويقول كذلك: «إن كل متحرك ناقص، إذ ليست الحركة إلا الانتقال من حال إلى حال آخر، لغرض ما يقصده المتحرك».[6]

ويقول: «إلا أن المتحرك الأول يحرك العالم منذالقدم، يحركه من غير أن يتحرك معه، لأنه إذا تحرك انتقل إلى الشر أو الخير».[7]

---

١ - في سبيل الموسوعة الفلسفية - أرسطو - تأليف د. مصطفى غالب.
٢ - وهذا الرأي هو رأي أفلوطين موجود في كتابه «أثولوجيا» وقد نقل الشهر ستاني مبدأ الحركة وفصلها في الملل والنحل مما يثبت مصدر الحبشي ومن يوافقه من المتكلمين ٣/ ٣٨ - ٣٩.
٣ - (الله) عند أرسطو هو العقل، فإنه يسميه دائماً بهذا الإسم.
٤ - أي مخلوقاته.
٥ - (أرسطو) للدكتور مصطفى غالب ص ٤٣ و ٤٦، وانظر الجانب الإلهي للدكتور محمد البهي ص ٢٣٤ وانظر كذلك «الوجود الإلهي» سانتلانا ص ٨٨ - ٨٩ تحقيق عصام الدين محمد علي.
٤ - الوجود الإلهي ص ٨٩، والمذاهب اليونانية الفلسفية في العالم الإسلامي، تحقيق د. محمد جلال شرف ص ٧٢.
٧ - من أفلاطون إلى ابن سينا (محاضرات في الفلسفة العربية) جميل صليبا، ص ٨٢.

هذا هو مصدر من المصادر التي أخذ عنها المتكلمون وتأثروا بها، وأحسنوا الظن بها مما دعاهم إلى إساءة الظن بما جاء عن الله وعن رسوله ﷺ.

فلما نزهوا الله عن الحركة لتقوىً في قلوبهم، بل لإثبات ما عند أرسطو وغيره، وعطلوا ما جاء عن الله ورسوله ﷺ كل ذلك لإثبات ما جاء عن أفراخ الفلاسفة الذين ضلت بهم النصارى.

فإذا تأملنا رأي ارسطو في الحركة وأنها جائزة على المخلوقات وغير جائزة على (المحرك الأول) وهو الله، فلنرجع إلى كلام الحبشي في الحركة لنبين صدق ما نقوله. وعلى القارىء مقارنة قول أرسطو بقول الحبشي الذي سنورده:

١ - يقول الحبشي:

«والله تعالى لا يوصف بالحركة، لأن الحركة والسكون يتعاقبان في محل واحد، وإنما يوصف بالحركة من يجوز أن يوصف بالسكون، وكلاهما من أعراض الحدث وأوصاف المخلوقين» ويقول:

«فلا يتصف ذاته بقبول التغير والانتقال»[1]

ثم يذكر أن الحركة لا تجوز إلا على المخلوقات فيقول:

«إن الجسم لا يخلو من الحركة والسكون وهما حادثان لأنه بحدوث أحدهما ينعدم الآخر فما لا يخلو من الحادث حادث».[2]

ويقول:

«العالم يتغير من حالٍ إلى حال، والتغير لا يكون إلا بمغيّر «لا يتغير»[3]

---

١ - الدليل القويم ص ٥٢ و ٥٦.
٢ - نفس المصدر ص ١٥، وفي صفحة ٥٣ تنزيه الله عن مماثلته لحركات الاجرام.
٣ - نفس المصدر ص ٢٣.

وبعد هذه المقارنة، وتوضيح أصل عقيدة الحبشي وأنها يونانية المصدر، أقول: إذا أنكرت على الحبشي هذا، فلا يعني ذلك أنني أؤمن بنقيضه، كأن أقول بأن الله يتحرك أو غير ذلك، وأنّى لي أن أقول هذا وأنا لا أعلم عنه شيئاً؟ إذ أن التزامي بـ (ليس كمثله شيء) يمنعني أن أثبت الحركة أو أثبت عدم الحركة فيكون هذا عملاً بقوله تعالى: (ولا تقف ما ليس لك به علم).[1]

وهذا هو سبب إنكاري على الحبشي، لأن هذا هو خوض في ذات الله، ومن خاض في ذات الله فهو أول المعطلين لـ (ليس كمثله شيء)، إذ أن هذه الآية تحرم علينا إثبات أو نفي شيء عن الله لم يكن من كلام الله أو كلام رسوله ﷺ.

---

٤ ـ الإسراء ٣٦.
١ ـ

المحكم والمتشابه

قال الله تعالى: (هو الذي أنزل عليك الكتاب، منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخرمتشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا، وما يذكر إلا أولوا الألباب) [آل عمران ٧].

وقد ذكرنا في مقام آخر حديث النبي ﷺ والمروي عن عائشة رضي الله عنها أنه تلا هذه الآية ثم قال: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم».(١)

جعل الله سبحانه وتعالى تتبع المتشابه علامة على الزيغ والانحراف. كمن يقول بأن آيات الصفات من المتشابه ثم يستريح في تأويلها وحملها على غير محملها. وقد فعلها بعض علماء «توحيد الكلام» فقالوا: لا نقف عند قوله تعالى (وما يعلم تأويله إلا الله) بل نصلها الى ما بعدها فتكون (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم). قلنا: هذا لا يصح في اللغة، لأنك إن جعلت الواو في (والراسخون) معطوفة على (الا الله) ووقفت، ثم أكملت الآية بقولك (يقولون آمنا به كل من عند ربنا) فكأنك تقول بأن الله والراسخين في العلم يقولون آمنا به. وليس

---

١ ـ راجع تخريج الحديث في فصل ذم الكلام وأهله.

الراسخين في العلم وحدهم، لأنك عطفت الله والراسخين في العلم على حال واحدة، فيصير القائلون (آمنا به كل من عندربنا) هم الله والراسخون في العلم وهذا ليس بصحيح.

ولقد ثبت في قراءة ابن عباس وعائشة وابن مسعود وأبي بن كعب واحمد ومالك وعمر بن عبد العزيز وغيرهم أنهم يقفون عند قوله تعالى (وما يعلم تأويله إلا الله) ولا يصلونها بما بعدها. ولدينا من الأدلة ما يكفي لذلك وسنذكره بالتفصيل.

ثم لو فرضنا أن الراسخين في العلم يعلمون تأويله، فلماذا يخالف الحبشي (الذي يقال بأنه من الراسخين في العلم) الراسخين في العلم الذين من قبله كمالك وأحمد والشافعي وأبو حنيفة ومن قبلهم من الصحابة والتابعين فيؤول آيات الصفات بتأويل يخالف طريقهم؟!

فهؤلاء السلف من الصحابة والتابعين هم المشهود لهم بأنهم القمة في رسوخ العلم، ومع ذلك فلم يأت أحد منهم ويقول: تأويل الإستواء هو الاستيلاء، وتأويل اليد: هي النعمة والقدرة، وتأويل القدم هو جماعة من الناس إلى غير ذلك من التأويلات الفاسدة التي تأولها من زعم أنه من الراسخين في العلم.

فلقد أجمع الراسخون في العلم من قبلك (أعني الحبشي) بأن هذه الآيات تبقى على ما هي لا تؤول ولا تحرف،[1] فكيف تكون من الراسخين في العلم وتخالف اجماعهم وتستقل بطريقة منابذة لهم، ثم تقول أنا على عقيدة أهل السنة والجماعة... مع أن أهل السنة والجماعة بريئون ممن يلحد في أسماء الله وصفاته ويصرفها عن دلالتها ثم يعطلها عن

١ - أنظر جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٩٦.

مراد الله لها؟ فهات لنا دليلاً على أن الله أراد بالإستواء أنه الإستيلاء، وهل يكون التعطيل والتكفير والإتيان بمبادىء الفلاسفة من اليونان إلا طريقاً مضاداً للصحابة والتابعين؟

وهات لنا دليلاً على أن الراسخين في العلم قبلك كمالك والشافعي والتابعين من قبلهم تأولهوا الإستواء بالإستيلاء وعلى أن اليد بمعنى النعمة والقدرة. فكيف تزعم أنك على عقيدة أهل السنة والجماعة وأنت تخالفهم في أصل عقيدتهم، فتخالف بذلك سبيل المؤمنين وتوهم الناس انك على سبيلهم؟

قال تعالى: «ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً». فالنصيحة لك أن تحذو طريقهم وتسلك سبيلهم وإلا فاحذر مما في آخر هذه الآية.

وزعمك بأنك من الذين يعلمون تأويل المتشابه من كتاب الله هو باطل، لأن المأثور عن السلف أنهم لا يعلمون تأويل ما تشابه من الكتاب وإنما علمهم كما قالت عائشة رضي الله عنها «أن آمنوا بمحكمه ومتشابهه ولم يعلموا تأويله» وسنذكر هذا في معرض استدلالاتنا على أنه لا يعلم تأويل المتشابه إلا الله. قال ابن جرير الطبري:

حدثنا ابن حميد، قال ثنا سلمة عن محمد ابن اسحق، قال: ثني محمد بن جعفر بن الزبير قال: (محكمات) فيهن حجة الرب وعصمة العباد ودفع الخصوم والباطل، ليس لها تصريف ولا تحريف عما وصفت عليه، وآخر متشابهات في الصدق، لهن تصريف وتحريف وتأويل إبتلى الله بهن العباد كما ابتلاهم في الحلال والحرام، لا يصرفن إلى الباطل ولا يحرفن عن الحق».[1]

---

١ ـ تفسير ابن جرير الطبري، المجلد الثالث ص ١١٦.

وحدثنا ابن حميد، قال ثنا سلمة عن ابن اسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير: (فيتبعون ما تشابه منه) أي ما تحرف منه وتصرف، ليصدقوا به ما ابتدعوا وأحدثوا، ليكون لهم حجة على ماقالوا «وشبهة».[1]

ويقول ابن جرير الطبري رحمه الله: (فيتبعون ما تشابه منه) ما تشابهت ألفاظه وتصرفت معانيه بوجوه التأويلات ليحققوا بادعائهم الأباطيل من التأويلات في ذلك ما هم عليه من الضلالة والزيغ عن محجة الحق، تلبيساً منهم بذلك على من ضعفت معرفته بوجوه تأويل ذلك وتصاريف معناه... وقال وهذه الآية وإن كانت نزلت فيمن ذكرنا أنها نزلت فيه من أهل الشرك، فإنه معني بها كل مبتدع في دين الله بدعة فمال قلبه إليها تأويلاً منه لبعض متشابه آي القرآن، ثم حاج به وجادل به أهل الحق وعدل عن الواضح من أدلة آية المحكمات إرادة منه بذلك اللبس على أهل الحق من المؤمنين».[2]

كما أن ابن جرير رحمه الله قد بين لنا أن المحكم هو ما روي عن بعض الصحابة والتابعين أنه الناسخ الذي يعمل به ما أحل الله فيه حلاله وحرم فيه حرامه، وأما المتشابهات فهي المنسوخ الذي لا يعمل به ويؤمن به فقط».[3] وكذلك قال: « والمتشابه ما لم يكن لأحد الى علم تأويله سبيل. مما استأثر الله بعلمه دون خلقه نحو أخبار القيامة ووقت خروج عيسى ابن مريم».[4] وهذا دال على أن اتخاذ المتشابه من كتاب الله ذريعة للتحريف والتأويل هو من علامات الزيغ.

---

١ - نفس المصدر ٣/ ١١٨.
٢ - نفس المصدر ٣/ ١١٨ و ١٢١.
٣ - نفس المصدر ٣/ ١١٥.
٤ - نفس المصدر ٦/ ١٧٠ و ٢٠٢.

حقيقة الراسخين في العلم

يقول الإمام الغزالي رحمه الله:

«ولما كان زمن السلف الأول زمان سكون القلب، بالغوا في الكف عن التأويل خيفة من تحريك الدواعي، وتشويش القلوب، فمن خالفهم في ذلك الزمان فهو الذي حرك الفتنة وألقى هذه الشكوك في القلوب فباء بالإثم». [1]

«ولهذا أقول: يحرم على الوعاظ على رؤوس المنابر الجواب عن هذه الأسئلة بالخوض في التأويل والتفصيل، بل الواجب الاقتصار على ما ذكرناه وذكره السلف». [2]

والتأويل أمر مظنون، لا يحكم المؤوّل فيه ولا يقطع بصحة تأويله، بل الظن والشبهة هي «الحكمة» عنده والتي فضلها على طريق السلف المشتملة على «الحكمة» و«السلامة». وبث هذه الشبهة وهذا الظن بين الناس، فتنة لهم عن دينهم وفتحاً لطريق الجدل والخوض في آيات الله.

وكل من يريد التأويل بحجة أنه «من الراسخين في العلم» فإنما هو من الذين يتتبعون ما تشابه منه إبتغاء الفتنة وابتغاء تأويل كتاب الله، لأن الراسخين في العلم لم ينفوا صفات الله ولم يؤلوها هذا التأويل التعطيلي،

---

١ ـ إلجام العوام عن علم الكلام (ضمن مجموعة) ص ٨١.

٢ ـ نفس المصدر ص ٧٠ ط دار الطباعة المحمدية بالأزهر ـ القاهرة.

بل كان رسوخهم في العلم أن آمنوا بمحكمه ومتشابهه وهم لا يعلمون تأويله كما سنروي ذلك عن عائشة.

فالشيخ عبدالله الحبشي يقال بأنه من «الراسخين في العلم» مع أنه ارتضى تأويل استواء الله على عرشه بالإستيلاء[1] وهذا لم يقل به أحد من «الراسخين في العلم» مع أن مالكاً قال قولةً أجمعت الأمة عليها، وهي جوابه حين سئل عن الإستواء بما يلي:

فقد أتاه رجل فقال له يا أبا عبدالله: «الرحمن على العرش استوى» كيف استوى؟

فقال مالك: الإستواء معلوم، والكيف مجهول (وفي لفظ غير معقول) والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعاً، أخرجوه».[2]

وما يقول به الحبشي بأنه «يجوز تأويل صفات الله لأجل صرف العامة عن الجسمية»[3] هو مخالف لقول مالك وإجماع الأمة على قوله هذا من بعده. فكيف يكون رسوخك في العلم مخالفاً لرسوخ العلماء من قبلك كمالك وغيره من الذين حكوا إجماع الأمة فيما يتعلق بهذه الصفات؟

إن طريق الراسخين في العلم واحدة، والفرق بين مالك والحبشي

---

١ - أنظر كتابه الدليل القويم ص ٣٨ فيما ينقله عن السبكي وانظر كذلك ص ٤٧ يتبين لك أنه ساعة «يقر بمذهب أهل السلف وتارة» يقر بمذهب المتأولين.

٢ - رواه اللالكائي في شرح أصول السنن (٢/ ٢) وقال الحافظ في الفتح ١٣/ ٤٠٧ رواه البيهقي بسند جيد، والأسماء والصفات للبيهقي ٢٩١، وأبو نعيم في الحلية (ترجمة الإمام مالك) ٦/ ٣٢٦.

٣ - الدليل القويم ص ٤٧ مع أنه قد أثبت قبل هذا السطر بقليل «صفات الله» وأنها تثبت مع الإقران بالتنزيه وذلك بنفي الجارحة واثبات صفة الكمال، ولو أنه بقي على ذلك لكان على مذهب أهل السنة والجماعة لكنه أتى بعد ذلك وقبله بما يخالف مقولته هذه.

شاسع جداً، إذ أجاز الحبشي التأويل في صفة الاستواء وقال: بجواز تأويلها بالاستيلاء مع أن مالكاً قال: «الاستواء معلوم». ولم يقل بأن الاستواء يؤول بالإستيلاء!!..

فلا تتوهم من كلامي هذا بأنني لا أريد صرف العامة عن التشبيه، لكني لا أصرفهم عنها بطريقة التعطيل المخالفة لطريقة السلف، بل أثبت لهم ما أثبته الله لنفسه، وأصرفهم عن (التشبيه) بطريقة القرآن (ليس كمثله شيء) وهذه كافية لهم، ومن لم يقل بأنها كافية فقد افترى على الله في آياته.

فمن زعم بأنه من الراسخين في العلم فعليه التزام ما قاله أولئك المشهود لهم بأنهم من «الراسخين في العلم» وبخاصة التزام قول مالك: «الاستواء معلوم. والكيف غير معقول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة». فنقيس على هذه القاعدة باقي الصفات. كأن نقول: النزول معلوم، والكيف غير معقول، واليد معلومة والكيف غير معقول، والمجيء معلوم والكيف غير معقول الى غير ذلك من الصفات التي يؤولها الحبشي ويخالف بتأويله لها طريق «الراسخين في العلم».

لكني أرى بأن الحبشي يذكر هذا الاثر المروي عن مالك. ومن ثم يخالفه إلى حد بعيد. ثم إني رأيت أكثر تلاميذه متمسكين بهذا الأثر من حيث القول فقط، ومن حيث نفي صفات الافعال، لا من حيث إثبات ما أثبته مالك ونفي مانفاه والدليل على ذلك أنني قد ناظرت أحدهم، فقلت له: انت تكثر من رواياتك لهذا الأثر عن مالك لقوله: «الاستواء معلوم» فتخالفه في ذلك قائلاً بأن الاستواء يصح معناه بالاستيلاء، فلماذا لا تنتهج طريقه؟

فقال: «وهل الامام مالك هو نبي ينبغي الأخذ بقوله؟ إننا لسنا ملزمين في الأخذ بقوله.

ولقد وجدت أنني تحامقت قليلاً حين سألته هذا السؤال لأنه (هو وجماعته) قد نفوا عن الله ما أثبته لنفسه، ونفوا عن رسوله ما أثبته له سبحانه فهل يعقل فيمن ترك آيات الله واحاديث رسوله أن يقتنع بغيرهما؟..

قال تعالى (فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون)[1]؟!!...

ولا يعلم تأويله إلا الله

يقول الامام السيوطي: «وأما الأكثرون من الصحابة والتابعين واتباعهم ومن بعدهم، خصوصاً أهل السنة فذهبوا إلى أنه لا يعلم تأويله إلا الله، ويؤيد ذلك أن الآية دلت على ذم متبعي المتشابه ووصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة» (٢) .

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت قي قوله تعالى (والراسخون في العلم يقولون آمنا به) قالت: كان من رسوخهم في العلم أن آمنوا بمحكمه ومتشابهه ولم يعلموا تأويله (٣) .

حدثنا ابن حميد قال: ثنا يحيى بن واضح ثنا عبيد الله عن أبي نهيك الاسدي قال: (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم) فيقول: «إنكم تصلون هذه الآية وإنها مقطوعة، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا، فانتهى علمهم إلى قولهم الذي قالوه»[4].

---

١ ـ الجاثية ٦.
٢ ـ الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣ ـ ٤.
٣ ـ تفسير الطبري المجلد الثالث ص ١٢٢.
٤ ـ تفسير الطبري المجلد الثالث ص ١٢٢.

حدثنا الحسن بن يحيى قال اخبرنا عبد الرزاق قال: اخبرنا محمد بن معمر عن ابن طاووس عن أبيه قال: كان ابن عباس يقول: وما يعلم تأويله إلا الله، ويقول الراسخون في العلم آمنا به»[١].

حدثني يوسف قال اخبرنا أشهب عن مالك في قوله (وما يعلم تأويله إلا الله) قال: ثم ابتدأ (والراسخون في العلم يقولون آمنا به) قال مالك: وليس يعلمون تأويله[٢].

حدثني يونس قال اخبرنا ابن وهب قال اخبرني ابن أبي الزناد قال: قال هشام بن عروة: «كان أبي يقول في هذه الآية: (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم) ان الراسخين في العلم لا يعلمون تأويله، ولكنهم يقولون: آمنا به كل من عند ربنا»[٣].

ويدل على صحة هذه الآثار، ما رواه الشهرستاني عن مالك واحمد والاصفهاني أنهم لم يتعرضوا للتأويل وقالوا:

«نؤمن بما ورد في الكتاب والسنة، ولا نتعرض للتأويل بعد أن نعلم قطعاً أن الله لا يشبه شيئاً من المخلوقات.

ويبرروا تورعهم هذا عن سلوك طريق التأويل هو أن التأويل أمر مظنون، أي لا يجزم المتأول بصحة ماذهب إليه، وقد تكون الآية تأوّلها على غير مراد الله فينطبق عليهم قوله تعالى: (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا).

---

١ ـ تفسير الطبري المجلد الثالث ص ١٢٢ وابن كثير ١/ ٣٤٧ وقال: «وكذا رواه ابن جرير عن عمر بن عبد العزيز ومالك أنهم يؤمنون به ولا يعلمون تأويله.

٢ ـ تفسير الطبري المجلد الثالث ١٢٢.

٣ ـ تفسير الطبري المجلد الثالث ص ١٢٢.

ثم قالوا: بل نقول كما قال الراسخون في العلم «كل من ربنا»، آمنا بظاهره وصدقنا بباطنه، ووكلنا علمه إلى الله». (١)

وهذا التورع عن التأويل يرد على القائلين قولهم إنما فهم الصحابة والتابعون آيات الصفات على خلاف مانفهمه نحن اليوم. وهذا غير صحيح لأن منهج التابعين هو منقول عن منهج الصحابة، وتورعهم هذا يدل على أن الطريق الذي هم عليه أخذوه عن الاوائل، وهو طريق واحد.

فهؤلاء هم أرسخ الناس علماً وأهداهم طريقاً وأبرهم قلوباً ومع ذلك فما تجرأ احد منهم أن يقول بأن أخذ القرآن على ظاهره كفر. أو أن آيات الله توهم التركيب والتجسيم، فإنَ من أتى بعدهم لن يكون اهدى منهم سبيلاً ولو صرخ على رؤوس المنابر بأنه من الراسخين،

لأن هؤلاء راسخون في العلم بشهادة أمة الاسلام كلها. ومع ما هم به من الرسوخ في العلم فإنهم تواضعوا لله وعرفوا أن علمهم هذا لا يوصلهم إلى معرفة الحقائق الأهية، ولم يتجرؤا على الله بنفي صفة له اثبتها لنفسه واستبدالها بصفة لم يثبتها لنفسه.

ومع ما هم به من الرسوخ في العلم فإنهم لم يعرفوا العرض والجوهر (وهما الوسيلتان اللتان يستعملهما الحبشي للاستدلال على وجوب الله وإمكان ماسواه)، ولم يتخذوهما وسيلتهم في التوحيد، فمن أتى بعدهم بهذه القواعد الجدلية فهو ليس بأعلم منهم بل هو مبتدع تكلف في الدين ما ليس منه.

فالشافعي واحمد ومالك عاشوا زمن الأهواء وعلموا أن هناك أقواماً يستدلون بالعرض والجوهر والمركب والحادث، ومع ذلك فلم يشاركوهم

---

١ - أنظر الملل والنحل للشهر ستاني ١/ ١٣٧ - ١٨٣ و ١١٨.

في ذلك، بل نهوا عنه أشد النهي واعتبروه من الكلام الذي ذمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن العلم الضار الذي استعاذ منه عليه الصلاة والسلام.

فقد ذم ابوحنيفة هذه العلوم وقال عنها بأنها من مقالات الفلاسفة، وكذلك الشافعي ومالك وأحمد. وقد روى ابن الجوزي عن ابن عقيل أنه قال بأن الصحابة ماتوا ولم يعرفوا هذه العلوم فمن كان يرى أن المتكلمين من اصحاب هذه العلوم أفضل من طريقة ابي بكر وعمر فبئس ما رأى».

حتى إن الغزالي قد ذم علم الكلام في عدة كتب له، ككتاب (فيصل التفرقة) و (إلجام العوام عن علم الكلام) و (المنقذ من الضلال).

وقد ذكر في كتابه المنقذ من الضلال، أنه تعلم علم الكلام وما رأى أنه يشفي عليلاً[٢] ولا يقوي حجة، ولا يشفي مريضاً».

وقال كذلك:

«فليت شعري، متى نقل عن رسول الله او عن الصحابة رضوان الله عليهم أن قالوا لمن جاءهم مسلماً:

الدليل على ان العالم حادث، انه لا يخلوعن الأعراض وما لا يخلو عن الحوادث حادث؟».[٣]

فهذا ممايدل على أن هذه القواعد لم تكن من منهج الصحابة ولا التابعين ولا من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. ولا من الراسخين في العلم.

---

١ ـ راجع فصل ذم الكلام وأهله.
٢ ـ المنقذ من الضلال ص ١٥ ط المكتبة الثقافية بيروت.
٣ ـ فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ص ٨٩ تحقيق د. سليمان دنيا.

فكيف يرضى العاقل أن يمشي وراء هذه القواعد التي زخرفها علماء الكلام للناس وسموها ب «علم التوحيد»؟

والتوحيد لا يعرف إلا من خلال هذا الدين الذي حطم الاصنام وأقام على انقاضها عبادة الله وحده.

فجدير بالمرء أن يثق بدينه بأنه هو الوحيد الذي حطم عقائد الوثنية وعبادة الاصنام ودحرها بعد أن كانت سائدة في العالم، فيكون بعد جديراً أن يتخذه كمصدر أساسي للتوحيد من دون باقي المذاهب اليونانية التي كانت في أوج فلسفتها وحضارتها غارقة في الوثنية من رأسها إلى أخمس قدميها.

والتوحيد الذي فهمه أولئك الراسخون في العلم كان مصدره هذا الصراط المستقيم (كتاب الله) ومع ان قسماً منهم عاصروا هذه القواعد والمقاييس الجدلية والمسماة بـ «علم التوحيد» فانهم لم يأخذوا منها شيئاً بل قد ثبت ذمهم لها ونهيهم الناس عن تعاطيهم مما يدل على أن هذه الطريقة ليست توحيداً بل هي ضلالة مزخرفة فليس من صفات «الراسخين في العلم» الإتيان بالتوحيد ممن لم يعرفوا الله ولم يقدروا حقيقة توحيده.

التأويل في اللغة

إن الخلاف في قضايا التأويل بين أهل السنة وبين المتأولة لا يقتصر على تلك التأويلات التي تأولها المتكلمون لكتاب الله، وإنما نشأ الخلاف في أصل الكلمة ومفهومها لدى كل من الفريقين.

فالتأويل عند السلف ليس هو ذاك التأويل الذي عند المتكلمين. إذ أن المسّبب للصراع هو مفهوم هذه الكلمة لا نتائجها.

والآيات التي جاءت فيها كلمة «تأويل» تختلف تماماً عن التأويل الذي يفهمه المتكلمون، وسنفصل هذا بعدُ ان نبين المعنى اللغوي لكلمة التأويل في معاجم اللغة.

التأويل في معاجم اللغة

فلقد فسر الأزهري[١] كلمة «الأَوْل» بمعنى الرجوع والعود. ناقلاً هذا المعنى عن ثعلب وإبن الأعرابي، وقد آل يؤول أوْلاً»[٢].

وتهذيب اللغة للأزهري هو من أقدم ما نجده في معاجم اللغة العربية، ومع هذا فلا نجد فيه ذلك المعنى الذي أدى إلى استباحة التأويل عند المتكلمة.

وكذلك فإننا نرى بأن «مقاييس اللغة» لإبن فارس [٣] المتوفي سنة (٣٩٥ هـ) أن الرجوع والعود هي معنى كلمة «أوْل»، ولا يخالف في معجمه ما نقله إلينا الأزهري في تهذيبه. قال إبن فارس:

«قال يعقوب: أوّل الحكم إلى أهله: أي أرجعه ورده إليهم.

وقال إبن فارس: وأما تأويل الأمر فآخر الأمر وعاقبته، يقال مآل هذا الأمر؟ أي مصيره وآخره وعقباه وآل جسم الرجل إذ نحف، أي يرجع إلى تلك الحالة، ثم قال: ومن هذا الباب تأويل الكلام وهو عاقبته وما يؤول إليه، وذلك قوله تعالى: (هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه قد جاءت رسل ربنا بالحق) يقول: ما يؤول إليه في وقت بعثهم ونشورهم أي مصائر الأمور وعواقبها.

---

١ ـ أبو منصور محمد بن أحمد، المتوفي سنة (٣٧٠هـ) صاحب «تهذيب اللغة».
٢ ـ تهذيب اللغة، مادة «أوْل» ١٥/ ٤٣٧ تحقيق ابراهيم الأبياري.
٣ ـ مقاييس اللغة، مادة «أوْل» ١/ ١٥٩ تحقيق عبد السلام هارون.

فهذا ما يدل على أنه لا اختلاف على فهم كلمة التأويل في عهد الأوائل، وهذان المعجمان هما أقدم ما بين أيدينا من معاجم اللغة.

وحتى لو عدنا إلى «لسان العرب»[1] لابن منظور، المتوفي سنة ٧١١ هـ، لوجدنا أنه لا يختلف عن المعجمينْ المسابقينْ اللذين بينا مفهوم التأويل لغةً عندهما. فقد توسع أبن منظور في توضيح هذا المعنى، ويستشهد بكثير من الأمثلة والاستشهادات ما يؤيد هذا المعنى لكلمة التأويل وهو الرجوع والعود.

فمن أمثلته واستشهاداته قوله: «ألتُ عن الشيء. أي إرتددت عنه». وفي الحديث: (من صام الدهر فلا صام ولا آل) أي: لا رجع إلى خير. وقوله عز وجل (ولما يأتهم تأويله) قيل معناه: لما يأتهم ما يؤول إليه أمرهم في التكذيب به من العقوبة.

وفي حديث أبن عباس: (اللهم فقهه في الدين وعلمه والتأويل)[2] وأوّله وتأوله: فسره.

وعن الليث قال: «التأويل تفسير ما يؤول إليه الشيء».
وأبو عبيدة قال: «التأويل: المرجع والمصير».

فأما الرجوع والمصير فهو كقوله تعالى: (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلاً) أي أن أي خلاف في مسألة ما يقع للمؤمنين يجب أن يرجعوا في

١ ـ لسان العرب، مادة «أوْل» ط المطبعة الأميرية ١٣/ ٣٣، ومحيط المحيط ط الأمريكانية بيروت ١/ ٥١ مادة «أوْل».

٢ ـ الإصابة ٤/ ٩١، فتح الباري ١/ ١٥٥، وطبقات ابن سعد ٢/ ٣٦٥، وابن كثير ١/ ٣٤٧ وفي معجم البغوي من طريق داود بن عبد الرحمن، عن زيد بن أسلم وفي مسلم «اللهم فقهه» ٤/ ١٩٢٧.

خلافهم إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، وذلك كقوله تعالى: (وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله) أي ماله ومرجعه إلى الله. ومن ذلك قول يوسف لأبيه (يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل) أي هذا تفسير رؤياي التي رأيتها وحقيقتها.

وكذلك فإن العمل بذليل الأمر هو تحقيق الأمر كالقول بأن «السنة هي تأويل الأمر». وهذا ما نراه من فعل النبي ﷺ، كقول عائشة بأن الرسول ﷺ كان يقول في سجوده من الليل (سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم إغفر لي) يتأول القرآن». أي يتأول قوله تعالى (فسبح بحمد ربك واستغفره).

وكقول النبي ﷺ في قوله تعالى (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض) قال: أنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد

وقد قال تعالى (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) قال إبن جرير الطبري: «ولما يأتهم بعد بيان ما يؤول إليه ذلك الوعيد، الذي توعدهم الله به في هذا القرآن، بل كذبوا به قبل أن يفهموه»[1]. وقال عن قوله تعالى (وابتغاء تأويله) قال: «أرادوا أن يعلموا تأويل القرآن وهو عواقبه، قال الله (وما يعلم تأويله إلا الله) وتأويله عواقبه»[2]. ثم قال: «وأما التأويل في لغة العرب: فإنه التفسير والمرجع والمصير[3].

أما التأويل في عرف المتأخرين، فهو مخالف تماماً لكلمات التأويل الواردة في القرآن، ومخالف لما أثر عن السنة، ومخالف لما حكيناه عن الصحابة من فهمهم لكلمة التأويل.

---

١ ـ تفسير ابن جرير الطبري ١٥/ ٩٣.
٢ ـ تفسير ابن جرير الطبري ٣/ ١٢١.
٣ ـ تفسير ابن جرير الطبري ٣/ ١٢٣.

وهنا نقطة الخلاف بين من أراد معرفة الكلمة حسب فهم السلف لها، وبين من أراد فهمها على طريقة الخلف الذين خالفوا سلفهم في فهمها.

مفهومها عند المتأخرين هو: صرف الآية عن معناها الظاهر إلى معنى مرجوح لدليل يقترن به.

ونجد هذا المفهوم موجوداً في كتب المتأخرين من كتب الأصول والفقه. وأصبح هذا التعريف من الشهرة بحيث تنوسي أو تجوهل التعريف الأول الذي ورد في معاجم اللغة المتقدمة، وما عرف من كلام الصحابة والتابعين. واستطاع المعنيون بالتأويل من رجال الأصول وعلماء الكلام، أن يفسحوا لهذا المعنى الحادث مجالاً في القواميس اللغوية المتأخرة، التي دونت بعد القرون الثلاثة الأولى.

كقول السبكي في جمع الجوامع: التأويل حمل الظاهر على المحتمل المرجوح لدليل يقترن به[1] وكذلك نجد هذا في كتب علم الكلام كالرازي في «تأسيس التقديس»، وعند الغزالي في «فيصل التفرقة» والجويني في «الأرشاد» و «الشامل» وعند إبن رشد في فصل المقال[2].

وهذا النوع من الإصطلاح لم يكن معروفاً عند السلف. لأن التأويل عند السلف معناه إثنان.

١ ـ الأول بمعنى المآل والعاقبة والمرجع.

٢ ـ الثاني بمعنى التفسير والتدبير أو البيان وحسن تقدير الأمور، وهو ما دعا به الرسول ﷺ لإبن عباس رضي الله عنه.

---

١ ـ حاشية البناني على جمع الجوامع ٢/ ٤٦ ط المصرية.

٢ ـ عن كتاب «ابن تيمية وقضية التأويل» للجليند ٤٦.

وجدير بنا أن نقف عند دعاء الرسول ﷺ قليلاً لنبني أمراً مهماً وهو:

إن إبن عباس قد حصل على هذا الدعاء العظيم من رسول الله ﷺ فلو كان مفهوم التأويل بالمعنى الذي يفهمة المتكلمون لكان إبن عباس أحق بالتأويل الذي يتأولونه من المتكلمين أنفسهم، ولكان سبقهم إلى هذه التأويلات لكتاب الله، كتأويل اليد بالنعمة والقدرة، والإستواء بالإستيلاء، والقدم أي جماعة من الناس أو ظاهرها أو قدم صدق، وهذا ما لم يحصل، إذ لم نسمع أن إبن عباس قد تأول آية بأن صرف ظاهرها التي هي عليه إلى معنى آخر يخالفه. علم عندئذٍ أن التأويل عند المتأخرين من المتكلمين والفلاسفة يخالف التأويل الذي أراده الرسول ﷺ لإبن عباس حين دعا له بهذا الدعاء.

فما علم عنه أنه أتى ولو بتأويل واحد من تأويلات أولئك المتكلمين، وهو الأولى منهم. فهذا بيان واضح على أن التأويل الذي فهمه السلف من رسول الله في الدعاء هو تفسير كتاب الله، وقد تحقق هذا الدعاء فأصبح حبر هذه الأمة، ونقل عنه الكثير من تفسيره نقل ذلك عنه إبن جرير الطبري وإبن كثير. لكن، ما نقل عنه شيء من هذه التأويلات التي عند المتكلمين.

بل إن هناك صحابياً آخر كان من أعلم الناس بكتاب الله، وهو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، يدل على ذلك قوله: «لو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لأتيته»[1].

وقد نقل عنه من التفسير ما لم يحصه إلا الله، ومع هذا فلم نجد من تفسيره ما يوافق به تأويلات المتكلمة والفلاسفة، بأن الاستواء هو

---

١ ـ رواه البخاري ٦/ ١٠٢، القرطبي ١/ ٣٥، ابن كثير ١/ ٣.

الاستيلاء، أو أن اليد هي النعمة القدرة وغير ذلك، بل كل تفسير أثر عن الصحابة رضي الله عنهم هو مخالف لما جاء به أولئك المتكلمون دل هذا على أن الصحابة قد فسروا كتاب الله كله، وعلموا كتاب الله كله، ولم يقل أحد منهم يوماً أن هناك ظاهراً في كتاب الله يجب صرفه إلى معنى آخر مخالف له.

فها هو إبن عباس يقول: «كل القرآن أعلم إلا أربعاً: غِسلين، وحناناً، والأواه، والرقيم»[1].

وقد أخذ التابعون تفسير القرآن عن الصحابة كما قال مجاهد: «عرضت المصحف على إبن عباس من أوله إلى آخره أوقفه عند كل آية منه، وأسأله عنها» وفي رواية: «عرضت المصحف على إبن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته»[2].

وكتب التفسير مليئة بما هو منقول عن مجاهد وإبن عباس وإبن مسعود والثوري وحماد والربيع وإبي العالية، ولم يؤثر عن واحد منهم ما نسمعه اليوم من المتكلمين المتأولين بأن الاستواء هو الاستيلاء أو القصد، وأن اليد هي بمعنى القدرة، وان النزول هو نزول الأمر فما مخالفة المتكلمين لأولئك الأفاضل من الصحابة والتابعين إلا أحد الأمرين:

١ - إما أنهم قد أوتوا علماً بالتأويل لم ينله الصحابة (مع أن الرسول قد دعا الله لإبن عباس أن يعلمه التأويل ولم يدع مثل هذا الدعاء لأفراخ الفلاسفة وتلامذتهم) فيكونوا أهدى منهم سبيلاً!

٢ - وإما أنهم اقتحموا باب العبث بكلام الله والإلحاد في آياته لا لجهلهم بالتفسير وإنما (صوغوا هذه التأويلات) لتطابق مذاهبهم وآراءهم

---

١ - أخرجه السيوطي في الإتقان ١/ ٩٦ عن الفريابي، وابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن ٩٩.
٢ - الطبري ١/ ٣١، ابن كثير ١/ ٤.

فقالوا بصرف الآيات عن ظواهرها لدليل مرجوح، والدليل المرجوح عندهم هي تلك القواعد المأخوذه عن فلاسفة اليونان، لأنها موثوقة عندهم ولا جدل في صحتها، فنسبوا إلى ظاهر الآيات الباطل وتوهم التشبيه وقالوا في كتاب الله ما قالوا مما دعاهم إلى هذا التأويل الذي لم يلمح به واحد من الصحابة أو التابعين.

والحاصل أن هذه المخالفة لها شواهد تبين مخالفتها لمعاني التأويل التي في كتاب الله، ومخالفتها لفهم الرسول ﷺ لهذه الكلمة، والصحابة من بعده وكذلك مخالفتها لأئمة الفقه واللغة كالأزهري في تهذيبه وإبن فارس في مقاييسه وغيرهما.

وكذلك أبو عبيدة معمر بن المثنى (المتوفي ٢١٠ هـ) وهو من علماء اللغة والتفسير الذي أشار إلى أن التفسير والتأويل على معنى واحد[١] وهما المصير والعاقبة».

ثم إننا نرى أن إبن جرير الطبري يقول عند تفسيره لكل آية: «القول في تأويل هذه الآية كذا، وكذا»، فهل يعني ذلك أن إبن جرير اعتبر القرآن كله من المتشابه فخاض في تأويله على مثل ما فعله المتكلمون؟

فهذ «تأويلات» إبن جرير الطبري بين أيدينا تدل على أن معنى قوله «وتأويل هذه الآية» بمعنى تفسيرها وبيانها لأنه ما زاد على التفسير ونقل أقوال الصحابة والتابعين.

وعلى هذا يمكننا أن نجمل هذه المعاني اللغوية في التأويل في معنيين هما: الرجوع والمصير، والتفسير والتدبر.

---

١ ـ مقدمة مجاز القرآن ١/ ١٨، والسيوطي في الإتقان في علوم القرآن ٢/ ١٧٣.

أما التأويل الذي يبعد النص عن مفهومه الصحيح ومقصد الشارع فيه فإنه لم يكن معروفاً عند الصحابة، بل ولا التابعين، ولا الأئمة الأربعة، ولم يقل أحد منهم بأن الله أنزل آيات مخالفة لمراده، أو أنه يقصد غير الوجه الظاهر منها وهل يحاسب الناس على عدم علمهم بالمرد الباطن المخالف للتنزيل الظاهر يوم الحساب؟ وكيف يحاسبهم وهو لم يبيّن ذلك لهم لا عن طريق رسوله ولا صحابته بل عن طريق أهل الجدل والكلام؟

فكيف تنطلي هذه الحيلة على الناس؟ أو ليس الله تعالى يقول (تلك آيات القرآن وكتاب مبين، هدى وبشرى للمؤمنين)

وكيف يكون القرآن مبيناً ثم تكون فيه آيات ليست مبينة بل هي سبب خلاف الأمة، لأن فر ق المتكلمين اجتمعت على أن ظاهرها غير مراد واختلفوا على ما ذهبوا إليه من التأويل!!...

إن الله تعالى أنزل كلامه بياناً وهدى فإذا أراد به خلاف ظاهره ولم يعط قرائن تدل على أن المعنى المفهوم من ظاهر عكس الآية المراد لم يكن بياناً ولا هدى ولم يكن له حجة عليهم لو سألهم عن عدم التزامهم بهذه التأويلات التي أتى بها المتكلمة!

بل هذا يعني أن الطريق التي أتى بها المتكلمون لتلك المعاني المخالفة لظاهر الآيات، هي أهدى من كتاب الله سبيلاً، لأنهم بينوا وأرشدوا العباد إلى ما لم يبينه الله تعالى ولم يهد به العباد.

لذا فإن للتأويل آفاق بعيدة، وعواقب خطيرة. لا تقتصر على مخالفة النص فقط بل تكون نتائجها إتهام الله تعالى بأنه لم يبين ولم يوضح ما أوضحه الفلاسفة. لذا فإنهم أرادوا تنزيه الله عن التشبيه فأوقعوه في الجهل والنقص عن الإفصاح. وبلاغة التعبير. مع أن القرآن قد انبهر به أفهم الناس بلغة العرب ووقفوا أمام آياته مندهشين لهذه الفصاحة وهذا التعبير

الذي لم يسمعوه من أحد، بل أكثر من هذا... أنه تحداهم بأنهم لن يملكوا أن يأتوا بكلام من مثله، وبقي التحدي طوال حياتهم فحاربوا الاسلام وقاوموا ابناءه، ونكلوا وعذبوا، لكن بقوا طيلة حياتهم عاجزين أن يأتوا ولو بآية واحدة. أو يكون هذا البيان العظيم وهذا الكتاب المبين بعد ذلك بحاجة إلى تلاميذ اليونان وأبناء المتفلسفة ليبينوا ويوضحوا ما استعجم من كتاب الله؟...

بل إن المتأولة لم يستفيدوا بتأويلاتهم هذه إلا تعطيل حقائق النصوص.

ومع أن المتأخرين اتفقوا على صرف المعنى الظاهر إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به، فإنه حينما فتح باب التأويل إندفع المتكلمون لصرف معاني القرآن الظاهرة إلى معانٍ يرتأوها من غير أن يقرنوا تأويلاتهم بأي دليل.

فنفوا عن الله ما يليق به من الصفات، واثبتوا له ما لا يليق به من الصفات وخاضوا فيها أشد الخوض وما أتى أحدهم بدليل صحيح يقترن مع ما تأولة.

ففتح عندئذٍ باب التأويل على مصراعيه، وأوّل كل منهم آيات الله بحسب ما تقتضيه قواعده ومقاييسه فضرب الدين ولطم اللغة وما أفاد علماً وما نفع عباد الله، بل كان سبباً في فتنتهم عن دينهم وتفرقتهم إلى شيع وأحزاب.

ثم إن الله تعالى يقول: « (وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبيّن لهم مايتقون) [التوبة ١١٥].

فهذه الآية صريحة الدلالة على أن ضلال البشر لايحصل إلا بعد أن يهديهم الله إلى طريق الحق ويحذرهم من طريق الباطل، ويبين لهم كذلك سبل الهداية التي تقيهم ـ إن سلكوها ـ سبل الضلالة.

والله سبحانه لم يبين لنا قواعد المخالفة عن الحوادث ولا بيّن لنا أن ما لايخلو عن الحوادث فهو حادث وأن العرض ملازم للجوهر الخ . . . من قواعد المتكلمين . . . وعلى زعم المتكلمين - يكون الله قد أنزل من الصفات ما يضل به البشر، ثم لايبين لهم مايتقون به هذه الضلالة ويكون كذلك قد أخفى عنهم هذه القواعد الفلسفية التي تقيهم من الوقوع بالتشبيه والمماثلة، فهل إخفاؤها على الناس بسبب ان الله لم يبيّنها لهم هو ضلال؟ وكيف يكون كتاب الله بعد ذلك بياناً وهدى وهو لم يبين لهم مايتقون، ولم يهدهم الى طريقة المتكلمين التي يزعم المتكلمون أن «بهذه الطريقة» يهتدي الناس الى التوحيد؟

بل يكون المتكلمون عندئذٍ هم البيان وهم الهدى، بل هم أبين وأهدى من كتاب الله وأحرص على الأمة من نبيه محمد ﷺ لأنهم بينوا للناس وحذروهم مما لم يبينه الله ولا رسوله، ومالم يحذر الله منه ولا رسوله من قبل.

فهل هناك افتراء على الله ورسوله اعظم من افتراءات أولئك الذين تكلفوا علم مالم يبينه الله ورسوله؟ . . .

وهل يرضى عاقل أن يقول بأن هذا الدين الذي كانت ركيزته الاولى وركنه الأول هو التوحيد، يتناسى كل هذه القواعد التي يقول عنها الحبشي والمتكلمون من قبله بأنها هي التوحيد وهي التنزيه؟

لقد ربى هذا القرآن الصحابة ومن اتبعهم بإحسان من الاجيال الثلاثة الاولى رباهم على التوحيد المحض، فما عرفنا أحداً ألزم بالتوحيد منهم ومع ذلك فانهم لم يفهموا التوحيد المحض إلا من كتاب الله ولم يحتاجوا إلى أقيسة الفلاسفة والى توحيد المشركين. علم عند ذلك أن القرآن هو الطريق الوحيد في تنزيه الله وإثبات الكمال له مما يغني عن غيره.

والحاصل أن هناك كثيراً من المسائل والامور التي نراها ونلمسها لايجوز الإجتهاد والخوض فيها بالرأي، فكيف يجوز الخوض بالرأي والجدال فيمن ليس كمثله شيىء، ومن لم نره ولم نعلم عن حقائق ذاته وصفاته شيئاً؟..

وكيف يجوز عند ذلك تأويل ما أمرنا الله أن نؤمن به بحجة أن ظاهر ما أتانا الله به يوهم التشبيه؟..

ألا يدل معنى ذلك على أن الله سبحانه قد أضل بكتابه بعض الناس من العوام الذين توهموا التشبيه من خلال تلك الآيات؟ وكيف يكون هذا، والله تعالى قال لنا بأنه لا يضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم مايتقون، فكيف يضلهم قبل أن يبين لهم مايتقون به التشبيه؟ أو ترون عاقبة مبادئكم الفاسدة؟!.. إن مآل كلامكم يؤدي الى تنزيه قواعدكم لا تنزيه الله! بل رميه بالنقص.

وقد قال تعالى عن كتابه (وفصلناه تفصيلا) (ولا يأتونك بمثلٍ إلا جئناك بالحق واحسن تفسيرا) فعلى كلام المتكلمين من المتأولة، فإن الامثال التي جاءوا بها هي الحق وهي الأحسن تفسيراً، لأنهم انقذوا بأمثلتهم هذه الأمة من خطر آيات الله، وأنجوها من الوقوع في ضلالة التشبيه الظاهرة من آيات الصفات التي وصف الله بها نفسه، إني أسأل بعد هذا، كل ذي قلب حي: ألا يودى كلامهم إلى المعنى هذا؟

تعظيم القول في التفسير

لم يجرأ أحد في زمن الصحابة أن يتأول كتاب الله على سجيته، ولا أن يقول فيه ما يقوله المتكلمون في زمن الأهواء.

ولم يكن هذا منهج الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان، إذ علم عنهم أنهم كانوا يعظمون القول في التفسير.

ان تفسير كتاب الله بمجرد الرأي حرام قطعاً، لما روى ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال: «من قال في القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار[1]»

وقال عليه الصلاة والسلام: «من قال في القرآن برأيه فقد أخطأ» وفي لفظ: «من قال في كتاب الله برأيه فأصاب فقد أخطأ».

قال ابن كثير بعد روايته لهذا الحديث: «أي لأنه قد تكلف ما لا علم له به وسلك غير ما أمر به، فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ لأنه لم يأت الامر من بابه[2]»

وقال ابوبكر رضي الله عنه: «أي أرض تقلنّي، وأي سماء تظلني إذا أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم».

---

١ ـ أخرجه الترمذي والنسائي من طرق عن سفيان الثوري به ورواه أبو داود عن مسدد عن أبي عوانة عن عبد الأعلى به مرفوعاً وقال الترمذي: حديث حسن، وهكذا رواه ابن جرير.
٢ ـ تفسير ابن كثير ١/ ٥.

وقال ابن شوذب: حدثني يزيد بن أبي يزيد قال: «كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام وكان أعلم الناس، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت كأن لم يسمع».[1]

وكذلك روى ابن كثير عن ابن جرير الطبري قال: حدثني احمد بن عبدة الضبي، حدثنا حماد بن زيد حدثنا عبيد الله بن عمر قال: لقد ادركت فقهاء المدينة، وإنهم ليعظمون القول في التفسير[2].

وعن هشام بن عروة قال: «ماسمعت أبي يؤوّل آية من كتاب الله قط».[3]

فهذه الآثار وغيرها دالة على تحرج السلف رضي الله عنهم عن الخوض في آيات الله وعن التكلم في التفسير بما لا علم لهم به.

وما علم عنهم إلا كل تعظيم لكتاب الله وتقدير لشأنه،

والتّقول على الله، والعبث في كلامه ليس بالشيء السهل أبداً، فان خروج الكلام من الفم سهل جداً، وأما دخول النار بسبب ذلك فصعب جداً، وما أظن أن أحداً منا يقوى على لمس عود مشتعلة من الكبريت، فما باله يقتحم حدود الله ويجترىء على آياته ولا يبالي بنار أحمي عليها ثلاث آلاف من السنين حتى اسودت فهي سوداء قاتمة!!..

ولقد توعد الله الملحدين في آياته فبيّن أنهم ملقون في النار، وهذه عاقبة كل من يتعد حدود الله ويلحد في آياته بسبب معادلات رياضية ورثها من صابئة اليونان اضطرته أن يقولب بحسبها كتاب الله وأحاديث

---

١ ـ تفسير ابن كثير ١/ ٦.
٢ ـ وروى ابن جرير الطبري هذا الكلام عن أحمد بن حنبل ١/ ٢٩.
٣ ـ ابن كثير ١/ ٦.

رسوله ﷺ قال تعالى: «إن الذين يلحدون في آياتنا لايخفون علينا، أفمن يلقى في النار خير أمّن يأتي آمناً يوم القيامة، إعملوا ماشئتم إنه بما تعملون بصير» .(١)

وقال جل شأنه.

«ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون» .(٢)

وقال الامام عبد الله بن قتيبة:

«وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون، ولغوا فيه وهجروا، واتبعوا (ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) بأفهامٍ كليلة، وأبصار عليله، ونظر مدخول، فحرفوا الكلام عن مواضعه، وعدلوه عن سبله! .

ثم قضوا عليه بالتناقض، والاستحالة، واللحن، وفساد النظم، والإختلاف(٣)

قلت: وهذه هي المصيبة أن متكلمينا يبثون الشبهة من كتاب الله، فيظهروا للناس التعارض فيه، ثم يعرضوا أنفسهم للناس على أنهم يوفقون ما يتعارض وما يتناقض من كتاب الله بزعمهم، فيستبيحوا لانفسهم التأويل والتلاعب بكتاب الله. فان قال أحد (الرحمن على العرش استوى) قالوا (وهو معكم أينما كنتم) فإن قال (ويبقى وجه ربك) قالوا (أينما توّلوا فثم وجه الله) فإن قال (ءأمنتم من في السماء) قالوا (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد). وهكذا يضربون آيات الله بعضها ببعض، ويمضوا في متابعة ما يتوهمون انه يتعارض ليبثوه بين العوام وضعاف

١ ـ فصلت ٤٠ .
٢ ـ الأعراف ١٨٠ .
٣ ـ تأويل مشكل القرآن ص ٢٢ .

النفوس، فيرغبونهم بعد ذلك بطريقة التأويل ويغرونهم بها على أنها تقضي على هذا التعارض.

وهذا مانهى الرسول صلى الله عليه وسلم عنه بقوله: فلا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، إنما جاء هذا الكتاب ليوافق بعضه بعضاً، ما علمتم منه فقولوا، وما لا فكلوه إلى عالمه».

وقال: «فاذا رأيتم الذين يتبعون ما بشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم.[1]

لو كان من عند غير الله

إن أعظم ميزة في هذا الذي نتلوه صباح مساء، ويتلى في المساجد عند كل صلاة، إن أعظم ميزة فيه أستحاله التناقض والتعارض فيه، فالله تعالى يقول: (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً»[2] مع هذا فان اعداء الإسلام من الشيوعيين والنصارى واليهود وغيرهم يثيرون الشبهات حول كتاب الله وينتقون منه ما يوهمون به الناس أنه تناقض وتعارض، زرعاً للفتنة وبثاً للمرض في قلب المسلمين، وتشكيكاً لهم بدين الله.

وجماعة المتكلمين يشابهون هؤلاء في أنهم يتبعون ما تشابه من كتاب الله ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، ولا أقول بأن مبتغاهم في ذلك ضرب الإسلام عن قصد وتصميم، لكن ما يفعلونه صادر عن هوىً في نفوسهم، ووراء هذا الهوى شيطان مريد يتربص بالمؤمنين الدوائر، وينتهز الفرصة

---

١ ـ أنظر تخريج الحديثين في فصل (ذم الكلام).

٢ ـ النساء ٨٢

والفرصتين ليحقق ما وعد الله به في قوله (فبعزتك لأغوينهم أجمعين)[1] فهو في عمل دائم وجهد غير منقطع حتى يرى بني آدم يشاركونه المصير يوم القيامة، ويحشرون معه في نار جهنم، وعلى هذا فهو لا يكل ولا يمل إلى أن ينجز الوعد الذي قطعه على الله.

التوفيق بين التعارض

ويرى الحبشي أن أخذ الآيات على ظاهرها يسبّب التعارض، لأنك لا تستطيع القول بأن الله في السماء (أأمنتم من في السماء) وأنه (معكم أينما كنتم) فهذا عند الحبشي من التعارض الذي يحتاج إلى تأويل ليتم التوفيق بين ما يتعارض.

وفي الحقيقة فإنه هو الذي يتناقض ويتخبط فإنه أقر أول الأمر بأننا نؤمن بكل صفة وصف الله بها نفسه وإن كانت توهم «الجسمية» فإنها يؤمن بها مقرونة بالتنزيه وعلى الوجه اللائق بالله سبحانه[2]». فنقول: عندئذٍ لا يجور التأويل والتلاعب بآيات الصفات مادمنا نقطع أن صفات العين واليد وغير ذلك. هي من الصفات اللائقة به سبحانه، مع عدم مماثلتها ومشابهتها لعين ويد المخلوقات، ولا تعود بذلك هناك أية حاجة للتأويل مادام إثبات صفات الله مقروناً ب (ليس كمثله شيء).

لكن . . . ما أن انتهى الحبشي من هذه الجملة إلا وعاد فناقض نفسه بأن قال في الجملة التي تليها:

«وقد يؤول ذلك لأجل صرف العامة عن الجسمية»[3]

---

١ - ص ٨٢.

٢ - الدليل القويم ص ٤٧.

٣ - نفس المصدر.

وهذا من التناقض!، فإما أن تؤمن بالآيات التي توهم «عندك» «الجسمية» وتثبتها وتقطع بأنها ثابتة على وجه يليق بالله وأنه (ليس كمثله شيء).

وإما أن تصرف الآيات عن دلالتها وعن مراد الله لها، وتشتغل فيها تأويلاً وتعطيلاً كي لا يضل بظاهرها العامة من الناس ويقعون في التشبيه بسببها.

فمن عند من هذا التناقض؟ أهو من عند الله أم عند غيره؟

أهو من كتاب الله، أم من مناهج المتكلمين الجدليين، الخائضين في آيات الله وفي صفات الله، والذين أكثر كلامهم المزيد من التردد والتخبط والتنقل من رأي إلى آخر، فيقول الواحد منهم قولاً في موضع ويتناقض ما قاله في موضع آخر، ويقول القول في سطر ما في الصفحة الفلانية من كتابه ويناقض ما قاله على السطر التالي، بل وربما على نفس السطر.

أما عن القول بأن «الكلام هو من ضروريات الدين لما فيه من التنزيه عن الجسمية» فهذا تلبيس على الناس، لأن مناهج المتكلمين تعتمد على طريقة «التأويل التعطيلي» من أجل التنزيه عن مماثلة الله لمخلوقاته، ولا يحتاج إلى مثل هذه الطريقة ومثل هذا المنهج، لأن (ليس كمثله شيء) تؤدي إلى التنزيه مع إثبات الصفة ولا يحتاج معها إلى نفي وتعطيل.

ولم تكن هذه الضرورة مطلوبة في عهد الصحابة ولا التابعين بل قد ثبت عمن عايش زمن المتكلمين منهم ذمه للكلام.

وما كانت نتيجة الكلام إلا التردد والتناقض والتنقل من رأي إلى آخر. وغاية هذا الأمر، إنما هو يتطلب إحسان الظن بنصوص كتاب الله،

---

١ ـ لفظ التجسيم هو لفظ مبتدع لم يرد من كلام صحابة ولا تابعين ونحن لا نورد هذا اللفظ إلا من قبيل نقل كلامه.

في إثباتها مع إقرانها بـ (ليس كمثله شيء) فاذا وردت صفة اليد لله تعالى نقطع بأنه ليست كسمع وبصر وكلام وارادة وعلم المخلوقين.

وهذا مطمئن للنفس ينشرح الصدر له، فالإثبات مع التنزيه هو المطلوب.

أما التأويل فإنه أمر لا ينشرح له الصدر، ولا يمكن للمؤول أن يطمئن إلى ما يتأوله، وهذا ما يدعوه دائماً إلى التردد ومناقضة القول الثاني للقول الاول، لأن التأويل أمر مظنون بالإتفاق، أي لا يقطع المتأول بأن الآية التي تأولها على خلاف ظاهرها، هي ما يريده الله تعالى وهذا قول احمد ومالك والاصبهاني وغيرهم[1] وحتى الحبشي فإنه يثبت بأن التأويلات التي يتأولها هي من باب الإحتمال لا من باب القطع والجزم بأنها هي مراد الله، فيقول:

«وقد يؤول كل ذلك لأجل صرف العامة عن الجسمية» على وجه أنه يحتمل أن يكون المعنى المراد لله ورسوله بتلك النصوص لا على الجزم والقطع بأنه هو المراد[2]

فهذا ما يدل على أن طريق التأويل محفوف بالمخاطر والمهاوي لأن المتأول لا يستطيع الحزم والتأكيد بأن ما تأوله كان على مراد الله له.

فأي حكمة في هذه الطريق المخيفة، والتي ربما أودت بصاحبها إلى سخط الله وغضبه إن كان التأويل للصفة الفلانية التي لله عز وجل، مخالفاً لما أراد أن يمتدح بها نفسه. ولماذا تفضل طريق التأويل المهلكة، على طريق الإثبات لما أثبته الله لنفسه من الصفات، مع إثبات ما أثبته الله من

---

١ ـ الملل والنحل ١/ ١١٨ و ١٣٨ ـ ١٣٩ للشهرستاني.
٢ ـ الدليل القويم ص ٤٧.

التنزيه، كإثبات الإستواء مع القطع والجزم بأن الفرق بين استواء الله واستواء المخلوقين كالفرق بين ذات الله وذوات المخلوقين.

لقد سلك السلف هذا الطريق الأسلم، ولو لا حكمتهم وعلمهم لم اختاروها وفضلوها على طريق المهاوي والمخاطر المليئة بالتأويل، والتي يسميها بعض الجهال بطريق الحكمة، إذ إن الحماقة . . كل الحماقة في سلوك الطريق التي لا تضمن السلامة لسالكها.

فائدة مهمة

أما القول بأن الأخذ بظاهر آيات الصفات هو تشبيه وكفر، فهذه دعوة صريحة الى الكفر بآيات الله، والإعراض عن كلام الله، لتوجيه المدعو إلى كلام الفلاسفة والمتكلمين، (فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون[1]).

وليس هذا ما أمرنا الله به، وإنما أمرنا أن نؤمن بآياته، ومن ضمنها الآيات التي وصف الله بها نفسه، لأن الله أثبت الصفات التي تليق به، وأنزل كذلك التنزيه الذي يليق به فقال (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير).

وهذه الآية وحدها تبطل كل قواعد الفلاسفة اليونان وأبنائهم المتكلمين، التي استغرق جمعها وتأليفها عندهم مئات السنين.

وتلك هي الحرب الدؤوب بيننا وبينكم، إذ أنكم تريدون إثبات أنه لا غنى للمسلمين عن طريقتكم مما يصرفهم عن مماثلة الله بخلقه، ونحن نثبت لكم أن وجود آيات التنزيه في كتاب الله تكفيهم وتغنيهم عن أي

١ ـ الجاثية ٦.

طريقة أخرى، وخاصة عن طريقتكم التي ما تلبث أن تفتح باب تنزيه حتى تفتح معه باب تعطيل.

وقولكم بأن الاخذ بظاهر هذه الآيات هو باطل، فإن في ذلك حجة لأبناء الأديان الأخرى عليكم.

فيقول لكم النصارى: انتم تزعمون أن في الاناجيل أخطاء وتناقضات كثيرة، وهذا ليس بصحيح إذ أن ظاهرها يوهم ذلك، كما أوهم ذلك عندكم في القرآن. وكما أنكم تأولتم ماكان ظاهره باطلاً في القرآن، فكذلك للأناجيل عندنا تأويلات تبطل ما توهمتموه بأنه خطأ وتناقض.

وكذلك يحتج اليهودي والبوذي والقرمطي، والباطني.

فيقول الباطني أنا تأولت الصوم والصلاة والزكاة والحج على غير ظاهرها لأنه بدا لي أن ظاهرها غير مراد، كما بدا لكم أن ظاهر آيات الصفات غير مراد، فتأولت الصلاة على أنها موالاة الإمام، والحج بالقصد الى الإمام، والصيام بإمساك سر الإمام[1] فلماذا كفرتموني وزعمتم أنني أسقطت بالتأويل التكاليف الشرعية، مع أنكم تأولتم آيات الله، واسقطتم ما طلب في كتابه فإن قلتم نحن تأولنا ذلك بدليل، قيل لكم: أنكم معترفون بأن التأويل أمر ظني لا يفيد اليقين والجزم، فيبقى دليلكم قائماً على الظن. يتابع الباطني قائلاً: فأنا ألزمكم ما تلزمونني به، مع أن تأويلكم كان اشد خطراً من تأويلي، فأنا أتأول الاحكام الشرعية، بينما تأولتم أنتم صفات الله وخضتم فيها، وفي ذلك من الخطر ما يزيد على مجرد تأويل الأحكام الشرعية.

---

١ ـ أنظر الفرق بين الفرق ٢٧١ ـ ٢٨٧.

جُذورُ التَّأويل

لم يكن هذا الذي أتى به الحبشي معروفاً عند الصحابة، ولم يستعمل أحد منهم هذا التأويل «التحريفي» في كتاب الله، ولم يكن أحد منهم يبحث في أسماء الله تعالى، هل هي هو أم هي غيره، أو في صفاته الذاتية والصفات الفعلية، أو العرض والجوهر، والمركب والحادث، بل كانوا كلهم في هذا الباب على قلب رجل واحد. فمن أين ابتدأ هذا المنهج الذي قدمه لنا الحبشي، والذي لم يعرفه أحد من الصحابة؟

أول من قال بالظاهر والباطن في كتاب الله هو عبدالله بن سبأ، قال بأن كتاب الله له تأويلات باطنة، مما يدعو إلى تأويل نصوص القرآن آية آية.

وقد أشار إلى ذلك ابن رشد في كتابه «مناهج الأدلة»[1]، وذكر أن الخوارج كانوا هم أول من تأولوا نصوص القرآن، ثم المعتزلة ثم الأشعرية ثم الصوفية، ثم تلا الخوارج بعض غلاة طوائف الشيعة «كالكيسانية» التي راحت تتأول النصوص على ما يحلو لها وتخرجه من أصوله، ثم ما لبثت أن ظهرت قضية الإمام المعصوم الذي يؤتى من لدنه علم التأويل، ومن اطلع بعد ذلك على تلك التأويلات وجد أنها تحريفات وتبديلات وتشويهات لكتاب الله عز وجل.

---

١ ـ ص ١٨٣ تحقيق د. محمود قاسم.

قال ابن قتيبة: «وفسروا القرآن بأعجب تفسير يريدون أن يردوه ألى مذاهبهم ويحملوا التأويل على نِحَلِهم» وقال: «وأعجب من هذا التفسير تفسير الروافض للقرآن وما يدعونه من علم الباطن بما وقع إليهم من الجفر الذي ذكره «هارون بن سعد العجلي» وكان رأس الزيدية، ادعوا أنه كتب فيه لهم كل ما يحتاجون الى علمه وكل ما يكون إلى يوم القيامة فمن ذلك قولهم في قول الله عز وجل: (وورث سليمان داود) أنه الإمام ورث (عن) النبي ﷺ علمه، وقولهم في قول الله عز وجل: (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) انها عائشة رضي الله عنها، وفي قوله تعالى (فقلنا اضربوه ببعضها) انه طلحة والزبير، وقولهم في الخمر والميسر أنهما أبوبكر وعمر رضي الله عنهما، والجبت والطاغوت أنهما معاوية وعمرو بن العاص، مع عجائب أرغب عن ذكرها».[1] ثم عمدوا الى الاحكام والتكاليف الشرعية فأبطلوها على أنها ذات معان باطنة تخالف ما فهمه منها عموم الناس.

وأصبحت الصلاةعندهم هي موالاة الإمام، والزكاة هي ما يعطى للإمام، والحج هو القصد إلى زيارة الإمام. وأما إخوان الصفا فتأولوا (الشهداء) بأنهم الذين يشاهدون الروحانية المفارقة للهيولي و (الملائكة) انهم الجواهر العقلية.

ومن ذلك أيضاً أن «إخوان الصفا» جعلوا كتاب الله قسمين: ظاهر الكتاب المنزل وهو عبارةعن الالفاظ المقروءة والمسموعة، وباطنه وهو أن له تأويلات باطنة لا يدرك فهمها عوام الناس،[2] وهذا قول ابن سينا: «فثبت من هذا كله أن الشرائع واردة لخطاب الجمهور بما يفهمون، مقربة ما لا يفهمون إلى افهامهم بالتشبيه والتمثيل».[3]

---

١ ـ تأويل مختلف الحديث لإبن قتيبة ص ٤٦ و ٤٨ ـ ٤٩.

٢ ـ رسائل إخوان الصفا ص ٤/ ١٣٢ ـ ١٣٨.

٣ ـ رسالة أضحوية في أمر الميعاد ص ٣٩ ـ ٥٠ تحقيق سليمان دنيا.

أما الخاصة (الفلاسفة) فإنهم المعنيون بفهم الحقائق وتأويل الرموز وادراك المعاني الباطنة. وهناك نقطة هامة يجدر الإشارة إليها وهي: أن الروافض والباطنيين والشيعة قد تأولوا النصوص القرآنية في الأحكام والشرائع فأدى ذلك إلى إبطالها عندهم. والفلاسفة تأولوا نصوص آيات المعاد، والمتكلمون تأولوا آيات الصفات تأويلاً يودي إلى نفي صفاته سبحانه وتعطيلها، فما الذي يتبقى من كتاب الله؟

ومن الذي يفضل من هذا الدين؟.

والذي اجتمع عليه الباطنيون والفلاسفة وإخوان الصفا والقرامطة وغيرهم هو: أن لنصوص كتاب الله الظاهرة، بواطن لا يعلم حقيقتها عوام الناس، بل يقوم على فهمها واستنباطها خواصهم وهم هؤلاء من الفلاسفة واخوان الصفا والقرامطة واصحاب فكرة الإمام المعصوم وغيرهم. ومن هنا اشتغلوا بآيات الله تأويلاً فصرفوها عن ظاهرها، بزعمهم أن الحقيقة الكامنة وراء تلك الظواهر لا يمكن الوصول إليها ألا بالتأويل. وبهذا فإنه لم يتبق من القرآن ما لا يحتمل التأويل إلا قصص الأنبياء وغيرها من الأخبار الواردة في القرآن. أما غير ذلك فكله مؤوّل إلى معانٍ أخرى.

مخاطر التأويل

ولا يعقل أن يغفل أهدى الناس سبيلاً عن أن يأتوا بمثل هذه البراهين والقوانين الجدلية ـ بل بأفضل مها ـ ثم يهديها لأبناء المسلمين أضل الناس سبيلاً! . . بل إن الرسول قد سكت عن هذا الذي تسمونه علماً، فإما أن يكون سكوته عنه تقصيراً وإن لعلمه بأنه علم ضار.

فإن قلتم لم يبيّن الرسول هذا العلم لأن الصحابة لم يفهموا ما فهمه الناس اليهم من التشبيه والتمثيل، قلنا لكم: إذن، فقد راعى الرسول ﷺ فهم الجيل الأول، ولم يراع أفهام الأجيال التي تليهم. مع العلم بأن هذا الدين قد هُيء ليكون دين الأجيال كلها إلى قيام الساعة، وفي كلامكم هذا فرية على الرسول ﷺ ـ وعلى الله قبل ذلك ـ لأن الله عنده علم الغيب، وبعلمه هذا يعلم ما سيدرك الأجيال اللاحقة، فلِمَ لم يوح لنبيه إرشاد الناس إلى علوم الفلاسفة حرصاً عليهم من الوقوع في التشبيه والتمثيل؟ . .

فإن قلتم: هذا متوقف على أهل الذكر والعلماء الذين يبينون للناس العقيدة الصحيحة، ويوضحون لهم تنزيه الله بتأويل آياته الموهمة للتشبيه والتنزيه، قلنا لكم: لِمَ خالف أهل الذكر هؤلاء أهل الذكر السابقين؟ . . في علومهم وفي مصادرها؟ . .

فأهل الذكر السابقين كمالك والشافعي والأوزاعي والإمام أحمد وغيرهم ذموا التأويل وقالوا: بأنه مظنون بالإتفاق، لا يتطرق إليه الدليل، وهو كله شك، كما نقله عنهم الشهرستاني بقوله:

من هم علماء التوحيد القائلون بالجوهر والعرض؟

قال الحبشي: «وأما الجوهر والعرض في اصطلاح علماء التوحيد فنقول في تفسيرهما:

١ - إن الجوهر ما له تحيز وقيام بذاته.

٢ - والعرض ما لا يقوم بذاته كاللون.

ترى، من هم «علماء التوحيد» الذين ذكرهم الحبشي هنا؟ أيقصد بذلك السلف كأحمد، وأبي حنيفة ومالك والشافعي، والبخاري، والربيع، وأبي يوسف، والأوزاعي واسحاق بن راهوية؟

هؤلاء هم علماء التوحيد عندنا، وهم المشهود له بالفضل والعلم، فهم الذين كانوا أئمة التفسير والحديث والتوحيد والفقه وغير ذلك.

ومع ذلك فالجوهر والعرض لم يكن مذهبهم ولم يبنوا عليه قواعد نظرهم واستدلالهم. ولا تكلموا به يوماً ولا خاضوا به، بل هو مما نهوا عنه وعدوه من المبتدعات الكلامية.

فمن ذلك مانقله ابن الجوزي عن ابن عقيل ما نصه: «أنا أقطع بأن الصحابة ماتوا ولم يعرفوا الجوهر والعرض، فان رضيت أن تكون مثلهم فكن، وإن رأيت أن طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبي بكر وعمر، فبئس ما رأيت».(١)

---

١ - تلبيس إبليس ٨٥.

وأخرج الهروى عن حامد رستم: أن أبا حنيفة سئل: «ماذا تقول فيما أحدث الناس من الأعراض والأجسام؟ فقال: مقالات الفلاسفة، عليك بالأثر وطريقة السلف، وإياك وكل محدثة، فإنها بدعة».[1]

ففي هاتين المقالتين ما يبين حقيقة من يسميهم الحبشي بـ «علماء التوحيد» وهم الفلاسفة، الذين تركوا الاستدلال بالكتاب والسنة وأشغلوا أنفسهم بالجدل والخوض في الله، فسمى الحبشي جدلهم وخوضهم هذا «بعلم التوحيد». وإذا رأيت يكرر هذه الكلمة «علماء التوحيد» في كتابه فاعلم أن أحداً من السلف ليسوا هم المعنيون بهذا اللقب، بل المعنيين به جماعة من تلامذة الفلاسفة، وأفراخ صابئة اليونان.

ومع أن الحبشي يذكر في كتابه قول ابن عباس رضي الله عنه: تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله». فإنه لم يتوقف عند حد التفكر في ذات الله، ولكنه تجاوز ذلك إلى الخوض في الله واسمائه وصفاته وعلم تلامذته ذلك وقال لهم في كتابه: «فشُدّ عليه يديك». ودربهم على هذا فأصبح التكلف في الكلام والخوض والمراء هي صفاتهم المعروفة عند الناس، وقد أوردنا في فصل «ذم الكلام وأهله» ما يوضح للمسلم نهي الله عن الجدل وكثرة السؤال، ويبين نهي رسوله ﷺ عن ذلك، ثم كلام الصحابة والتابعين فيه.

أخي القارىء: فلا تشد عليه يديك، لأن من ذكرناهم من الصحابة والتابعين لم يشدوا عليه أيديهم، بل شد يديك على ما في كتاب الله وسنة رسوله، ففيهما نجاتك من الضلالة، ولا تلتفت إلى السبل الأخرى، لأن الله قد ذم كل سبيل غير سبيله سبحانه.

---

١ ـ كتاب الإنتصار لأبي المظفر السمعاني ، صون المنطق والكلام ٣٢، ذم الكلام للهروي.

قال تعالى: «وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله».[1]

فلا تتبعوا سبل الفلاسفة الذين بنوا نظرياتهم الإلهية على غير هدى ولا كتاب منير. ولا تلتفتوا إلى ما فيها من الحث على الجدل والكلام.

قال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدىً» كانوا عليه إلا أوتوا الجدل. ثم تلا (ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خَصِمون).[2]

وفي الصحيح عن المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ قال إن الله ينهى عن ثلاث: «قيل وقال وكثرة السؤال وضياع المال .

وقال عليه الصلاة والسلام: «ذروني ما تركتم فإنما أهلك الذين قبلكم، كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم.[3]

بل إن الجدل في آيات الله مذموم بالدليل من كتاب الله:

قال تعالى: «الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم» [غافر ٣٥]

إن النظر في الكلام وإدخاله في الدين، يورث الضغائن، ويهيج العداوة بين الإخوان. قال الرسول ﷺ: «ذروا المراء فإن المراء لا تؤمن فتنته، ذروا المراء فإن المراء يورث الشك... حتى قال: ذروا المراء فإن المماري لا أشفع له يوم القيامة. ولم يكن المراء ولا الجدل في آيات الله، والخوض وصفاته طريقة الصحابة ولا التابعين بل كان سبيلهم الزجر في أسمائه عن الخوض في آيات الله كضرب عمر للأصبع وقول ابن عباس

١ ـ الإنعام ١٥٣.
٢ ـ تخريج الحديث في فصل «ذم الكلام».
٣ ـ مسلم ح (١٣٣٧).

لأحد الممارين: «ما أحرى أن يصنع بك ما صنعه عمر بصبيغ».

وإذا لم يكن هذا سبيلهم، فلا تكون سبيل مخالفيهم إلا باطلاً. قال تعالى: ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى، ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً» [النساء ١١٥]

«فعلماء التوحيد» لهم سبيل مغاير ومخالف لسبيل المؤمنين، ولهم في اسماء الله وصفاته وما يلزم إثباته وما يلزم نفيه، طرائق وشعب ومداخل تختلف عن الطريق الذي التزمه أولئك الأبرار من الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

إذ أن طريق السلف من الصحابة والتابعين فيما يتعلق بصفات الله كانت دائماً: «الإيمان بما وصف الله به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير إلحاد في أسمائه ولا في آياته. ومن غير تمثيل ولا تعطيل ولا تحريف ولا تبديل.

أما طريقة ما يسميهم الحبشي بـ علماء التوحيد» فلا يقر بها أهل السنة ولا هي من أصولهم في شيء، بل سبيل الله هيَ أصل مذهب أهل السنة والجماعة، وهي إجماعهم، والقاعدة هذه دالة على إجلالهم وتعظيمهم لكتاب الله وخوفهم من التلاعب والعبث والتأويل، إذ قد علم أن كثرة التأويل والخوض في آيات الله تفقد نصوص كتاب الله هيبتها ويجعلها عرضة لعبث من نزع من قلبه التقوى. وزال عنده كل تعظيم لكتاب الله.

والمتكلمة وهم (علماء التوحيد) عند الحبشي يخالفون السلف في هذا، فيثبتون ما يشاءون من الصفات تحت قاعدة «ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث». ويعطلون منها ما يعارض هذه القاعدة المستوردة من أرباب الأساطير والخرافات. وفلاسفة النجوم والأفلاك. مع أن الأصل هو اتباع

ما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان. لا ماكان عليه فلاسفة اليونان من أرباب الكلام.

والصحابة قد حثوا على ذلك فمنهم عبدالله بن مسعود الذي يقول:

«من كان منكم متأسياً فليتأسى بأصحاب محمد ﷺ فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً، واعمقها علماً، وأقلها تكلفاً وأقومها هديا وأحسنها حالاً»[1] . ا ـ هـ ومن قارن هؤلاء الأبرار بأولئك الفلاسفة وجد أن ما عند الفلاسفة مناقض لأحوال الأوائل، فالفلاسفة هم اقسى هذه الأمة قلوباً، واعدمها علماً، وأكثرها تكلفاً، وأسوأها حالاً.

وقد قال الأوزاعي رحمه الله: «قف حيث وقف القوم».

وقال عبدالله بن مسعود: «اتبعوا ولا تبتدعوا فإنكم كُفيتُم».

فما حجة الحبشي في استيراده هذه المبادىء والقواعد الجدلية من خارج دين الإسلام؟ هل يريد بها الحجاج عن العقائد الإسلامية والدفاع عن السنة؟

إن كانت حجته في الدفاع عن الكتاب والسنة ودفع حجج الضالين وشبهات الملحدين، قلنا له جميل منك أن تغار على دين الإسلام وأن تقف مدافعاً عنه، ولكن عذرك هذا هو أقبح من ذنب لأن هذه القواعد التي تريد بهذا الانتصار للكتاب والسنة قد أدت بك الى تعطيل ما في الكتاب والسنة، فتأولتهما على ما يلائم قواعدك ومقاييسك.

ثانياً: السؤال الثاني هو: أعجزت أن تذب عن كتاب الله وسنة رسوله من كتاب الله وسنة رسوله، أم أنك نقبت فيهما فلم تجد ما يساعدك على هذا الأمر، فهداك الله إلى طريق المتكلمين حين لم تهتد إلى ذلك من كتابه وسنة رسوله؟...

---

١ ـ جامع بيان العلم وفضله ١/ ٩٢.

موقف الإمام أحمد من التأويل

أما عن موقف الإمام أحمد بن حنبل من التأويل فقد وقع الخلاف في هذا بين أصحابه. وقد استدل بعض المتكلمين على جواز التأويل بأن الإمام أحمد قد تأول آية المجيء (وجاء ربك والملك صفا صفا)[1] بأن الذي يجيء أمره.

والحقيقة أن حنبلاً نقل عن الامام أحمد رواية له يتأول فيها حديث «إقرؤا البقرة وآل عمران فانهما يجيئان يوم القيامة كأنهما غيامتان أو فرقان من طير صواف يحاجان عن صاحبهما يوم القيامة»، فقال احمد بأن المجيء المذكور المراد به ثوابهما.

وكان المعارضون للإمام أحمد من الجهمية وغيرهم ممن يقولون بأن القرآن مخلوق، يحتجون بهذا الحديث على أنه مخلوق فقالوا: إذا كان القرآن يجيىء يوم القيامة فلابد أن يكون مخلوقاً.

ولكن الإمام أحمد حاجهم (بنظير حجتهم عليه) بأن قال لهم: «إذا كنتم تقولون في الآية (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام)[2] أن الذي يأتي هو أمره وأن الذى يجيء يوم القيامة هو أمره، فقولوا هنا في هذا الحديث أن المراد بمجيء البقرة وآل عمران هو ثوابهما

---

١ ـ الفجر ٢٢.

٢ ـ البقرة ٢١٠.

وقراءة القارىء وعمله وليس الجائي هو نفس البقرة وآل عمران، ولاحجة لكم في الحديث على أن القرآن مخلوق».

ومعنى كلامه بأن الجهمية الذين يقولون بخلق القرآن كانوا يصرفون الآيات عن ظاهرها إن لم تكن مطابقة لأرائهم ومذاهبهم، ويتمسكون بالظاهر من الآيات إن كان فيها ما يقوي حجتهم ولايتأولونها، فكان معنى حجة الامام أحمد عليهم أن: إذا كنتم تتمسكون بالتأويل في شأنكم كله، فلماذا وقفتم عن هذا في حديث البقرة وآل عمران؟ فإما أن تمضوا على نمط واحد من التأويل، وإما أن تكونوا على نمط واحد على عكس ذلك. فكانت حجته عليهم بنظير ماعندهم، ولا يعني ذلك أنه موافق لهم على تأويلهم لآية الإتيان وآية المجيء كما فهمه بعض المتكلمين ممن جعلوا هذه القضية ستاراً لقبح تأويلاتهم، وشعاراً يبرزونه لكل من ينهاهم عن التأويل والتبديل.

وما رواه عنه الشهرستاني وابن الجوزي وابنه عبدالله يخالف حجة المتكلمين فأما الشهرستاني فقد روى عن احمد ومالك وابي داود الاصفهاني أنهم قالوا: نؤمن بما ورد به الكتاب والسنة ولا نتعرض للتأويل بعد ان نعلم قطعاً أن الله عز وجل لايشبه شيئاً من المخلوقات «وأضاف الشهرستاني قائلا: «وكانوا يحترزون عن التشبيه الى غاية أن قالوا: من حرك يده عند قراءته (لما خلقت بيديّ) وجب قطع يده».. ثم بيّن الشهرستاني سبب رفضهم للتأويل بقولهم: لأنه أمر مظنون بالإتفاق، فلربما أوّلنا الآية على غير مراد الله فوقعنا في الزيغ، بل نقول كما يقول الراسخون في العلم (كل من عند ربنا) آمنا بظاهره وصدقنا بباطنه»[1].

---

١ ـ الملل والنحل للشهر ستاني ١/ ١٣٧ ـ ١٣٨. وتجد شيئاً من هذا الكلام في ص ١/ ١١٨ وكذلك ٢/ ١٢٦ لإبن حزم.

وعن عبدالله بن أحمد قال: قال أبي: هذه الأحاديث ترويها كما جاءت.. فنصدقها ولا يضرب لها الأمثال، هذا ما أجمع عليه العلماء في الآفاق». وكذلك حكى ابن الجوزي انه قال ولا تفسّر هذه الأحاديث إلا مثل ماجاءت[1].

وقال عبدالله بن الامام أحمد في كتاب السنة: قلت لأبي: ينزل الله الى السماء الدنيا، فكيف نزوله بعلمه أم ماذا، فقال لي: أسكت عن هذا، وغضب غضباً شديداً وقال: إمضى الحديث على ماورد.

هذا هو مذهب الامام أحمد رحمه الله ـ وهو عدم التأويل ـ لأن التأويل عنده أمر مظنون لايفيد يقيناً ولا يستطيع صاحبه أن يقطع بثبوت ما تأول، لهذا ترك احمد التأويل خشية أن يكون قد تأول الآية على غير مراد الله لها فيقع في الزيغ.

---

١ ـ مناقب الإمام أحمد ١٥٥ ـ ١٥٦ و ١٧٤ (لإبن الجوزي)، وشرح أصول السنن للالكائي ١/ ١٦٤ ط دار طيبة.

وفي هذا الكلام ما يرد الشبهة التي يبثها المتكلمون وغيرهم. من أن التفويض هو طريقة السلف، فكلام الإمام أحمد دال على بطلان التفسيرات والتأويلات التي أخذ بها الجهمية والمعتزلة وغيرهم، ولم يذم أي تفسير لهذه الآيات، بل إنه استثنى من ذلك تفسيراً واحداً وهو تفسيرها على ما جاءت به، ومن ذلك ترى ابن عباس ومجاهداً وأبا العالية فسروا الإستواء بالإرتفاع والعلو. فلو كان التفسير مذموماً عموماً لما فعلوا، ولما قال مالك: الإستواء معلوم.

بين التأويل والتفويض

وليس التأويل وحده هو الخطر المؤدي الى الوقوع في التعطيل فحسب، إذ أن في التفويض ماينذر بذلك أيضاً.

فما الفرق بين المفوض والمتأول سوى أن المتأول عطل حقيقة مراد الله للآيات التي وصف الله بها نفسه، فعطل المعنى لتلك الآيات حين صرفها الى معاني أخرى لايحتمل أن تكون هي مراد الله لها (باعتراف المتأول نفسه).

أما المفوّض فانه عطل اللفظ والمعنى وجعل الآيات بمنزلة الحروف المعجمة والتي لا يُفهم لها معنى بأن قال: لامعنى ولا كيف.

ونحن لانعترض عليه قوله «لاكيف» لأننا لسنا مكلفين بالتنقيب عن كيفية ذات الله تعالى لكننا نعترض عليه قوله «لامعنى»، إذا أننا لاننف العلم بالصفة، لكننا ننف العلم بكيفية الصفة وحقيقتها، والفرق واسع بين إرادة فهم المعنى، واردة فهم حقيقته.

ولو أن العلم بالصفة محذور ومحرم لما قال مالك رحمه الله «الإستواء معلوم» بل لقال عندئذ «الاستواء مجهول» لو كان العلم بالاستواء محرماً عند السلف، ولذلك فإنك تجد مجاهداً وأبا العالية قد أتيا بتفسير الاستواء بمعنى؛ علا، وارتفع[1]، وهذا قول ابن عباس أيضاً.

---

١ - رواه البخاري في صحيحه ٨/ ١٧٥ (كتاب التوحيد).

ولو أن العلم (بمعنى) الصفة، لا (حقيقتها) هو محرم عند السلف، لما استطاع أحد أن يفرق بين معنى (الرحيم) و(القوي) وبين (العزيز) و(القابض) وبين (العليم) و(الخافض) ونحن لم نحارب المعطلة والنفاة إلا لنثبت ونبين المعنى الذي اراده الله بعد أن حرفوه، فلا يعقل أن نحاربهم على ذلك ثم نعطل نحن «المعنى» بدعوى «التفويض».

والآيات التي في القرآن هي مؤلفة من الكلمات الدالة على المعاني. وما انزلت إلا لتُعلم وتفُهم، وليتدبرها الناس ويتفكروا بما فيها محكمة كانت أم متشابهة، قال تعالى (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته) [ص ٢٩] وحين قال تعالى (ليدّبروا آياته) لم يستثن من آياته آية واحدة ذكر أنها لايجوز تدبرها، بل إن قوله هذا شامل لكل الآيات.

وقال سبحانه (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) [محمد ٢٤] وهذه إشارة أخرى الى وجوب تدبر كلام الله الذي في كتابه، وواضح من سياق الآية أن الله تعالى لم يستثن من ذلك شيئاً، فتكون طائفة المفوضين كمن قال الله عنهم (ومنهم أميّون لايعلمون الكتاب إلا أماني) [البقرة ٧٨] لأنهم قالوا لا نعلم المعنى لتلك الآيات، والرد عليهم هو: أن الله تعالى أنزل كتبه باللغة التي نفهمها ونفهم معانيها، وكيف تقولون لا نفهم المعنى مع ان اللهانزل الآيات بالكلام الذي يتخاطب به العرب؟ فإما أن تكون الآيات بلغة أخرى غير العربية، فتكونون معذورين لعدم فهمكم اياها! وإما أن تكون نزلت باللغة العربية التي تفهمون معانيها، فيكون كلامكم متناقضاً.

ويفهم من كلامكم حينئذ أن الآيات التي وصف الله بها نفسه هي كفواتح السور التي هي ألفاظ وحروف مركبة كقوله تعالى (الم) و (كهيعص) و(الر)و (حم) و(يس) و(حم عسق) فتكون آيات الله التي وصف بها نفسه بمنزلة الحروف المركبة والتي لايفيد تركيبها معنى.

فإن قلتم إن فواتح السور غير معلومة لنا، فهذا دليل على عدم علمنا ببعض ماجاء في كتاب الله.

قلنا لكم : إن الحروف المركبة التي هي فواتح السور في القرآن، لم تكن عبارة عن كلمات يتخاطب بها العرب في لغتهم، فقول الرجل للآخر: (حم عسق) ليست بكلمة يفهمها الرجل الآخر منه، ولذلك فان فواتح السور لم تكن كلمات ذات معان وإنما كانت حروفاً مجموعة ، لم يفد جمعها في اللغة شيئاً، وهي مما استأثر الله بعلمه، أما الآيات التي وصف الله بها نفسه فإنها عبارة عن كلمات يفهم معناها العرب، فكيف يكون معناها غير مفهوم لنا؟

ولو أن أعجميا تليت عليه تلك الآيات لحق له أن يقول: لا أفهم المعنى، لكن ليس من المنطق أن يأتي اناس من ابناء اللغة العربية، ثم يزعمون أنهم يجهلون معنى ما قاله الله تعالى في آياته.

وهذا يبين بوضوح إشكال الأمر على المفوض بين تفويض معنى الصفة أو تفويض حقيقتها، إذ نفي علم التأويل، لايفيد نفي علم المعنى، وهذا تحقيق قول مالك رضي الله عنه «الاستواء معلوم».

وليس من العقل والمنطق، القول بأن الله يخاطب عباده بكلام يقرأونه ليلاً ونهاراً ويتردد على اسماعهم، ويكثر ذكره على ألسنتهم، ثم لايفهمون منه بعد ذلك شيئاً وخاصة في ما يتعلق بما وصف به نفسه.

التفويض ليس مذهب السلف

وهاهم الصحابة كلهم، لم يرو عن أحد منهم أنه نهى عن تفسير آية من كتاب الله، بل ماروى عنهم هو العكس من ذلك.

كقول مجاهد رضي الله عنه: عرضت المصحف على ابن عباس من أوله الى آخره، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها...

فقوله «أوقفه عند كل آية وأسأله عنها» يوضح أنه لو كان التوقف عن تفسير آيات الصفات هو مذهب السلف لذكر مجاهد استثناءً فيها، كأن يقول (إلا آيات الصفات) أو غيرها.

وها هو ابن مسعود رضي الله عنه يقول: لو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لأتيته». بل قد ثبت عن ابن عباس أنه قال : «كل القرآن أعلم إلا أربعاً: غسلين، وحناناً، والأواه والرقيم»[١].

وقد رد الامام احمد على الجهمية وغيرهم من الزنادقة الذين اتبعوا ما تشابه من آيات الله وتأولوها على هواهم، فأوضح حقيقة معناها، وفصل معناها آية آية وقال بأنهم «تأولوا القرآن على غير تأويله» وقال : «لأن الله صرح بكلام يجب ان نفهمه على وجهه[٢].. وهذا راد للذين زعموا أن طريقة الامام أحمد هي التفويض، فلو كان جاهلاً بمعاني تلك الآيات لما رد عليهم أقوالهم ولما بين المعاني الحقيقية لتلك الآيات.

---

١ ـ راجع تخريج هذه الآثار في فصل (التأويل في اللغة).
٢ ـ أحمد بن حنبل (سلسلة السير) ص ١٢٨.

ويرد عليهم أيضاً ما حكاه عنه ابن الجوزي أنه كان يقول: « ولا تفسر هذه الأحاديث إلا مثل ما جاءت به[1]. . أي أن التفسير المقبول هو تفسير ظاهرها من غير أن يؤدي ذلك الى صرفها لمعان أخرى تخالف مراد الله لها، فقوله (لا تفسر إلا) يفيد أن كل تفسير لها يكون باطلاً إلا تفسيراً واحداً. وهذا الاستثناء يدل على أن هناك طريقاً واحداً للتفسير، فلو كانت طريقة التفويض لنهى «إطلاقاً عن أي تفسير، لكن إتيانه بـ «إلا» يفيد أن هناك تفسيراً لهذه الآيات، وهذا يبطل قول القائلين بأننا لا نعلم معنى هذه الآيات.

فقولهم: لانعلم المعنى، يتعارض ومعرفتهم باللغة العربية، إذ أن معرفة اللغة العربية ليست من التأويل الذي لايعلمه إلا الله.

أما إن قالوا: لانعلم الحقيقة، فهذا حق ولايعارضهم فيه أحد، إذ أن تكلف معرفة حقيقة صفات الله تعالى أمر من المحال، ويتعارض مع (ليس كمثله شيء). وكل ما نطالب به المفوض أن يكون أكثر حرصاً ودقة، فيفرق بين «المعنى» وبين «الحقيقة».

---

١ ـ رواه اللالكائي في شرح أصول السنن ١/ ١٦٤، وابن الجوزي في المناقب ١٥٥ ـ ١٥٦ و ١٧٤.

الرد على من زعم أن طريق السلف أسلم وطريق الخلف أحكم

ومما يدعو الى العجب أن يزعم قوم بأن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم وهذا باطل، إذ أن من علم مقام السلف ومكانتهم وأن قرونهم كانت خير القرون لتبين له أن هذا ضرب من عبث القول.

وقد امتدحهم الرسول ﷺ فقال : خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم [١] ثم الذين يلونهم».

ومن زعم ان طريقة الخلف أحكم وطريقة السلف أسلم فقد غاب عنه أنه لو لم تكن طريقة السلف أحكم لما كانت أسلم، وأي حكمة هذه التي يزعمونها لا توصل الى السلامة، وما هذا العلم وهذه الحكمة اللتان لا توصلان الى بر النجاة الذي وصله السلف؟.. بل وما هي هذه الحكمة المحفوفة بالاشواك والمخاطر؟

وإن كنتم معترفين بأن طريق السلف أسلم فلماذ لاتسلكونها لتنقذوا أنفسكم من حكمة مزعومة لاتعلمون الى اين تودي بكم. فلو كانت حكمتكم هذه هي الحكمة الحقيقية لقلتم «طريق الخلف أعلم وأحكم وأسلم» لكن سكتّم عن «الاسلم» لوقوع الشك والريبة من التأويلات المظنونة مما لايكون أسلم ابداً فلقد كان منهج السلف اثنين لا

---

١ ـ أخرجه البخاري ٥/ ١٩٩ ومسلم ٤/ ١٩٦٣ ح ٢٥٣٣ وابن ماجة ٢/ ٦٣ وأحمد ٤/ ٢٦٧.

ثالث لهما. . . الكتاب والسنة. . إذ أنهم لم يلجأوا الى مقدمات فلاسفة اليونان ليبنوا عليها أمور التوحيد، ولم تستحوذ على عقولهم مؤلفات ارسطاطا ليس وافلاطون وغيرهم من الفلاسفة الذي أخذها عنهم متكلموا الاسلام من الخلف، ومن كان هذان (الكتاب والسنة) هما منهجه وطريقه فقد سلك طريق الحكمة أولا فأوصلته هذه الطريقة الى حيث السلامة ثانياً. . . .

وكيف يكون الخالفون ـ سيما وأنهم ضرب من المتفلسفة والمؤولة الذين حملوا كتاب الله على غير محمله وتلاعبوا بنصوص الآيات والأحاديث تأويلاً وتعطيلاً ـ كيف يكونوا اعلم وأحكم بالله من الذين عايشوا نزول الوحي، ونقلوا أحاديث سيد البشر وأفنوا حياتهم في سبيل إعلاء كلمة الله في مشارق الأرض ومغاربها !!. . .

إن مادعا بعض الناس أن يقولوا بهذا هو أنهم ظنوا ان طريقة السلف كانت مجرد الايمان بنصوص الآيات والأحاديث من غير فقه لها بمنزلة الأميين من الناس والصالحين من العوام.

وأن طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات. . . وهذا افتراء على السلف وكذب عليهم. . . بل منقصة لهم، لأنه لايدعي أحد أنه أعلم بالله ورسوله من الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلا كل دجال مفتر إذ لايعقل أن يكون الخلف أحرص على هذا الدين من سلفهم.

ولقد كانت طريق السلف كلها حكمة، إذ أنهم لم يخوضوا في آيات الله ولم يشبعوها تأويلاً ولا تعطيلاً، ولم يضربوا كتاب الله بعضه ببعض، بل كان توقيرهم لكتاب الله ومنزلته عندهم تكبرهم وتجلّهم عن أن يقعوا في فواحش الخلف. من المتأولة الذين نالوا من كتاب الله واحاديث

رسوله ﷺ ما نالوا فجمع السلف بذل بين ما هو احكم وما هو أسلم (باعترفكم)! وليس العبث والتأويل في آيات الله مما يسمى «علماً» و «حكمة» إذ أن وصف المتأولين من الخلف بالحكمة، هو كوصف فلاسفة اليونان بالحكمة، فقد كان يضاف الى كل اسم فيلسوف من أولئك الفلاسفة بالحكيم كقولهم: «سقراط الحكيم، وافلاطون الحكيم». وهم مع ذلك لم تغن عنهم حكمتهم شيئاً إذ ماتوا ضالين تائهين، كقول سقراط:

«الشيء الذي لا أزال أجهله جيداً أنني لست أدري»[1] وسقراط هذا من عمالقة الفلاسفة ومع ذلك تجدهم مضطربين متناقضين في أقوالهم، لاتزيدهم فلسفاتهم الا ضياعاً وتيها إذ أن كلامهم من عند غير الله، ومن أراد أن يعرف التوحيد بهم ضل مثلهم، لأن أحداً لن يجد العقيدة السليمة من كلام الفلاسفة وإنما يجدها في الاسلام في أصليه: الكتاب والسنة وهذا ما كان عليه السلف، لذا فانهم جمعوا في طريقهم بين الحكمة والسلامة وفازوا، أما من عداهم فلا نال حكمةً ولاسلك سلامةً بل هو إلى الشك والتردد أقرب[2].

وسبب هذا الشك، أن الخلف قد اشتهروا في القول بالرأي بمعزل عن ادلة الكتاب والسنة، ومن هنا كان الذم منصبا على طريقهم المخالف للسلف في الحكمة وفي السلامة. وقد قال غير واحد من السلف: «أكثر الناس شكاً عند الموت أهل الكلام».

وكيف يكون هؤلاء الحيارى المتشككون في كلامهم، المتقلبون في آرائهم أحكم من أولئك الذين أخذوا مباشرة عن الصادق المصدوق؟

---

١ ـ الدين لدراز ٦٩

٢ ـ لا سيما وأن المتكلمين متفقون على أنهم تأولوا الآيات على سبيل الاحتمال بأنها هي المراد من الله على سبيل القطع فأي شك أكبر من هذا؟

وكيف يكونوا أعلم بالله واسمائه منهم؟ . . هذا ما لايقر به عاقل، ولايقبل به منصف.

قال العلامة السفاريني في كتابه المسمى باللوامع:
«فمن المحال أن يكون الخالفون أعلم من السالفين كما يقوله بعض من لاتحقيق له به، ممن لايقدّر قدر السلف»[1].

لقد عايش السلف رسول الله ﷺ وأخذوا عنه هذا الدين بجملة مافيه في سنن وأفعال ونقلوا سيرته ووصاياه وأوامره ونواهيه وما كان يسرّه وما كان يغضبه وما كان يستحسنه لأمته ويرغب لها به وما كان ينهاها عنه. وبما أن السلف قد أخذوا من هذا المصدر فالأولى الأخذ بما عندهم وترك ماعند الباقين، واذا علم وأن هذا هو مصدر السلف فيما علمنا عنهم، فعمن اخذ الخلف علومهم ومصادرهم ليحملوا علوماً مخالفة للسلف بل «احكم» من طريق السلف بزعم بعض الجهلة؟

وليس هناك من داعٍ لحملات التوفيق بين هذا العلم المزعوم للخلف على علم السلف، فلَئن كان مصدر الخلف لايختلف عن مصدر السلف وجب ان لايختلفوا في المنهاج، وإن كان اولئك الخلف أهدى من الذين آمنوا ـ من سلفهم ـ سبيلا، فليفيدونا بمصدرهم وبهذا الهدى العظيم الذي لم يهتد اليه السلف ـ سيما وأنه بزعمهم أحكم ـ لنسابقهم إليه وننازعهم فيه، لأننا نتوق إلى معرفة هذا العلم وهذه الحكمة اللذين اغناهم الله بهما عن علم السلف !!.

وان كان الامر على غير هذا، وجب على الخلف أن لايخالفوا سلفهم وأن يتبعوهم بإحسان كما قال عز وجل «والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم». فاتباع اولئك على ما كانوا عليه من الهدى هو عين ماقصده الله سبحانه بقوله «والذين اتبعوهم بإحسان».

---

١ ـ لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية ١/ ٢٥.

فإن الله قد اغنى سلف هذه الأمة ـ بالعلم الكافي الذي تلقوه عن النبي ﷺ، وليست الحاجة تدعو إلى علم جديد يستوحيه الخلف يضادون به سلفهم بل يفترون عليهم فيه بأن يزعموا أن هذا العلم «الخالف المخالف» أحكم من علم السلف المأخوذ مباشرة عن نبي هذه الأمة.

قال ابوذر رضي الله عنه: لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنه: «كل القرآن أعلم إلا أربعاً: غسلين، وحناناً، والأوّاه، والرقيم»(٢)

وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «من كان منكم متأسياً، فليتأسى بأصحاب محمد ﷺ فانهم كانوا أبرّ هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلهم تكلفاً(٣).

وقال ابن عقيل لبعض أصحابه: «أنا أقطع بأن الصحابة ماتوا، وما عرفوا الجوهر والعرض، فان رضيت أن تكون مثلهم فكن، وإن رأيت أن طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبي بكر وعمر فبئس ما رأيت.(٤)

---

١ ـ رواه أحمد ٥/ ١٦٢.
٢ ـ أخرجه السيوطي في الإتقان ١/ ٩٦ عن الفريابي، وابن قيتبة في تأويل مشكل القرآن ٩٩.
٣ ـ جامع بيان العلم وفضله لإبن عبد البر ٢/ ٩٧
٤ ـ تلبيس ابليس لإبن الجوزي ص ٨٥.

التقليد والاتباع

قالوا: أنتم مقلدون لا تأخذون دينكم بالعقل والتدبر وإنما بالتقليد والاتباع وهذه ميزة طريقتنا عن طريقتكم، لأننا قد أمرنا بإعمال العقل من كتاب الله.

قلنا لهم: أي تقليد واتباع هذا الذي تريدون؟

إن أردتم هذا الاتباع الذي نتبع به السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان فقولكم هذا هو إقرار منكم على الخروج عن طريقتهم، والله تعالى يقول في أمثالكم:
(ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم) [النساء ١١٥]، وهذه الآية تصلح لكم، لأنكم تتبعون غير سبيل المؤمنين من فلاسفة اليونان وغيرهم.

أما اتباعنا لمذهب السلف من الصحابة والذين اتبعوهم بإحسان، فهذا ممدوح من كتاب الله، قال تعالى (والسابقون الأولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه) [التوبة ١٠٠]

فهذا دال على أن «الإتباع بإحسان» ليس مذموماً بل على العكس، وأن الإتباع المذموم هو اتباع غير سبيل المؤمنين، الذين امتازت سبيلهم

بالجدل في آيات الله وصفاته والالحاد في أسمائه، وتحريف ما أثبته لنفسه، وأثبته له رسوله ﷺ.

ثم إن كتاب شيخكم «الدليل القويم» تفوح منه رائحة التقليد والتعصب المذهبي وهذا واضح لمن يمعن النظر فيه، وهو منقول نقلا حرفياً عن كثير من كتب المتكلمين نذكر من تلك الكتب: الإرشاد والشامل، ومناهج الأدلة وغيرهم ومقتطفات من قواعد العقائد «للغزالي». والحبشي «مقلد» حتى في الأمثلة التي يضربها، فإن أمثلته منقولة نقلاً عن تراث، المتكلمين، كمثل «عدد الحوادث من الطوفان إلى الأزل» الذي أورده[1] ومثل: لا أعطي فلانا درهما في زمن إلا وأعطيه درهماً بعده،[2] وحتى دليل التمانع الذي يذكره هو منقول عن الجويني في كتابه «الشامل»[3] فكيف يكون بعد ذلك بريئاً من التقليد والتبعية؟

وهل أتى شيخكم بقواعد «الواجب والممكن» و «العرض والجوهر» و «ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث» ونظرية «الكسب» و «البسيط والمركب» هل أتى بها من صميم عقله أم من كتب المتكلمين الذين ماتوا ومات تراثهم حتى أراد الحبشي إحياءه بنقلها وتعليمها للناس وابتعاثها من جديد؟

ومن الأجدر إذن بالاتباع؟.. اتباع الصحابة والتابعين لهم بإحسان، أم اتباع المتكلمين والمتفلسفين من اتباع فلاسفة اليونان؟

---

١ - أنظر الدليل القويم ص ١٦.
٢ - ص ١٩.
٣ - أنظر كتاب الشامل في أصول الدين للجويني ص ٣٥٢ (كتاب التوحيد) تحقيق النشار وغيره.

أنواع اتباع

والإتباع على أنواع منها ماهو مذموم وهو كالآتي:

١ - إتباع الهوى قال تعالى:

(فان لم يستجيبوا لك فأعلم أنما يتبعون أهواءهم) [القصص ٥٠]

(ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) [ص ٢٦]

(قل لا أتبع أهواءكم) [الأنعام ٥٦] (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) [القصص ٥١]

(ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً) [الكهف ٢٨]

٢ - إتباع الظن، قال تعالى:

(إن يتبعون إلا الظن) [يونس ٦٦]

(وما يتبع أكثرهم إلا ظناً) [يونس ٣٦]

٣ - إتباع الشهوات قال تعالى:

(ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيما) [النساء ٢٧]

(فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات) [مريم ٥٩]

٤ - إتباع المشركين لآبائهم:

(قالوا بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا) والآية التي قبلها تدل على الاتباع الممدوح (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله) [لقمان ٢١]

(بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون) [الزخرف ٢٢]

٥ - إتباع ابليس والطواغيت، قال تعالى:

(ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين) [سبأ ٢٠]

(ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد) [الحج٣]

(إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الاسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرّةً فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا) [البقرة ١٦٦]

(فاتبعوا أمر فرعون مت أمر فرعون برشيد) [هود ٩٧]

٦ - إتباع ما تشابه من كتاب الله، قال تعالى:

(فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) [آل عمران ٧]

أما الإتباع الذي ارتضاه الله سبحانه فهو كقوله في كتابه:

(قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) [آل عمران ٣١]

(اتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم) [الزمر ٥٥] والمتكلمون لا يتبعون أحسن ما أنزل اليهم من ربهم، بل يتبعون أحسن ما قالته الفلاسفة.

(والسابقون الأولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم بإحسان) [التوبة ١٠٠] وهذا هو الاتباع الواجب الذي يذمه المتكلمون.

(قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة» أنا ومن اتبعني) [يوسف ١٠٨]

(وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولاتتبعوا السبل) [الأنعام ١٥٣]

(وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه) [الأنعام ١٥٥].

(وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم) (محمد ٣] لا من افلاطون وارسطو!

فمن تدبر هذه الآيات تبين له الاتباع المحمود من الاتباع المذموم. وكذلك كما أسلفنا، فإن الحبشي متبع ومقلد لأسلافه من المتكلمين حذو النعل بالنعل، فلا يصح القول بأنه خارج عن طور التقليد.

أما اتباعنا فهو مخالف للإتباع الذي عليه الحبشي، فإن رايتنا قول ابن مسعود رضي الله عنه «إتبعوا ولا تبتدعوا فإنكم كفيتم».

والحبشي لم يكتف بالدين الذي قال الله عنه (اليوم أكملت لكم دينكم) فأراد إكماله بمذاهب فلاسفة اليونان ومتكلمي الفرق التي عاثت في الماضي بكتاب الله تأويلا وتبديلاً.

ونحن اكتفينا بما جاءنا عن الله وعن رسوله، وهذا كفيل لنا إن اتبعناه أن نلقي الله وهو عنا راضٍ.

أما ما يتوهمه البعض بأنه نقص في الدين، بدعوى انه لم يرد في الكتاب والسنة فهذه مراودةً للمؤمنين عن الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله، وإعانة للشيطان على دعوة البشر الى غير كتاب الله وسنة رسوله.

فهناك الكثير من المسائل لم تثبت في كتاب الله ولا في سنة رسوله. وليس ذاك نقصاً.

فقد قال رسول الله ﷺ يخبر عن الله تعالى:

«وسكت عن اشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها».

فما سكت الله عنها نسياناً، وما كان عدم ثبوتها في كتابه نقصاً، وما كانت لتخفى عليه وهو الذي (لايخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء) [آل عمران ٥]

فإن لم يذكر الله لنا شيئاً من المسألة الفلانية فلحكمة منه سبحانه.

ومن جملة حكمته وعلمه بحال عباده، أنه لم يذكر لهم شيئا عن الفلسفة، التي يستمسك بها الحبشي ومن هم على سبيله.

بل إن قول الرسول ﷺ: «من أحدث في أمرنا ماليس منه فهو رد».

وقوله: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو عليه رد»، يرد ما أحدثه المتكلمون في الدين، وما أدخلوه فيه من قواعد الفلاسفة، وما أخذه الحبشي عنهم.

وإذا كنا كفينا بهذا الدين كما يقول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «إتبعوا ولا تبتدعوا فإنكم كُفيتم»، فما الحاجة بعد ذلك الى فلسفة لاينتفع بها العالم ولا يضر تركها الجاهل؟، بل كان الأخذ بها هو سبب الفرقة بين ابناء هذا الدين الواحد.

بَابُ أَنَّ الإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ

قال تعالى: «هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم[1] وقال: «وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً[2] وقال جل شأنه «فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون[3] وقال «وما زادهم إلا إيمانا وتسليما[4] وقال سبحانه: «الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل[5] فكل هذه الآيات تفيد زيادة الايمان، فما كان زيادة عن البعض كان نقصانا عنه عند البعض الآخر، ووجب القول عند ذلك بزيادة الايمان ونقصانه».

وقد عقد كل من البخاري[6] ومسلم[7] باباً في زيادة الايمان ونقصانه وروي في ذلك أحاديث متعددة عن النبي ﷺ وسموه باب أن الايمان يزيد وينقص. وفي حديث ابي هريرة رضي الله عنه: «الايمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة. فأفضلها قول لا اله الا الله. وادناها إماطة الاذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[8]

١ ـ الفتح ٤.
٢ ـ الانفال ٢.
٣ ـ التوبة ١٢٤.
٤ ـ الأحزاب ٢٢.
٥ ـ آل عمران ١٧٣.
٦ ـ باب رقم ٣٤ ضمن كتاب الإيمان (١).
٧ ـ باب رقم ٢٠ ضمن كتاب الإيمان (١).
٨ ـ رواه مسلم وغيره من حديث أبي هريرة ١/ ٦٣ ح (٣٥ و ٣٦).

فان كان الايمان بضعاً وستين شعبة أو بضعاً وسبعين شعبة فلابد وأن تتفاوت شعبة بين الناس بحسب اختلافهم بين القيام بطاعة أو معصية. وقد علمنا ان الحياء شعبة من شعب الايمان، وهو عند بعض المؤمنين موجود، وعند البعض الآخر مفقود، فدل ذلك على زيادة شعب الايمان عند بعض المؤمنين ونقصا عن البعض الآخر منهم شيء ثابت وحاصل.

وهو قول أئمة السلف كأحمد ومالك والشافعي وأئمة المفسرين كابن جرير وغيره.

لا كما يقول بعض المقلدين من أن الايمان لايزيد ولاينقص.

والقول بزيادة الايمان ونقصانه يقتضي القول بأن العمل هو من الايمان. اذ لايزيد الايمان عندئذٍ الا في القيام بالطاعات، ولا ينقص إلا في القيام بالمعاصي لذا وجدت من قال بأن الايمان هو اعتقاد في القلب ونطق باللسان مضطر لإنكار زيادة الايمان ونقصانه والعكس بل لقطع الصلة ايضا بين الايمان والعمل لذا فإن القول بزيادة الايمان ونقصانه يؤدي الى الإقرار بأن هذا النقصان وهذه الزيادة تتفاعلان بحسب العمل، فالعمل له صلة قوية بالأمر الآخر. ونكران العمل كعامل اساسي في الايمان هو خطأ يؤدي حتماً الى نكران زيادة الايمان ونقصانه.

وقد تطرقنا في السابق الى تفسير ابن جرير الطبري قوله تعالى «ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم» فنقل عن ابن عباس انه قال: «إن الله جل ثناؤه بعث نبيه محمد ﷺ بشهادة أن لااله الا الله فلما صدقوا بها زادهم الصلاة، فلما صدقوا بها زادهم الصيام، فلما صدقوا به زادهم الزكاة، فلما صدقوا بها زادهم الحج»(1)

---

١ ـ تفسير ابن جرير الطبري المجلد الحادي عشر ٢٦/ ٤٥.

وهذا ما ننشد تبيينه، إذ أن الناس في هذه الأعمال متفاوتون فمنهم من لا يؤدي صلاته على الوجه المطلوب ومنهم من لايؤدي صيامه او زكاته أو حجه على الوجه المطلوب، ومنهم من يؤديها على وجهها المأمور به، فلا يستوي هذا وذاك بأعمالهما المتفاوتة على مرتبة واحدة من الإيمان

أقوال الائمة في زيادة الايمان ونقصانه

قد ذكرنا في باب «ان الايمان قول وعمل يزيد وينقص» آثاراً كثيرة عن بعض التابعين يقولون فيه بزيادة الايمان ونقصانه منها قول الامام احمد عن الإيمان انه يزيد بالحسنات وينقص بفعل المعاصي[1] ومنها أيضا ما نقله الربيع عن الشافعي أنه يقول: «الإيمان قول وعمل يزيد وينقص[2]

ويدل على ذلك ايضاً قول الرسول ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقاً علم عندئذ أن هناك مؤمنين أقل كمالاً من هؤلاء وقوله «وذلك أضعف الايمان».

وكذلك فقد عقد البيهقي في كتابه (الإعتقاد) باباً سماه: باب أن الايمان قول وعمل يزيد وينقص قال فيه:

«وأن الإيمان يزيد وينقص، وإذا قبل الزيادة قبل النقصان»[3]، ثم روى عن قتادة ماقاله رسوله ﷺ: « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وفي قلبه من الإيمان مايزن برة».

---

١ ـ مناقب الإمام أحمد لإبن الجوزي ١٦٨ و ١٥٣.

٢ ـ تهذيب الأسماء ١/ ٦٦ والإنتقاء لإبن عبد البر ٨١، وآداب ومناقب الشافعي لإبن أبي حاتم ١٩٢، والفتح ١/ ٣٦، والتوالي ٦٤، وسير أعلام النبلاء ١٥٢.

٣ ـ الإعتقاد على مذهب السلف ص ٨٠ و ٨٣ ط حديث أكاديمي بباكستان.

وفي رواية أبي سعيد الخدري: «من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان»[1].

وهذا أيضا قول مالك رحمه الله، فقد نقل عنه ابن عبد البر قوله: أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص»[2].

وهذا أيضاً ما يؤمن به ابن حزم الظاهري في «الفصل»[3].

وكذلك فإن ابا الحسن الاشعري لايخالف أولئك الائمة في هذا الباب بل إنه يذهب الى نفس ماذهبوا إليه. فإنه يقول في كتابه «الإبانة»: «وأن الايمان قول وعمل يزيد وينقص»[4].

وهو مارواه عنه الحافظ ابن عساكر في «التبيين»[5]

هذه هي عقيدة أولئك الأئمة، وهذا هو إجماعهم الذي أجمعوا عليه.

بل وهذا هو رأي الأشعري رحمه الله، الموافق لأهل السنة والجماعة، والذي حكاه عنه ابن عساكر».

فمن خالف هؤلاء في هذا الباب، فقد وافق أولئك من المرجئة الذين خالفوا إجماع الأمة، وقد بين سفيان الثوري رحمه الله مخالفتهم.

فقد روى البيهقي عن الثوري أنه قال:

«قد خالفنا المرجئة في ثلاث:

١ ـ نحن نقول إن الايمان قول وعمل، وهم يقولون: قول بلاعمل

---

١ ـ نفس المصدر.

٢ ـ الإنتقاء، لإبن عبد البر، ص ٣٦ ط دار الكتب العلمية، وانظر التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي ٧٩.

٣ ـ الفصل في الملل والنحل ٢/ ١١٤.

٤ ـ الإبانة عن أصول الديانة ص ٢٤ تحقيق الأرناؤوط.

٥ ـ تبيين كذب المفتري ص ١٦٠ ط دار الفكر.

٢ ـ ونحن نقول يزيد وينقص ، وهم يقولون: لايزيد ولاينقص.
٣ ـ ونحن نقول أهل القبلة عندنا مؤمنون، وأما عند الله فالله أعلم وهو يقولون نحن من عند الله مؤمنون»[١].

وقد وقف البيهقي على الجملة الثالثة من قول الثوري وشرحها بقوله:

«فسفيان الثوري رحمه الله، أخبر عن أهل السنة أنهم لايقطعون بكونهم مؤمنين عند الله، يعني في ثاني الحال. لأن الله يعلم الغيب، فهو عالم بما يصير إليه حال العبد، ثم يموت عليه ـ ونحن لانعلمه فنكل الامر فيما لانعلمه إلى عالمه ، خوفا من سوء العاقبة، ونستثني على هذا المعنى، ونرجو من الله أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة»[٢].

---

١ ـ الإعتقاد للبيهقي ص ٨٣.
٢ ـ نفس المصدر.

باب أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص

الإيمان عند الحبشي: تصديق بالقلب وقول باللسان ولا يشترط لذلك العمل، إذ لم يذكر عنه شيء

وفي هذا فتح لباب التقاعس والتباطؤ عن الإلتزام بالأركان والواجبات العملية لهذا الدين، بحجة أن الله قد تعهد بإدخال من اعتقد وتلفظ بـ «لا إله إلا الله» الجنة وإن ترك كل الأعمال التي أوجبها الشارع الحكيم.

مع أن الله تعالى قد بين تلازم العمل والاعتقاد كشرط للإيمان، كقوله عز وجل في كثير من آياته: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات» وقوله عز وجل «الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقاً»[1]

وقد ذكر الله الصلاة على أنها من الإيمان فقال: «وما كان الله ليضيع إيمانكم» أي صلاتكم التي كنتم تتجهون بها إلى بيت المقدس قبل التوجه بها إلى مكة، فدل هذا على أن الصلاة (وهي العمل) من الإيمان، قال مالك رضي الله عنه: «وإني لأذكر بهذه الآية قول المرجئة[2] إن الصلاة ليست من الإيمان[3]».

---

١ ـ الإنفال ٢ ـ ٤.

٢ ـ وهم طائفة من أصحاب «غيلان وأبي شمر ومحمد ابن ابي شبيب المصري» فإنهم أخروا العمل عن الإيمان وقد ذكر البغدادي أن لعنهم قد ورد على لسان سبعين نبياً كما جاء عن الرسول ﷺ: «لعنت المرجئة على لسان سبعين نبياً، قيل من المرجئة يارسول الله؟ قال: الذين يقولون: «الإيمان كلام (الفرق بين الفرق) لعبد القاهر البغدادي ١٩٠.

٣ ـ الانتقاء ٣٤.

وروى ابن جرير الطبري في تفسيره عن ابن عباس ويونس بن عبد الإعلى وعن سعيد بن المسيب وزيد وحماد والسدي أنهم قالوا في الآية (وما كان الله ليضيع إيمانكم) أي صلاتكم التي صليتموها ببيت المقدس[1] وقد تطرق إلى تفسير قوله «ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم» فقال: زادهم الصلاة فلما صدقوا بها زادهم الصيام وكذلك الزكاة والحج» وعد ابن جرير كل هذه الأعمال معنى الإيمان المقصود[2] وقال تعالى: «فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين»[3]. دل ذلك على أنهم لن يكونوا إخواننا إن لم يكملوا الشرط بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة».

وقد عقد البيهقي باباً قال فيه: باب إن الإيمان يزيد وينقص قال: «وإن الايمان يزيد وينقص، وإذا قبل الزيادة قبل النقصان، ثم استدل على ذلك بقول الرسول ﷺ: «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان» .فدل على أن هناك أزود من هذا الخارج من النار إيمانا، ثم ذكر البيهقي عدداً من التابعين والأئمة وكذلك من الصحابة أنهم صرحوا بأن الإيمان يزيد وينقص.

والإجماع على أن الايمان قول وعمل يزيد وينقص ونذكر بعض كلام الأئمة في السلف في هذا:

روى البيهقي عن الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي يقول: «الإيمان قول وعمل يزيد وينقص وعن الثوري أنه قال: قد خالفنا المرجئة في ثلاث: نحن نقول أن الإيمان قول وعمل وهم يقولون الإيمان قول بلا عمل ونحن نقول: يزيد وينقص وهم يقولون: لا يزيد ولا ينقص.[4]

---

١ ـ تفسير الطبري ٢/ ١٢ وابن كثير ١/ ١٨٩ ـ ١٩١.
٢ ـ تفسير الطبري المجلد ١١ ج ٢٦ ص ٤٥ ط دار المعرفة.
٣ ـ التوبة ١١.
٤ ـ الاعتقاد للبيهقي ص ٨٠ و ٨٤ محقق ١٨١ ـ ١٨٣.

مخلصين له الدين حنفاء، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة». (١)

فهذه حجة الشافعي رحمه الله على المرجئة الذين يجعلون الإيمان قولاً بلا عمل فدلهم من هذه الآية على أن اشتراط الإيمان يتجلى في هذه المطالب القرآنية الثلاثة. مع أن الله قد ذم القول بلا عمل فقال: «لِمَ تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون» فالقول بلا عمل ممقوت عند الله تعالى، فدل عندئذٍ على أن القول مقترن بالعمل وما نفع إيمان لم يكتسب العبد به أعمالاً صالحة(٢)؟

ولقد كان الإيمان في قلوب اولئك الجيل الأول يدفعهم إلى أن يرموا بأنفسهم في ساحات الحرب إعلاء لكلمة الله نهاراً وإلى كثرة الركوع والسجود ليلاً، والتسابق إلى الخير من الصدقات وتجهيز الجيش المسلم وسموا فرساناً بالنهار ورهباناً بالليل فتبين صدق إيمانهم، وتميزوا بأعمالهم هذه عن أهل الإيمان الكاذب وتحقق في كلا الطرفين قوله تعالى: «فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين». وكيف يتم التمحيص بين الإيمان الصادق وبين الإيمان الكاذب من غير عمل يفصل بينهما؟

فقد علم أن هذا القول ـ أي القول بعدم اشتراط العمل حتى يكون الرجل مؤمناً هو قول الفرق المرجئة، الذين تبنوا هذه المقولة، ولعل الحبشي

---

١ ـ تبيين كذب المفتري لإبن عساكر ٣٤١ والحلية ٩/ ١١٥ طبقات السبكي، وأحكام القرآن ١/ ٤٠ والتوالي ٦٤. وآداب ومناقب الشافعي ١٩١ ـ ١٩٢

٢ ـ لقد برأ الشهرستاني أبا حنيفة من أن يكون مرجئاً، آخذاً بهذا المعتقد، فقال (ومن العجب أن غسان كان يحكي عن أبي حنيفة رحمه الله مثل مذهبه ويعده من المرجئة ولعله كذب ولعمري فيه أنه لما كان يقول: الإيمان هو التصديق بالقلب وهو لا يزيد ولا ينقص ظنوا أنه يؤخر العمل عن الإيمان، والرجال مع تحرجه في العمل كيف يفتي بترك العمل وله سبب آخر وهو أنه كان يخالف القدرية والمعتزلة الذين ظهروا في الصدر الأول، والمعتزلة كانوا يلقبون كل من خالفهم في القدر مرجئاً) الملل والنحل ٢/ ١٨٩.

وقال المقدسي في لمعة الإعتقاد: «والايمان قول باللسان وعمل بالأركان وعقد بالجنان، يزيد الطاعة وينقص بالمعصية[1].

وقد روى ابن الجوزي عن الإمام أحمد بن حنبل أنه كان يقول: « الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص» كما جاء في الخبر:[2] أكمل المؤمنين إيمانا احسنهم أخلاقاً[3].

وكذلك روى ابن الجوزي عنه قوله: « الإيمان قول وعمل يزيد وينقص: زيادته إن أحسنت ونقصانه إن أسأت[4].

ولقد عرّف الحسن البصري رحمه الله الايمان بقوله: «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكنه ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال».[5]

وعن عبدالله بن نافع الصائغ أن مالكاً كان يقول: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص».[5]

وروي عن الشافعي ما يدل على أخذه بهذا القول:

فقد روى هذا عنه الامام ابن حاتم الرازي «صاحب الجرح والتعديل» في كتابه «آداب ومناقب الشافعي» ما بيانه:

«أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص»[7] ثم قال: «ما يحتج عليهم (أهل الإرجاء) بآية أحج من قوله تعالى: «وما أُمِروا إلا ليعبدوا الله

---

١ ـ لمعة الاعتقاد ص ٢٠.

٢ ـ مناقب الإمام أحمد لإبن الجوزي ١٥٣ و ١٧٣.

٣ ـ أخرجه أبو داود في باب: الدليل على أن الإيمان يزيد وينقص (كتاب السنة) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح ورواه أحمد وابن حبان والحاكم، ورواه البيهقي في الاعتقاد ٨٢.

٤ ـ المناقب لإبن الجوزي ١٦٨، سلسلة اعلام المسلمين ص ١٥٧ ترجمة الإمام أحمد لـ «عبد الغني الدقر».

٥ ـ منهج أهل الحديث والسنة ٥١ ـ ٥٢.

٦ ـ الانتقاء لإبن عبد البر ص ٣٣ و ٣٦.

٧ ـ كما في الإنتقاء ٨١، وتهذيب الأسماء ١ / ٦٦ والفتح ١ / ٣٦، والتوالي ٦٤

قد أخذها عنهم،[1] إذ حين تكلم عن الإيمان والإسلام لم يدخل العمل فيه[2] ولم يذكره بشيء إنما اقتصر على التصديق والنطق، مع أن العمل ملازم للتصديق والنطق وهاك هو أحد الأدلة على ذلك:

فها هي حادثة الردة التي وقعت في عهد أبي بكر، قد سميت ردةً مع أن أصحابها ـ أي المرتدين ـ لم يرتدوا عن الإسلام ليعودوا إلى وثنيتهم وإنما جلّ ما فعلوه هو امتناعهم عن دفع الزكاة، إذ أنهم قالوا: «نصلي ولا نزكي[3]». فإن قالوا نصلي فمن باب أولى، أنهم يقرون بلا إله إلا الله والدليل الآخر على أنهم كانوا يقولون: «لا إله إلا الله» أن عمر رضي الله عنه قال لأبي بكر حين قرر محاربتهم: «كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فمن قالها عصم مني ماله ودمه إلا بحقها وحسابه على الله»؟ فقال أبو بكر: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، وقد قال «إلا بحقها» وكما ذكرنا فإن الصحابة والتابعين وغيرهم قد سموا مانعي الزكاة بـ «المرتدين» مع أنهم كانوا يقرون بالشهادتين ويقيمون الصلاة، فدل ذلك على أن العلاقة بين العمل والإيمان متلازمة.

ولو أن قريشاً تعلم أن الإيمان بالقلب واللسان، لقالت «لا إله إلا الله» ولوضعت حداً لهذه الحرب التي بينها وبين محمد ﷺ، ولا أحد يقول بإن ابليس ينكر أن الله إله واحد، أو ينكر أن محمداً رسول الله، إذ هو على علم بهذا جيداً.

---

١ ـ أنظر الملل والنحل للشهر ستاني ١/ ١٨٦.

٢ ـ والدليل على ذلك قول الكلاباذي: والدين الإسلام وهو والإيمان واحد عند من لا يرى العمل من الإيمان (أنظر التعرف).

٣ ـ لمذهب أهل التصوف (٨) رواه البخاري في كتاب الإعتصام (باب الإقتداء بسنن رسول الله ﷺ) وانظر تاريخ الخلفاء ص ٧٤ ـ ٧٥ للسيوطي، وكذلك أخرجه مسلم ح (٢٠) وأبو داود في صحيحه أول كتاب الزكاة ١/ ٢٤٣ والنسائي في كتاب الزكاة والجهاد والحريم. وأحمد ٢/ ٤٢٣.

إعتراف ابي جهل بصدق النبي ﷺ

قالها أبو جهل بلسانه، واعترف بذلك، ولا ينطق بها بلسانه إلا لأنه يعتقدها في قلبه فما نفعته ولن تنفعه بل لن تغني عنه شيئاً من عذاب الله يوم القيامة. وها هو تفصيل قصته:

قال الأخنس بن شريق يوم بدر لأبي جهل: «يا أبا الحكم! أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب، فإنه ليس ها هنا من قريش أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا؟

فقال أبو جهل: «ويحك! والله إن محمداً لصادق،[1] وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهبت بنو قصي باللواء والحجابة والسقاية والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش!!..»[2]

وقال المسور بن مخرمة لأبي جهل (وهو ابن أخته) ياخالي! هلكنتم تتهمون محمداً بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقال ياابن أختي والله لقد كان محمد ﷺ فينا وهو شاب يدُعى «الصادق الأمين» قال ياخالي فما لكم لا تتبعونه؟!

قال: «يا ابن أختي تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف، فأطعموا وطعمنا، وسقوا وسقينا، وأجاروا وأجرنا، حتى أذا تجاثينا الركب وكنا

---

١ ـ ها قد أقر بلسانه أن محمداً صادقاً فماذا نفعته؟..

٢ ـ هداية الحيارى ٤٨.

كفرسي رهان، قالوا منا نبي، فمتى ندرك مثل هذه؟!!» فهذا أقرار من أبي جهل بصدق محمد ﷺ وما جاء به قومه، وأنه نبي، واعترف بأن من كان يسمى بالصادق الأمين لن يكذب فيما جاء به قومه، فأقر أبو جهل بذلك الدين وبكل ما دعا محمد إليه، أليس هذا اعتقاداً بالقلب وإقراراً باللسان؟ فهل هذا ينجي رقبته من النار؟[1] فما الفرق بين أبي بكر القائل «إن محمداً لصادق» (فسمي بذلك تصديقاً) وبين أبي جهل القائل (أن محمداً لصادق)؟ إلا الفرق بينهما في العمل. وها هو أبو طالب عم النبي ﷺ ينشد شعراً في مديح دين الإسلام فيقول:

ولقد علمت بأن دين محمد　　من خير أديان البرية ديناً
لولا الملامة أو حذار مسبةٍ　　لوجدتني سمحاً بذلك مبيناً

وعلمه هو اعتقاده بالشيء، فهو يقر بصحة هذا الدين وأنه هو الدين المنزل من عند الله، وأثنى عليه بلسانه، لكنه لم يعلن ذلك على الملأ، مخافة مسبة أو ملامة.[2]

---

١ - نفس المصدر.

وقال كذلك:

ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً　　نبيا كموسى خُطَّ في أول الكُتْب

وكذلك:

حليم رشيد عادل غير طائش　　يوالي إلها ليس عنه بغافل
وأيده رب العباد بنصره　　وأظهر ديناً حقه غير زائل

٢ - انظر السيرة النبوية لابن كثير ٢/٤٩ و١/٤٩١

الكلام في قوله تعالى «لا ينفع نفسا إيمانها»

وكما أسلفنا فان الآيات التي في كتاب تبين بوضوح المدى الذي يقترن فيه العمل باللسان والقلب كشرط للإيمان. قال تعالى: يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها، لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً)[1] فإما إيمان لا يؤدي إلى العمل به عمل ما فهو إيمان غير نافع لا ينجي صاحبه يوم القيامة.

فإن لم يرجع الحبشي عن اعتقاده هذا فليقل بأن معاوية ابن أبي سفيان هو من أهل الجنة، لأنه ممن يقولون «لا إله إلا الله»، وعلى الحبشي عندئذٍ ينسى احداث الفتن الماضية بين معاوية وعلى، لأن عنده لا يضر مع الإيمان معصية، فكيف يحكم على صحابي بأنه من أهل النار، مع أنه يستشهد بحديث رسول الله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة» وهو لا يشترط العمل للإيمان بل الإيمان عنده هو عبارة عن قلب ولسان دون العمل!

إن من قال: «لا إله إلا الله» ونبذ باقي أركان الإسلام وشرائع الكتاب والسنة وراء ظهره، ولم يبال بأوامر الله ونواهيه متعدّياً لحدوده معرضاً عن ذكره، قاطعاً لصلته به، مفارقاً لجماعته، لا يعقل تسميته مؤمناً، وإن كان يؤمن بـ«لا إله إلا الله».

---

١ ـ الأنعام ١٥٨

إذ كانت حجة الله على كل البشر أن فطرهم على فطرة التوحيد ليحاججهم بها يوم القيامة وليس لهم بذلك فضل، ولا منّة ، وفي كتاب الله آية يسأل بها الشيوعي والمشرك والوثني وغيرهم. . . جميعاً سيسألهم الله تعالى عن التوحيد الذي فطرهم عليه.

وهذه الآية غاية في الحجة من الله تعالى على خلقه.

قال تعالى: «وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا بلى شهدنا» ثم يحذرهم ربهم أن يتعذروا إليه بأنهم وجدوا بين آباء مشركين علموهم الشرك ونشأوهم عليه فقال: «أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون» [الأعراف ٧٣]

ولهذا جاء القرآن مذكراً الفطرة البشرية على هذا التوحيد الذي خلقه الله فيها. فالتوحيد جزء من النفس، ولو لم يرسل الله أنبياءه الداعين إلى التوحيد، لكفتهم هذه الفطرة التي فطرهم الله عليها أن تكون حجة عليهم يوم القيامة كما أخبر العلي الكبير سبحانه. ولقد ناظرت الكثيرين من النصارى في عقيدتهم «الثالوث» فلم أجد أحداً يقر بها، بل يقولون إننا لا نؤمن بهذه المقالات، ولا نرتاح ولا نطمئن إليها بل إننا نطمئن إلى أن الله واحد، ومن قال خلافهم من النصارى فلا يخالفهم في أن الله واحد، لكنه يحتج بأنه واحد لكنه ثلاثة أقسام في جسم واحد، ويبدأ في التخبط والإضطراب والاختلاف في كلامه محاولاً التوفيق بين داعي الفطرة وبين عقيدة آبائه الموروثة.

بل إن دين اليهود يحل دم من قال بألوهية غير الله ولقد أطلعت على هذا من توراتهم، فهل يدخلهم توحيدهم الجنة؟

إن «لا إله إلا الله» منهج ينتظر من القائلين به العمل بمقتضاه، وإلا فالمشرك والوثني واليهودي والنصراني وغيرهم تنالهم حجة «ألست بربكم» وهم مسؤلون عند الله يوم القيامة عن هذا التوحيد الكامن في فطرتهم.

حتى إن مشركي قريش وغيرهم حينما شيدوا الأصنام ما أرادوا أنها آلهة متساوية مع الله في الإحياء والإماتة والخلق والرزق، فإن سألهم الرسول ﷺ «من خلق السموات والأرض ليقولن الله»، ثم إذا سألهم عن هذه التماثيل والأصنام قالوا: «ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى» لكن الشيطان دعاهم بعد ذلك إلى تعظيمها وحثهم عليها ورغبهم إليها، فكانوا يعكفون عليها، وإن أصابتهم مصيبة عادوا إلى فطرتهم ونسوا ما كانوا يشركون، كما قال عبد المطلب حين حاصر أبرهة مكة: «إن للبيت رباً يحميه»[1] فاحتمى برب البيت ونسي ثلاثماية وستين صنما نصبوا حوله، ويا عجباً لمنطق التذبذب بين الشرك والتوحيد.

ولو أنه عمل بما تكنه فطرته عند اطمئنانه وعمل بما تكنه عند خوفه لكان ذلك أهدى وأقوم. ولكن النفس عن نعمائها تشرك بالله فإذا اصابتها ضراء لجأت إلى الذي لا لجوء لغيره كي يكشف الضر عنها ثم إذا كشف الضر عنها نسيت ما كانت تدعو إليه «أو تناست».

قال تعالى: وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه وجعل له أنداداً [الزمر ٨].

فلو أن التوحيد لا وجود له في الفطرة للجأت النفس لغيره، ولكن هذا هو الإنسان.. ظلوماً بطبعه راغباً إليه في ضرائه.. راغبا عنه في سرائه ملماً عليه في الدعاء عند المصائب.. معرضاًعنه وعن ذكره في سرائه

---

١ - تهذيب السيرة لإبن هشام

وهذا غاية الحجة عليه عند ربه، لذا كان حقاً على الله أن يقول له يوم القيامة «أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم». فهذا الإعتذار مردود عليهم غير مقبول منهم.

فتبين أن ما غرسه الله في مظرهم من عقيدة التوحيد، ليس بمنجاة لهم إلا أن يعملوا بمقتضاه، ومقتضاه هو العمل بـ «لا إله إلا الله» وما تستوجبه من الأعمال التي بينها الله لهم بطريق الأنبياء والمرسلين.

فـ «لا إله إلا الله» هي مفتاح الجنة والعمل بها هو أسنانه. وهل يفتح المفتاح باباً وهو خالٍ من الأسنان؟

قال البخاري: وقيل لوهب بن منبه: أليس مفتاح الجنة «لا إله إلا الله»؟ قال بلى، ولكن ليس مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك».[1]

---

١ - رواه البخاري في أول باب الجنائز ٨٨/٣

الخاتمة

(حول الحبشي):

لست بمتمرّس في مهنة الكتابة، ولست برجل العلم ذي الشهرة الضيقة يريد بكتابه إتساعها، ولست بالذي يتجمل بهذا الكتاب أمام أعين الناظرين يبتغي بذلك ميل القلوب إليه، ولا بطالب غنى يشتريه بهذا الكتاب.

إنما أنا امرؤ من جملة الناس أسأءني ـ كما أساءهم ـ ما رأيته من أن ظاهرة من ظواهر الفتن تلوح في الأفق !.

وما هي هذه الظاهرة، وأين هي هذه الفتنة؟
إنها ظاهرة الشذوذ السلوكي التي صارت تظهر في شخص كل من يتتلمذ على يد هذا الشيخ الذي جاء إلى لبنان بظروف غامضة، وهو المسمى بـ «عبدالله الهرري الحبشي».

وقبل أن يأتي هذا الرجل لم يكن أحد من المتدنيين في لبنان يستصغر الذنوب، أو ينكر أن تكون المفاخذة من الزنا، أو يكفرّ يميناً وشمالاً، أو يفسّق معاوية بن أبي سفيان، أو يترخص بالثوم والبصل ترك صلوات الجمعة، أو يتخذ من الجدل والخصومة ديناً له، أو ينتقص من العلماء ويلغي البعض منهم، أو يتكلف قراءة القرآن بتكلفه إخراج حروف السين والصاد بطريقة مستقبحة تشغله وتشغل من حوله عند تدبر معاني القرآن، أو يعلنها حرباً على كل من لا ينتمي إلى الشيخ الحبشي، كان مسلماً أو مسلمه !

لم يكن كل ذلك معهوداً حتى جاء هذا الشيخ وعلمهم كل ذلك إضافة الى أنه فتح عليهم باب الخصومات في الدين، والتوسع في التكفير والتنزيه (المفصل القبيح) لله جل جلاله.. تعالى عن ذلك كأن يقول: «ومن قال دخيل رجلين الله فقد كفر، ومن قال زُبّ الله فقد كفر» الخ... وفتح عليهم باب الإرجاء في العقيدة، ونظرية الكسب التي ظن الأشاعرة أنها توسط بين القدر والجبر وفتح عليهم باب إنتقاص العلماء والنيل من الدعاة وإثارة الحقد على الداعيات وخاصة منهنّ اللواتي يلبسن الجلاليب إلى أسفل القدم **(لأن الحبشيات لا يلبسن الجلاليب الطويلة وإنما تصل ثيابهن إلى الركبة وما دون ذلك فهو مكشوف أو يلبسن السراويل التي يتشبهن فيها بالرجال، ولا مانع عندهن من وضع المساحيق على الوجوه والخروج بها في الشارع)**! كل هذه الأبواب فتحت على المسلمين هناك.

ولم يسلم علماء نجد من حقده وتهجمه مضار ينحي عليهم ويرميهم بأشنع وأقبح الإتهامات كقوله بأنهم مجسمة ومشبهة، وما نقم منهم إلا أنهم أثبتوا لله من الصفات ماوصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ ولم يتعرضوا للتأويل المفضي الى تعطيل ما أنزله الله وتكذيبه سبحانه ورمز بذلك في كتابه الذي سماه بـ «الدليل القويم علي الصراط المستقيم»[1]، وهو لايكاد يسكت عن ذكرهم في مجلسه، وإنني أشهد الله تعالى أنني لم أجد شيئاً من هذا الإتهام وهذه شهادة أشهد بها يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وفتح على الناس باب التجرؤ على الآخرين وسب أئمة المساجد ومخاصمتهم فيها وترك الصلاة وراء الغالبية منهم اللهم إلا من كان منتسباً إلى شيخهم!.

---

١ ـ الدليل القويم ٣٦

فهذا الرجل قد تسبب بفتنة عظيمة في لبنان أضل بها الكثيرين، وما كتبت هذا الكلام عنه إلا لأحذر الدعاة والقائمين على الدعوة الإسلامية في أي بلد إسلامي أن يحذروا منه وأن يحسبوا حسابه، **فقد قام في لبنان بدوره على الوجه المطلوب، وقد يكرر ذلك في أي بلد آخر يستوطن فيه.**

كتبت هذه الكلمان ولست أبالي كم قد تكلفني، فإن كلفتني نفسي فأنا رخيص جداً أمام دين الله الذي أفتديه بنفسي ومالي، وأنا أرخص بكثير من أولئك الشباب الطيب الباحث عمن ينقذهم من التيارات والشعارات الكاذبة في لبنان من شيوعية وإشتراكية وقومية الخ... فيأخذ بيدهم ضلّال مضللون ويقودونهم إلى طريق التكفير والتفسيق والوسوسة وإنتهاك الحدود والمحارم. فلئن كلفني تحذيرهم نفسي فذاك ثمن رخيص إذا قورن بوعيهم وإنتباهم لما يراد لهم.

والواقع الأليم يحتم عليّ تسطير هذه الكلمات التي قد تثير غضب البعض ممن يحسنون الظن به ولهؤلاء أقوال: «إخواني الأحباء: أستميحكم عذراً أن تنظروا إلى هذه القضية نظرة المتدبر الفاحص قبل أن تنظروا إليّ نظرة الساخط الغاضب علكم بذلك تلتمسون لكلماتي الأعذار أو تتكشف لكم الحقائق فترون نفس السبب الذي دفعني الى كتابتها.

أما من يكفرّني منهم بذلك فسأكون سعيداً بإنتزاع حسناته منه وإهدائه سيئاتي، ناهيك عن مخاصمتي له غداً عند من لا تضيع عنده مظلمه لأحد.

وفي الختام أحمد الله على توفيقه لي وأصلي وأسلم على أفضل الخلق وسيدهم محمد ﷺ وعلى آله وصحبه (كلهم).. أجمعين

المؤلف : عبد الله محمد الشامي